سارة وسيرافينا

سارة وسيرافينا (رواية)

جواد قرا حسن (كاتب بوسني)

ترجمة: إسماعيل أبوالبندورة

الطبعة العربية الأولى 2022

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، مجمع المفلح التجاري(87)، ط1.

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan.publish@gmail.com

www.alaanpublish.com

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced، stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN: 978- 9923- 13- 471- 9

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2021 /8 /4685)

895.61

حسن، جواد قرا

سارة وسيرافينا / جواد قرا حسن؛ ترجمة إسماعيل أبو البندورة – عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2021

(240) ص

ر. إ: 2021 /8 /4685

الواصفات: الروايات البوسنية/ / الأدب المترجم/ / الأدب البوسني/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

جواد قرا حسن

سارة وسيرافينا

ترجمة: إسماعيل أبو البندورة

مقدمة

تحكي هذه الرواية عن خفايا الحرب وإكراهاتها والانجراحات الإنسانية التي ترافقها، وهي لا تتعرّض للمجريات السياسيّة والعسكريّة بشكل مباشر، وإنما باعتبار الحرب فضاءً غائمًا ومجالًا ملتبسًا، إذ تذهب السرديّة إلى التفاصيل الحياتيّة واليوميّة البغيضة التي تربك الإنسان، وتشوّش عقله، وتطفئ جذوة الحياة فيه، وتجعله عاجزًا أمام الرّعب ومتاهة المصير. إنها تتناول الحرب وانعكاساتها في الروح والوجدان والعلاقات بين البشر.

وهي تصف حالة ونفسية الإنسان المحاصر الذي لا يلوي على شيء ويبقى أسير انكساره وحصاره، وتدخل إلى العديد من الخفايا التي تدور في خياله وتستدعي في خاطره كل مفردات الحياة السابقة وقت السلم والألفة وتسد في هذا الخاطر إيماءات وبشائر الأمل والتفاؤل ليعود هذا الإنسان إلى انطوائيته وحسراته وآفاقه المسدودة.

إنها رواية تصف هذا الظلم الكبير الذي تصنعه الحرب الذي يميت النفوس ويقهرها ويضعها في سراديب معتمة من المعاناة والأخيلة التي لا وجود فيها للضوء ولا للفرح وإنماحالة إنسان مقهور يستصرخ الضمائر لكي يبقى يعيش مثل بقية الكائنات ويخرج من الحصارات.

ولد جواد قرا حسن في مدينة دوفنو في البوسنة والهرسك، وهو كاتب وأستاذ جامعي، حاضر في جامعات سراييفو، سالزبورغ، جوتنجن، برلين (جامعة همبولت)، جراس.

يكتب الرواية والمسرحية والقصة القصيرة والمقالات.

أهم مؤلفاته: الديوان الشرقي، رواية خاتم شهريار، رواية، سارة وسيرافينا، رواية، مئة قصة عن الرماد.

القصص: الأسطورة الملكية، بيت المتعبين، تقرير عن الولاية المعتمة.

المسرحيات: المبشرون، لكن الملك لا يحب التمثيل، معزوفة الطيور.

حصل على العديد من الجوائز الهامة: جائزة جوته، جائزة هيردر، جائزة تشالرز فيللون، جائزة معرض الكتاب في لا يبزغ، جائزة جانيت شوكن، جائزة فرانز نابل.

ترجمت رواية سارة وسيرافينا إلى الألمانية والسويدية، والسلوفينية، التركية، الاسبانية.

اختيرت الرواية في عداد 50 رواية من أهم الروايات العالمية في إحدى الصحف الأوروبية.

ترجمت هذه الرواية لعدة لغات وحظيت باهتمام عالمي لأن فيها أسلوبًا ومضمونًا مختلفًا لمعالجة آثار الحرب ووقعها على الإنسان البوسني ومحيطه الاجتماعي وتطرح بعدًا جديدًا لما جرى في تلك الحرب المأساوية التي جرت في البوسنة بين عامي 1992 – 1996.

لون الظلال البرونزية

تتم إقامة الإنسان في هذا العالم تحت ظلال الشخصيات البرونزية، هكذا قال صديقي ألبرت جولدستاين في أحد أحاديثنا القديمة في مقهى فندق أوروبا النمساوي، وذلك أواسط الثمانينيات من القرن المنصرم. ويأخذني التفكير بالشخصيات البرونزية إلى النصب التذكارية بوصفها رموزا لنظام القيم باعتبارها جزءًا لا يتجزأ ولا مفرّ منه للنظام السياسي كمؤشر على الدولة. فدون الدولة لا وجود للنُّصب، ودون النُّصب لا وجود للدولة. ولذلك فإنني في الواقع أُدرِج في الأشكال البرونزية -أي النُّصُب التذكارية مجازيًّا- جميعَ الأشكال والعقابيل والوسائل، وكلّ شيء، ولكن حرفيًّا كلّ ما يتعلق بإضفاء الطابع المؤسَّسي على المجتمع البشري، وبالتالي على الدولة بمعناها الواسع، آملا أن يُسمح لي بذلك.

إنّ شخصياتي البرونزية هي إذًا المؤسسات، أو بالأحرى الدولة بمعناها الواسع، فالإنسان يفرز الأشياء كما يفرز جسمه البول والعرق وثاني أكسيد الكربون للضرورة وبشكل طبيعي تمامًا. وسيبقى الأمر هكذا إلى أن يصبح الإنسان كائنًا خوّافًا وكائنًا اجتماعيًّا إلى الأبد. إذا لم تفرز العرق فمن المحتمل أن تكون موجودًا، ولكنك لن تكون حيًّا، وإذا لم تنتجوا الشخصيات البرونزية، فمن المحتمل أن تكونوا أحياء، ولكنكم لن تكونوا بشرًا، بل نوعًا آخر من الكائنات الحية. أؤكّد بأنّ العلاقة بين

المجتمع البشري والدولة عميقة في الحقيقة ولا مفرّ منها في الوقت نفسه، وأؤكد أنّ الأمر لا يمكن تغييره بأيّ حال من الأحوال، كما هو الأمر في حقيقة أنّ في العديد من الأرقام الطبيعية يأتي رقم 7 بعد رقم 5.

دعنا نفكر في إحدى التجارب الممكنة، ولنقل التالية: نقتاد خمسة أشخاص من عدة أنحاء من العالم إلى جزيرة مهجورة، ونتركهم هناك يتدبرون أمورهم تبعا لطبيعتهم الفطرية وطبيعة الجزيرة. هؤلاء الناس لا يعرف بعضهم بعضًا، ولا لغة مشتركة بينهم، ولا مفاهيم لديهم حول التسلسل الهرمي والنظام والعمل.

لا أعرف إن كانت مثل هذه التجربة قد أجريت، لكنني متأكد من نتائجها بنسبة مئة بالمئة إذا أجريت، وإذا بقي الأشخاص المتروكون على قيد الحياة (وهم كذلك. وقد بقي روبنسون حيًّا، إذ إن الناس يحيون دائمًا، وينجحون في العيش، حتى لو كانت أعمالهم الشخصية سيئة، فالأعمال البشرية أسوأ -دون شكّ- من أيّ شيء ممكن أن يظهر في الطبيعة).

وأنا متأكد تمامًا من أنّ أناسنا -وهم على جزيرتهم المهجورة- أنتجوا نظامًا ما من الإشارات من أجل التفاهم في ما بينهم، ومعهم ظلال الشخصيات البرونزية، مناضلين من أجل أن يبقَوا أحياء، ومُصرِّين على أن يتفاهموا في ما بينهم، وأنتجوا مجتمعًا، وأنشؤوا معه تسلسلًا هرميًّا، وتقسيمًا للعمل، وتفويضًا، وأنماطًا محددة من السلوك والعلاقات البينية

التي تُلزِم كلّ واحد منهم. أنتجوا إذًا كلّ ما يمكن أن يفهم من مجاز الشخصيات البرونزية. من المحتمل أن أشخاصنا المتروكين غير واعين لذلك؛ ومن المؤكد تمامًا أنهم كانوا غير راغبين في القيام بذلك، لكنّهم على الرغم من ذلك خَلَقوا في إطارهم، ومِن حولهم، ظلالًا برونزية، وكأنهم أفرزوها من أجسادهم مع العرق.

لم أتفق مع صديقي، ولكنّي لم أعارضه، لأنّني حصّلت في حياتي من الدولة ما يكفي، وبالقدر الذي ألزمني ببساطة أن أوفر أحاديثي الشخصية عن حضورها. وعدا ذلك فإنّ التجربة التي يتحدث عنها ألبرت لم يعد من الممكن إجراؤها، لأنّه لم يعد هناك جُزر مهجورة يمكن أن يُترَك البشر فيها رهن الطبيعة. وعدم إقامتهم كان واحدًا من أول العلامات على أنّ العالم بقي بدون أسرار. وعالم بلا أسرار هو عالم مجرد من الجزر المهجورة، عالم لم تعد فيه المغامرة ممكنة. أدركت في ذلك الوقت شخصًا برونزيًّا وحيدًا أوحدَ يمدّ ظلّه على الجميع إلى درجة أنني عزمت على التواري عنه بكلّ ما أتيح لي.

لم أتفق مع ألبرت إذًا، ولكنّي اخترتُ الصمت، وتركت كلماته تتدفق في الهواء الثقيل للمقهى الغاصّ بالناس، وتختلط بالدخان والضجيج وأحاديث الناس، والهدير المعروف الذي يسود دائمًا في المقهى النمساوي لفندق أوروبا حيث كنا نجلس. وفي تلك اللحظة التي اختلط فيها كلّ ذلك، وعندما تدافعت الأمور إلى حدّ الإبهام بالقدر الذي كان

من الممكن لسجادة المقهى أن تمتصّ كلّ ما يمكن امتصاصه مرة واحدة، نسيت فكرة الصديق عن الشخصيات البرونزية وارتباطها الذي لا فكاك منه مع الطبيعة البشرية.

تذكرتها في أحد الأيام الباردة طوال عشر سنوات في تشرين الثاني عام 1993 أثناء حوار مع صديقي العزيز ديرفو بيرين، ذلك النهار الذي لا أستطيع نسيانه ببساطة، والذي لا أزال أتمنى لو أنّه لم يطلع، لأنّنا أصبحنا في ذلك اليوم دون سارة.

كان ديرفو قد عاد للتوّ من ميدان المعارك كما كان يسمي إقامته في الجبهة (لأنّ الجبهات في هذه الحرب، كما قيل، لم تكن موجودة)، فحدّثني عما رآه وعايشه وتمناه وفكّر به. وأثناء سرده سقطت كلمة تجربة، ومن المحتمل أنّ هذا جاء في سياق النسيان الذي أخرج كلمات ألبرت القديمة التي كان من اللازم أن تتلاشى في ثنايا سجاجيد فندق أوروبا، بسبب الإبهام المختلط بالدخان والضجيج وأصوات الناس الكثيرين. وعلى ما يبدو، أنه كان على ديرفو أن يذكر الجُزر في سياق الحديث عن التجربة ويصفها بدقة تامة، حتى يخلق في روحي صورة الجزيرة، ويُحتمل أنّه تحدث في إحدى اللحظات بصوت ألبرت الذي يختلط فيه التعب والنزق دون تكرار. إنني لا أعرف حقًّا ما الأمر، ولكنني أعرف أن كلمة تجربة، وبعض تفاصيل سياقها، استدعت إليّ كلّ رواية ألبرت عن الشخصيات البرونزية.

«يُجري أحدهم بعض التجارب علينا -أيّها البروفيسور- أنا أؤكد لك ذلك»، قال ديرفو. عندها، وهكذا تمامًا سمعتُ الآن بأذني أيضًا كلماته المنطوقة بصوته: «أحد ذو قدرة مفزعة يجري بعض تجاربه على أجسادنا وحياتنا المنتهكة. هكذا هو الأمر يا أستاذي العزيز، والآن أنا متأكد بشكل قطعي أنّ الأمرعلى هذا النحو، وليس على أيّ نحو آخر قطعًا، وهذا ما كان». وفي الحال، وعند هذه الكلمات بعد تصريحات ديرفو الغاضبة، حلّقت في ذاكرتي شخصيات ألبرت البرونزية، ومعها الأصوات والهمهمات والروائح، وكلّ ما هو عزيز لا يتكرر، ليشكل أجواء الفندق الذي أحببته. والذي لن أجلس فيه مرّة ثانية.

أبعض الشخصيات البرونزية مرة أخرى؟ سألتُ بطريقة مفككة وأنا أستدير -ربما فجأة- نحو الذكريات التي استيقظت، والتي لا أستطيع ولا أرغب أن أتجنبها، ولا أعرف حقًّا كيف أتعامل معها.

«لا أعرف كيف هي هذه الشخصيات، ولكني أعرف أنّها هائلة، ويُعنى بها الأطفال الصغار، وهذا ما أعرفه تمامًا» أجاب ديرفو.

حاولت أن أكتشف الغضب، أو الكراهية، أو البؤس، أو الخنوع، أو أي مشاعر كانت في تلك الأيام تضنيني دون توقف، ولذا وجدتني أبحث لذاتي عن الراحة في صوته، ولكن دون جدوى تمامًا. تحدث ديرفو بهدوء وتركيز عن التجربة الكبيرة التي أجراها أحدهم معه ومع حياته، كما

يتحدث عن الطقس والعائلة، عن الكاراتيه واسم فرهاتوفيتش، وباختصار بالطريقة التي يتحدث بها ديرفو.

سألته: هل يعني ذلك أنّ علينا أن نغادر المدينة، ونصحح بهذه الطريقة الخطأ الذي ارتكبناه في نيسان 1992 عندما قرّرنا البقاء في سراييفو المحاصرة بالكامل؟

«كيف خطر لك ذلك؟». سألني ديرفو بغضب، «ولماذا يجب أن نغادر المدينة؟».

أجبت:

«إذا كنت محقًّا، لأنّنا مجرد فئران. تُجرى التجارب على الفئران. كلّ شخص، يا أستاذي العزيز، هو فأر بالنسبة لشخص آخر، ودائمًا ما تصادف الفئران أينما يمّمت».

«لا تخفْ. الفرق الوحيد أنّك هناك قد تحصل على فأر لك إذا أحرزت الخبرة، وإذا أردت أن تملكه. أنا لا تجذبني فكرة امتلاكها، يكفيني منها تلك الحقيقية التي عندنا في سراديب مراكز الشرطة».

«نحن نهتاج لأنّنا ندافع عن بيوتنا وعائلاتنا وأصدقائنا وحقّنا الإنساني عليهم، ونحن في الحقيقة فئران.. وهناك حثالة تراقب بحياد تام وتُدوِّن تصرفاتهم. ولا يمكنك أن تسمح لنفسك بذلك».

تسكعتُ وأنا أشعر بالمرارة من هذا العالم، وكنت غاضبًا بسبب برود ديرفو. لا يمكنك أن تقبل ذلك إذا كنت تمتلك ذرة من الكرامة الإنسانية.

«أنا لا أعبأ بهم يا بروفيسور. إنني أدافع عن بيتي وعائلتي والباقي لا يهمني. لا شيء، ولا كيف يراني أيّ شخص. إنّ مهمتي هي أن أدافع عن بيتي وعائلتي ممّا يتهددهما، وليست قضيتي إن كان من يحيطني هو من التشيتنيك[1]، أو الراتب الزهيد، ولا ذاك الذي يراني مثل فأر أو شيء آخر. لكنه يراك فأرًا وقادك إلى وضعية الفأر -قلتُ ذلك بغضب أشدّ- ولا يمكنك أن تسمح بذلك، وأيم الله».

«هذا شأنه» أوضح ديرفو بهدوء نافر. «أن يرى الأمر على هذا النحو هذا شأنه، وقضيتي هي ما أعمله وكيف أتصرف. إذا تصرفت كإنسان- وأنا كذلك- مهما كانت نظرته لي ومهما قادته إليه سجلاته. وإذا تصرفت كفأر فأنا فأر حتى لو احتفى بي العالم بأسره بوصفي إنسانا. لا يمكنني تقييد من يحيطون بي، لأن هؤلاء ليسوا من شأني، وليس بمقدوري إلا أن أتعامل معهم، وهذا شأني، وهذه طبيعتي».

وهنا لجمتُ لساني كي لا أترك غضبي وعدم احتمالي وحسدي على عواهنه، بدلالة ما أسميته لنفسي بالجانب المعتم من صداقتي لـ ديرفو. كانت هذه الصداقة تعني لي الكثير، ويمكنني القول بحرية إنّ ديرفو كان من أفضل أصدقائي أيام القتال، وإنه كان بالنسبة لي في تلك الفترة أكثر من صديق، ولكن طوال رفقتنا، وتحديدًا عند كلّ لقاء -وكان ذلك يحدث عمليًّا كلّ يوم- إذا لم يشارك ديرفو في القتال ينبثق في الذهن شيء سيئ

(1) تشيتنيك : مليشيات صربية.

فعلًا، بعض التباس عاطفي امتزج فيه الحسد بالكراهية وعدم الاحتمال تجاه ديرفو، والغضب بسبب احتياجي إلى رفقته، إذ أكون معه شخصيًّا في حال من الاطمئنان والتحرر من الخوف والأسئلة غير الضرورية، وكلّ شيء آخر من الأشياء التي كانت تعذبني في تلك الأيام. وأقول إنّ ذلك قد ظهر منذ بداية رفقتنا.

تعارفنا منتصف شهر تموز من عام 1992، كان ديرفو نائبًا لمدير شرطة منطقة مارين دفور[2]، وكان بذلك واحدًا من الشخصيات المهمة في منطقة مارين دفور أيام الحرب، وكنت أنا مالك أحد أفران منطقة مارين دفور التي تعمل على الحطب والفحم، أي كنتُ أيضًا من الشخصيات الهامة في المنطقة في أجواء الحرب، مع أنني لم أكن مقاتلا. ولم يُباعد بيننا المركز الاجتماعي لكل منّا، بل حصل ديرفو في منتصف شهر تموز على إجازة لعدة أيام، وهذا يعني أنّ بإمكانه خلال تلك الأيام الذهاب إلى البيت في بوتشا بوتوك، وهي إحدى ضواحي سراييفو التي أقيمت في الستينيات، وسمّيَت الأبنية العشوائية. وسوف يكون طوال تلك الأيام مع عائلته بعد وقت طويل من الغياب (ربما يكون منذ شهر نيسان أي في بداية الهجوم على المدينة، لأنّ منطقة مارين دفور كانت إحدى النقاط المستهدفة).

(2) مارين دفور: ضاحية من ضواحي سراييفو.

جاء ديرفو إلينا لإعداد الخبز الذي أراد أن يأخذه معه إلى البيت، وكان قد حصل على الطحين والخميرة من مكان ما، وأخذ من مركز الشرطة جالون ماء، وحمل كلّ ذلك إلى إحدى الجارات لكي تعجنه، وجاء بعد ذلك لخبزه لدينا في الفرن.

وحين كانت هانيا زوجتي تخبز الخبز، تعارفنا أنا وديرفو وهمَمنا بالحديث. سعينا جديًّا لكن لم يكن هناك مجال للحديث هنا، ولم يكن ممكنًا لأنّ ديرفو كان سعيدًا جدًّا بلقاء العائلة، فكيف له أن يجري حديثًا مع إنسان غريب! وكانت تلك السعادة بلقاء العائلة التي يمكن فيها القول إنها «ديرفونية –من صنع ديرفو»، (هذا ما يمكن أن أقوله الآن عندما أنظر إلى الأحداث من هذه المسافة)، مما يعني أنها تركزت على جزئية واحدة، وكانت تلك الجزئية الوحيدة محطّ اهتمام ديرفو، وأصبحت الموضوع الوحيد الموجب للاهتمام لديه. وكانت تلك النقطة –أو بالأحرى الجزئية– التي يركز عليها ديرفو هذه المرّة هي الخبز الذي نجح في الحصول عليه، وهو الذي سيحقق أجمل مفاجأة لزوجته ويثير سعادتها. وفي الحقيقة كان من الأصوب القول إنّ مبعث كلّ سعادته وفخره كان في الإقامة في البيت ولقاء العائلة. تبدّى كلّ ذلك بشكل جميل وبهيج في قسمات وجه الزوجة عندما كانت تحمل الخبز بيديها، تلك الصورة التي رآها ديرفو بأمّ عينيه، التي لم يكن ليستطيع ببساطة أن ينفصل عنها، ولم يُرد ذلك بطبيعة الحال.

لقد حاول فعلًا أن يتحدث معي، حاول أن نتحدث معا أكثر بكثير مما حاولت أنا، لكنه كان في كلّ لحظة يقطع كلماته الأولى بنوبة ضحك أو تعليق على مفاجأة زوجته: «أتريد أن تستغرب.. ها... ها»، صرخ ضاحكًا وضاربًا على ردفه. أو أنه بعد أن نجح مباشرة في النطق بإحدى التفاهات أو جملة مصاغة بشكل جيد، نهض ولوّح برأسه وصرخ: «آه يا أستاذي العزيز.. لو أنك تدري كيف تكون هي عندما تبحلق عيناها!». ثم يكمل: «بتحليل الوضع كيف كنا نسمي أحاديثنا عن الحرب»، وينفجر ضاحكًا في منتصف الكلام، ويسأل: «ولو أني قلت لها إنّ هذا الخبز من التشيتنيك؟ وإنني صادرته هل كانت ستأكله؟ ماذا تقول يا أستاذي، هل كانت ستأكل خبزًا مصادرا؟». من الممكن أنّه دائمًا ما يتصور أجوبة جديدة وحمقاء على الأسئلة المفترضة لزوجته، من أين له بهذا الخبز الذي أحضره؟ كانت امتحانًا لجدية ديرفو وحاجته إلى أن يقدم نفسه بشكل جيد للأشخاص الجدد. أمضى وقته قبل المغادرة دون تغيير، وهو يضحك ويختلق كلّ القصص الحمقاء حول كيفية حصوله على الخبز، وإلى أن أصبح الخبز جاهزًا، وصار بإمكانه الذهاب، تذكر أنه لم يغادرهم كرجل وقور ومقاتل، فحاول الاعتذار مردِّدًا بأنه سيحضر بشكل مخصوص لكي نحلل الوضع، ثمّ سارع بالمغادرة.

كنتُ له من الشاكرين، وأشكره اليوم على ذلك المرح والضحك الذي أحضره إلى البيت. أسعدَنا ديرفو أنا وزوجتي في إقامته الأولى في

بيتنا، ومنحَنا العديد من ساعات الحديث عن تلك الأيام عندما كانت تعني الكثير.

وعند عودته من الإجازة، زارنا ديرفو لوقت قصير في بيتنا، وحمل لنا التفاح من بستانه، وذهب في اليوم نفسه إلى القتال (إلى الميدان كما كان يقول). ولكن وبعد وقت قصير من عودته من الميدان إلى المركز الواقع في جوارنا مباشرة الذي كان يُستخدَم ثكنة، وفى بوعده وجاء خصوصًا لكي نحلل الوضع. هكذا بدأت صداقتنا تتطور، وساعدتني على أن أتعرف على ديرفو بشكل أفضل قليلًا، وهونت عليّ احتمال الأيام التي كُتِبت عليّ.

وإذا كان من الضروري أن أصفه بشكل مختصر ومحدد فإنني سأقول إنّ ديرفو إنسان هادئ بشكل جليّ، وقوي التركيز. وبعد هذا اللقاء الأول الذي كان شيئًا مميَّزًا من كافة النواحي، لم يكن قد أظهر استثارة على الإطلاق ما خلا حديثه عن الغطس، على الرغم من الوضع وموضوع الحديث. وحده الغطس وعدّةُ الغطس استولدت السؤال عن رباطة جأشه، واستجلبت إشارات الاستثارة أو الشغف على محيّاه وفي حركاته. (لقد تعرّف إلى عالم ما تحت الماء كشرطي شابّ أثناء تدريبه بصفته متخصصا، ومنحه ذلك العالم الإخلاص والشغف بما يمتلكه تحديدًا مثل هؤلاء الناس المسالمين). إذا تحدّث عن الغطس، سواء بشكل نظري، أو عن حادث بعينه من ذكرياته في الغطس، كنتُ أعرف أنّ ذلك

يصعب عليه فعلًا. وكان هذا يحدث كلّما افتقد في المعارك صديقًا طيبًا، أو إذا كانت المعارك قاسية، فيظهر عندئذ وبعد كلّ شيء الحديث عن شغفه الكبير الذي يؤكد أنّه قد ذوى، ويستعيد طاقته الروحية والثقة بالعالم والمعنى والأهلية لكي يسعد بشكل عام. أمّا ما تبقى، وكلّ ما ليس له علاقة بالغطس، فقد تحدّث عنه بهدوء كافٍ وتركيز عال، التركيز الذي يمكن أن يسمه البعض الهوس. كان يعزل موضوع الحديث ويفصله عن بقية العالم، ثم يشير إليه بقدر ما هو ممكن بشكل عام. كأنه قدره، كأنه قدر العالم ذاته أن يفهم بشكل كامل ذلك الموضوع، وأن يعرف عنه كلّ ما يجب معرفته. وقبل كلّ شيء عن ذلك الكامل المجموع دون بقية، وكأنه لا يوجد شيء آخر في العالم، وكأنّ أيّ شيء آخر غير ممكن، أو كأن ديرفو لم يعطِ -إلهي العزيز!!- شيئًا آخر له إذا بقي في العالم شيء ممكن على الرغم من ذلك.

عندما أفكر اليوم بـ ديرفو، وعندما أتذكر الوقت الذي قضيناه معًا، وعندما أستدعي من الذاكرة بعض المواقف والأحاديث والمفردات البسيطة جدًّا آملا أن أفهم صديقي وصداقتنا، يمكنني القول: لم يكن الأمر بالنسبة له مسألة تركيز بالمعنى الحديث، أي في الأهلية العلمية بأن يجمع اهتمامه الشخصي بالمعطيات، بقدر ما هو معايشة للعالم، وهو إذًا ذلك الشيء الذي في داخلنا، حيث يلتقي التماع الشخصية والتربية -أي بالأحرى التجربة- بمعايشة العالم، بذاك الشيء الذي يحدد طريقة

تفكيرإنسان ما، وطبيعة مشاعره، ونشاطه وحديثه، وتصرفاته مع الناس وفهمه للرياضة، وعشقه للموسيقى ورؤيته للإيروتيكا، وبكلّ شيء آخر مكتسب من معايشة العالم.

إنّ ديرفو معلم صاحب خبرات، وهو ممن ندعوهم في البوسنة المعلم- الأسطة أو سادة البيوت كما يحدث في دوائر اجتماعية محددة تمامًا. إذا كنتم قد عرفتم في أيّ وقت من الأوقات أحدًا مثل هؤلاء المعلمين، فإنكم ستعرفون بماذا أفكر عندما أقول إنّ شدة تركيز ديرفو مرتبطة بعلاقته الوثيقة مع تجارب الحياة، وليس بالعلاقة مع التمارين الشُرَطية، والعمل في التدريبات القتالية، أو بأي شكل من الأشكال الأخرى ذات المبدأ العلمي.

المعلم - الأسطة هو ذلك المعلم الذي لم يتعلم أي مهنة، ولكنه يتدبر حاله في المهن جميعًا لأن يديه وعقله يعرفان التفكير على طريقة المعلم (إذا كنتم قد قرأتم أفلاطون أو كتاب فيتجنشتاين (الأطروحات الفلسفية المنطقية) فسيكون واضحًا لكم ما أفكر به.

ليس لديه مشغل لممارسة المهنة، ولكن لديه محل ضخم مملوء بآلات من كلّ نوع ممكن، حصل عليها من وقت لآخر ومن حاجة لأخرى. وهو يسمي المحل مشغلًا، وهو يستحق أن يسمى بهذا الاسم؛ ففي هذه الكومة الواسعة من الآلات لن تجدوا ما يلزمكم لأي مهنة محددة، ولكنّ معلمَنا صاحب هذه الكومة يجد فيها كلّ ما يحتاجه كي

يصلح أيّ عطل يمكن أن تتطلبه أيّ مهنة؛ وهذا يعني - على الأقلّ أو حرفيًّا - كلّ عطل يمكن أن يظهر في أيّ بيت. ووراء البيت، يوجد لدى المعلم العتيد، تحت سقف هشّ، كومة هائلة من المواسير والزوايا، وقطع آلات مختلفة، وألواح ودعائم وخوازيق، وأشكال منوَّعة من بعض المُخلَّفات التي لا يُعرف ممّ تخلفت، وهي بذاتها هشة لدرجة أنه لا يمكن أن يكون لها اسم محدّد، فتسمى إمّا هيبيك أو هاكنبوتس - كيت وكيت[3] ومثلها يمكن أن تجده في التسوية أسفل المنزل. هذه الكومة، من كلّ ما هبّ ودبّ، تُذكِّر أيّ شخص طبيعي بالمزبلة، وهي تنطوي على سمات المزبلة الأصلية إذا كان هذا الوصف ممكنًا بشكل عام. وأقول إنّ المعلم يسمي هذه الكومة «المخزون»، ويأخذ منها كلّ ما يحتاجه لأي شيء، ولأي إصلاح يمكن تصوره.

يُستدعى المعلم عندما تتعطل الغسالة أو باب فرن المطبخ، أو عندما تظهر الرطوبة على الجدران، أو إذا سقط شيء على الخزانة، أو إذا أردتم لصق ورق الجدران للبيت لمنع العفن من التساقط، أو للاستشارة حول التدفئة، أو إصلاح السقف، وبناء كراج في الجهة الغربية من البيت. ولا تستدعوا المعلم أبدًا إذا أردتم عمل شيء جديد، لأنّه يوجد معلمون متخصصون لمثل هذه الأعمال، وهم متخصصون جدًّا ومن النباهة لكي يقرّروا تقليد تصليح شيء من العدم (إكس نيهيلو).

(3) أسماء غير ذات معنى محدد.

لا يعرف المعلم كيف يُعدّ المشاريع ويضع خططها، ولا ينجح في أن يشعر بالقدر الذي يسمح له فيه ملاءمة العالم أو تصور أحد أجزائه، حتى إنّ المعلم يبدي بعض كرهه الأحمق للعقل الهندسي الذي يتبع المزاعم اللاعقلية في تقليد الصانع. لا يعرف المعلم توضيح كيفية عمل أيّ آلة بمهنية، لكنه يعرف إصلاح أيّ آلة، حرفيًّا أيّ آلة أتيح له فكُّها ومعاينتها إلى أن يجد شيئًا آخر فيها يمكنه إصلاحه. إنه لا يعرف كيف يصنع منضدة أو خزانة لأنه لا يعرف ولا يوافق على أن يصنع من جذوع الشجر ألواحًا، لكنّه يعرف إصلاح هذه وتلك، ويجد في مستودعه دائمًا الألواح الضرورية التي تناسبه لإصلاح ذلك العطل. إنّه لا يعرف البناء مثل عامل البناء، ولا يعرف وصل المواسير في البيت مثل فني تمديد المواسير المتعلم، لكنّه يعرف صيانة الجدار من العفن، أو ترقيع الحفر فيه، ويعرف كيفية تغييرالماسورة المكسورة في الحائط، ويعرف إصلاح الحنفية التي تسرّب الماء.

وكان عندما يستدعونه ويشرحون له ما الذي ينتظرونه منه، يستوضح طويلًا ويتفحص ويعاين، يتأمل ويفكر، يجسّ ويتنحنح ساعيًا إلى فهم مشكلتهم بكلّ تفاصيلها. ويكون عليكم عندما يسعل في إشارة للبدء بالعمل أن تبتعدوا راضين، فهو لا يعود يهتم لوجودكم كثيرا، إذ إنه يندمج مع المشكلة التي عليه حلّها. تلك المشكلة التي بدأ العطل يظهر في بعض أجزائها، أو التي ابتدأ العطل منها، هو بالأحرى منطق تكويني: على أيّ

جزء بدأ العطل، وبعض الإمكانيات لإزالة العطل، وأقول إنّ تلك المشكلة ستستحوذ على اهتمامه بالكامل، وعليه فإنه سيركز تمامًا على مشكلته حتى إنه سيشعر – ربما في لحظة ما – أنّ مشكلته هي الشيء الوحيد الموجود فعلًا.

وعندها يذهب إلى مشغله كي يحضر الأدوات التي يحتاجها، ويذهب من ثَمّ إلى المستودع كي يُفَصِّل القطع من بين تلك الكومة الهائلة التي يتوجب عليه تركيبها بديلًا عمّا هو معطل، ليعود بعدها إليكم ويقوم بالعمل الذي طلبتموه.

كان لدى ديرفو معايشة للعالم بهذه الحرفيّة العريقة، وقد بيّن بكلّ السبل طريقة التفكير والمشاعر في كلّ حديث بغضّ النظر عن الموضوع، كان يُظهِر ذلك التركيزغير الإنساني على ما هو مُحدّد، وهذا ما ساعد مثل هؤلاء المعلمين على إصلاح كلّ شيء بكل ما تعنى الكلمة من معنى.

لم أسأله عن ذلك؛ لأنّ مقارنتي بين طبيعته وبين المعلمين الكبار لم تخطر لي على بال في الوقت الذي استطعت أن أتحدث فيه معه، لكنني كنت واثقًا تمامًا من أنّ ديرفو نشأ إلى جانب والده الذي كان معلِّمًا متميزًا وفريدًا. كان من أولئك الذين تعلموا أن يفكروا ويشعروا بطريقة مهنية فائقة، ولذلك فهم يولدون بهذه الأهلية، ومن ثَمّ، وعلى أساس هذه المعرفة، وبفضل الكفاءة، يفكرون ويفهمون المشاكل في مُحدداتها، يحلّون المشاكل الخاصة بإحدى المهن. ويمكنني أن أراهن بأنّ والد

ديرفو كان على هذا النحو معلمًا عالميًّا. كان عليه أن يوجه ابنه للالتحاق بالشرطة؛ لأنه استوثق بفراسته أنه لأجل أن يكون ابنه معلمًا عالميًّا من طرازه، فسيكون هناك القليل من العمل في انتظاره، وإمكانية أقلّ للمعايشة، لأنه جاء وقت لا يُحتَمَل فيه المعلمون لأنهم يفكرون.

وعلى كلّ حال، فإنّ الأمر سيّان تمامًا إذا ما كان والد ديرفو من هذا النوع أو غيره، وسيّان تمامًا إذا ما كانت معايشة ديرفو للعالم قد أخذها من والده أو من الجيران، أو حصل عليها بالدراسة أو بالتربية، أو أنه ولد مع مثل هذه المعايشات للعالم، المهم أنّه فكّر، وفكّر بطريقة المعلم العالمي العريق. وهذا حقّ. إنني متأكد من هذا، وبقدر ما أعرف صديقي أسمح لنفسي بتأكيد ذلك. بهذا الهدوء والتركيز والدقة بالتفكير، وبطبيعته بوصفه معلما عالميًّا أيضًا كنت أربط ذلك مع ما كنتُ في وقت ما قد أسميته الجانب المعتم لعلاقتي بديرفو. هل يعود ذلك لأننا تعارفنا عندما كنت قد فهمت أنّ ما أحببت اعتقاده أيام الشباب يعود إلى تعدديتي، أو في الحقيقة إلى هوسي المأساوي بالتركيز، وهو ما يمكن – وفقًا للضرورة العلمية – أن يحكم عليّ بالسطحية؟ هل يعود ذلك إلى أننا تعارفنا عندما اتضح لي أنني متعدد الصنائع، وسطحي، وأنني سأبقى هكذا إلى الأبد؟ والصداقة معه ومع هوسه بالتركيز، الهوس الذي يُذكِّرني دائمًا بهذه المعرفة التي بإمكانكم أن تصدقوني بأنني لم أكن راغبًا فيها. هل لأنني حسدته متجاوزًا كلّ الاعتبارات على الهدوء الذي أتوق إليه منذ وعيت

نفسي، والذي لديه منه الكثير؟ هل يعود ذلك، كما تؤكد زوجتي، إلى أنه استطاع تقبل مصيره دون أسئلة غير ضرورية ودون مقاومة؟ أي أنه – كما يمكن أن يقال أيضًا – تصرّف باتزان وهدوء بالطريقة التي أردتُها تمامًا، بينما أنا الذي يتفلسف بكلّ الرضا عن المصير، والأولويات والمصادفة والعقل، وبقية التغيرات الإنسانية المتعلقة بالمصير. وفي تلك اللحظة التي أواجه فيها المصير أبدأ أتخيل برعب كيف أخدعه، وكيف أهرب منه، وكيف أحيله إلى القريب مني بدلًا من نفسي؟ هل كان ذلك، بمختصر الكلام، بسبب الحسد وتلك الميزة التي يملكها، وأرغبها كثيرًا ولا أملكها؟ أم بسبب أمر خفي لا يخطر لي على بال؟ وقد انتابتني، على كلّ حال، منذ بداية صداقتنا نوبات حادة من تعكّر المزاج، أو حتى من عدم الوديّة تجاه ديرفو. أو أن الأمر على غير ذلك، إذ ليس من الضروري التبسيط حتى تأخذ الأمور وضوحًا ظاهرًا. لم يكن ذلك حسدًا أو سوء مزاج.

الناس في وقتنا يمكن أن يطلقوا على تلك النوبات تسمية الطاقة السلبية، وتعجبني هذه التسمية على الرغم من محافظتي، لأنّها تناسب الواقع أكثر من تسمية واضحة ظاهرة هي «الحسد» الذي لا علاقة له بذلك الذي كان يمور في داخلي حقيقة. أعتقد أنّ الأمر يتعلق بطاقة سلبية فعلًا؛ إنه الوضع عندما تغشاك بالفعل مشاعر سلبية تجاه مُحَدِّثك لسبب غير واضح، وتنتابك في منتصف حديث مريح وجيّد مشاعر الغيرة،

والغضب، الكراهية والسخرية، الرغبة في أن تضحك عليه، والحاجة إلى إهانته ببساطة، مع عدم احتماله. ولكن قبل ذلك، وفي تلك اللحظة نفسها، لا تطغى عليك المشاعر السلبية نحوه فحسب، بل يمكن للأمر أن يكون ببساطة أكثر جمالًا ممّا لو جرى على هذا النحو. في اللحظة نفسها أثناء نوبة عدم الاحتمال تشعر بالجاذبية والاحترام تجاه مُحدِّثك، وتريد أن تكون مثله، وتعرف جيدًا أنك ترغب في الصداقة معه وتسعد بها، وتعرف كم هو جيد أن تسعد بذلك. يجتاحك التباس روحي لا ينفصم، ويتعذر تعليله، يحرف مشاعرك السلبية نحو ذاتك بقدر ما هي موجهة نحو مُحدِّثك، أو هي أكثر تجاه ذاتك. لنقل إنني كنتُ أحتقر نفسي في اللحظة التي كنتُ أحتقر فيها ديرفو، وربّما بشكل مضاعف وأكثر شدة منه، لأنّني كنت أفسر شجاعته وأهليّته في التحكم بالخوف بافتقاره للفنتازيا وحكمته واستعداده لقبول تعريف ما هو حتمي على أنه غباء، لأنّني في تلك اللحظة، وفي الوقت نفسه، مع احتقاري له بسبب تلك الميزة، كنتُ أشعر أنّ من الأفضل امتلاك مثل هذه الخاصيات حتى لو كانت افتقارًا للفنتازيا والغباء. وأعتقد أنه بإمكاني أن أقسم بأني في تلك اللحظات، وأثناء نوبات الطاقة السلبية، كنت أسخط بشدة على ذاتي بسبب انجذابي الوديّ الصادق نحو ديرفو، واعتمادي الكامل على تحليلاته الهادئة لأيّ موضوع، أكثر مما كنتُ أغضب على ديرفو نفسه. لذلك أعتقد أنّ وضع الإنسان أثناء تلك النوبات يكون في حالة يمكن

تسميتها الالتباس الروحي، وذلك لأنّني أميل للحديث عن الطاقة السلبية عندما أتحدث عن نوباتي ضدّ ديرفو أكثر مما أحاول التهرب من التبسيط الجميل الذي يعطي كلّ شيء مرأى واضحا، ولذلك أعتقد أنّ مثل هذا الالتباس لا يمكنني توضيحه وعرضه بوضوح على الآخرين، وكذلك أعرف أنني لا أستطيع قول أيّ شيء عن نوباتي بثقة أو إثباته. الشيء الوحيد الذي أنا متأكد منه أنّ نوباتي السلبية أتت، وبقيت كلّ التباساتي في تماسّ مع هدوء ديرفو وافتقاره إلى التركيز على ما هو محدد، وأهليته بأن يحصي بنفسه كلّ ما يقوم به في تلك اللحظة. وليس هذا مجرد حسد، بل يمكن أن يكون -كما أسلفت- تبسيطًا. وكان من الجيّد لو أن الأمر من باب الحسد فقط، ولكنّه لم يخلُ تمامًا منه. ولهذا كلّه كنتُ قد أسميت ذلك الجانب المعتم في علاقتي مع ديرفو. هذا ما أعرفه بقدر كبير من الثقة، ويمكنني أن أثبته بقدر كبير من المسؤولية.

يمكنني أن أثبت بمسؤولية أنّ طاقاتي السلبية كلّها، وغضبي كلّه، ونوبات عدم احتمالي تجاهه وتجاه ذاتي، والمشاعر الشريرة كلّها، لم يكن لها لحسن الحظ أي عواقب سلبية على هذه الصداقة. وبمختصر القول إنّ الجانب المعتم من صداقتي مع ديرفو لم يؤثر سلبًا في هذه الصداقة. ولنقل إنني لم أتح المجال، ولو لمرة واحدة، لكلّ ما هو سلبي، ولم أنطق ما كان على طرف لساني في تلك اللحظات، ولم أرجُ ديرفو ألّا يزورنا بعد اليوم، أو أن يحررني من هذه الصداقة، لم أوضح له أن الإنسان

جدير باسمه إلى الحدّ الذي يقاوم فيه ضرورته، وليس من الصعب أن يكون المرء شجاعًا إذا كان عديم الخيال بما فيه الكفاية. لم أوجه له الإهانة، لأنني سأكون قد جلبت العار لنفسي، مع أنني كثيرًا ما رغبت في ذلك في لحظات نوبات نفاد صبري. ربما كنت كبير السنّ بما فيه الكفاية لأكون رجلًا جديًّا، والرجل الجدّي يعرف على أي حال أنه غير مسؤول عن أفكاره ومشاعره، ولكن في الواقع يُسأَل عن تصريحاته وتصرفاته، أو بالأحرى عن كلّ العواقب المتصورة لتلك الأفكار والمشاعر.

وأعتقد أنّ ديرفو كان قد بلغ من العمر ما فيه الكفاية، وكان ذكيًّا ليعرف بثقة كيف تكون الصداقة غير ممكنة مع شخص لا توجد لديه نواقص، فتظاهر بأنه لا يلحظ نفاد الصبر لدي من وقت لآخر، وفي غالب الأحيان للأسف. هل عليّ هنا أن أشكر تجربته الشرطية؟ وهل أنا مدين بصداقتي للشرطة التي جعلت ديرفو يواجه مجددًا ودائمًا كلية الطبيعة الإنسانية؟ وهل أصبح العمل في الشرطة هو حقًّا الفعالية الإنسانية الوحيدة التي تراعي الوجود الكلّي للإنسان؟. هكذا كانت صداقتنا ضرورية لكلينا، وجميلة حقًّا، ونجحت في الاستمرار أقلّ من عام على الرغم من كلّ ما اعترضها، من تجاربنا الحياتية إلى الشخصية، ومن نوبات نفاد الصبر لديّ.

ظلّت مشاعري القبيحة تحت السيطرة حتى عندما فاضت إلى الخارج. وكما أنه من المحتمل أن يحدث بشكل رئيس في الحياة الإنسانية، وكما هو لدي للأسف حالة دورية، وحدث هذا تمامًا عندما كان في أقلّ الحالات إمكانًا للحدوث. حدث هذا ذلك اليوم عندما كان ديرفو يتأهب للذهاب للقتال في أحد المواقع خارج سراييفو، عندما كان عليه للمرة الأولى منذ بداية نيسان 1992 أن يخرج من المدينة عبر طريق سرية، وعندما وجد نفسه أمام شيء جديد تمامًا. وكان من طبيعة الأمور أن يكون التفاهم الرفاقي ضروريًّا أكثر ممّا كان في أيّ لحظة. خرج ديرفو للقتال في ذلك اليوم بطريقة مغايرة إلى حدّ ما، لأنّه كان يعرف أنه ذاهب إلى ميدان القتال الذي لم يكن في المدينة، بل هو في موقع مغاير. ذلك الخروج الذي بدا له خصوصيًّا بطريقة ما، وسيظهر لي لاحقًا أنه كان مصيريًّا، لأنّ لذلك علاقة ببعض قراراتي بعيدة الأثر التي لن أتجرأ عليها. تحدث ديرفو عند عودته عندئذ من القتال الذي خاضه، عن التجربة التي تُجرَى علينا، وتذكرتُ أنا ألبرت جولدشتاين والظلال البرونزية. انتهت تلك الإقامة المصيرية لـ ديرفو في الميدان في ذلك اليوم الذي أروي فيه عنه، في ذلك اليوم الذي أصبحنا فيه جميعًا دون سارة، وأصبحتُ أنا دون أيّ شيء مهم قد أنجح في معرفته، دون أيّ شيء مهم على الإطلاق. وهو من الأهمية بمكان أن أكرره طوال ذلك اليوم، ساعةً إثر ساعة، ولحظةً بعد لحظة، بأمل أحمق بأنه ربما يمكنني بواسطة هذا الطريق، اكتشاف

ذلك الشيء الذي فقدته بذهاب سارة، لأتحرر بهذه الطريقة من هذه المنغصات والشعور بالفراغ العميق المؤلم في سريرتي.

كان من الضروري أن يذهب ديرفو أواسط شهر يناير عام 1993 إلى القتال في تريسكافيتسا، ومثل كلّ مرة لقبل مغادرته إلى الميدان عادني لوقت قصير جدًّا كمدّة إشعال سيجارة. (كان هذا ربما بعضًا من طقوسه الخاصة، التصرف الذي يتكرر، وبتكراره يثبت الواقع؛ وهكذا فإنّ الإنسان الذي يكرّر ما يقوم به يمتلك الثبات، أو على الأقل، يخفف وطأة عدم الثبات والخوف).

هل يستثني تبادل المعلومات المتعارف عليها، التي يُفهَم منها في ظروفنا التواصل بين أيّ اثنين متحاورين؟ كان ديرفو يتحدث طوال الوقت عن صراع وحيد، أو في الحقيقة عن أزمة وحيدة عندما كان في السنة الثامنة عشرة من العمر من حبه المديد لزوجته. ظهرت تلك الأزمة بعد أقلّ من عام على بداية تعارفهما، عندما أهدته جزمة من تلك التي كانت تُنتَعَل في تلك الفترة، بساق عالية وكعب سميك. والحقيقة أنّ مثل هذه الجزمة كانت صيحة حديثة من صيحات التقليعة، وكان من الطبيعي جدًّا بين الناس أن تهديها فتاة لحبيبها. والحقيقة الثانية أيضًا أنّ ما أعجبها هو أنّ ديرفو كان خارج – أو من الأفضل القول بعيدًا عن – كلّ التقليعات المُتخيَّلة، وحقيقي أيضًا أنّ من هي مثلها كان بإمكانها أن تفكر بهدية رأس سنة لحبيبها لا تكون جزمة. وهكذا، ولهذا السبب، يمكن أن يحصل بأن

يفهم هديتَها على أنه قصير القامة، وأن يعتبر ذلك تعبيرًا غير مقصود عن عدم رضاها المحتمل وغير الواعي عن طوله، أو بالأحرى علامة على رغبة مجهولة لديها وحدها بأن يكون زوجها أطول قليلًا على الأقل. وببساطة نقول إنّ هديتها آلمته وأهانته في الأعماق بدلًا من أن تفرحه، فاقتاد وهو يشعر بالإهانة على هذا النحو، في لقائه التالي، ثلاثة من أعزّ أصدقائه من الشرطة الخاصة، وعرّفها بهم، ومضى معلّقًا بأنه يأمل في أن يكون هؤلاء الشباب طوال القامة بما فيه الكفاية لتجد من بينهم من يناسبها!

استمرت دراما سوء التفاهمات والتوضيحات، ولم تنه المشكلة سوء التفاهم طوال شهر، بل ضاعفته إلى أن سألته في إحدى المرات إن كان بإمكانه أن يصدق بأنها قانعة به تمامًا إذا ما انطلقوا إلى الزواج. كانت تلك من ناحيتها تضحية كبيرة، لأنّ ذلك يعني انقطاعها عن الدراسة المُنتظمَة التي لم تكن دون طموحات جدية عندها، لكنّ ديرفو قبل بها وبتضحيتها برضا، واقترح أن يتزوجا في أقرب وقت ممكن. وهكذا انتهت الأزمة المعقَّدة بينهما، وحظي على هذا النحو بزوجة لم يتشاجر معها فعلًا حتى اليوم، مع أنّ لهما طفلين بالغين وألفيا العديد من السنوات الصعبة خلفهما.

ومهما أحبها بهذا القدر، ومهما أسعده التفكير بها، ومهما حاول أن يجد اعتراضًا عليها أو على زواجهما، كان عليه في النهاية أن يعترف بأنهما

عاشا حياة مشتركة جميلة بالفعل. وعلى الرغم من ذلك فإنّ مسلسل الجزمة لا يزال يلاحقهما حتى اليوم. إلى الجحيم يا أستاذي، كلّ شيء في الحياة نسبي.. حتى بمتر وبضعة سنتيمترات أنت طويل القامة بما فيه الكفاية إذا ما نظرت إليك زوجتك على هذا النحو، وأنت قصير القامة حتى لو كان طولك مترين إذا ما أرادت أن تضيف خمسة سنتيمترات، أنهى ديرفو روايته عن دراما حبه القديمة التي لم تنته ولن تنتهي.

كانت تلك أول مرة يتحدث فيها ديرفو عنها منذ ذلك اليوم البعيد من شهر أيلول الذي خبزنا فيه الخبز. كانت الميزة الهامة لـ ديرفو ولصداقتي معه هي التهرب من المكاشفة فيما بيننا، في كلّ المواضيع الحميمة، وفي الواقع غياب كلّ ما يمكن أن نسمّيَه الحديث الإنساني الدافئ لرفقتنا التي لم تكن صامتة بالتأكيد (عندما أفكر الآن بشكل أفضل، وعندما أتذكر أنّ مبدأ تحريم المكاشفة قد بدأ من تلقاء ذاته دون أيّ اتفاق، أميل إلى التوثق مِن أنّ هذه الموضوعية، وذلك التباعد لم يكونا مجرد خاصّية، بل كانا شرطًا، أو هما من شروط المكونات الأساسية لصداقتنا. كأنّ لدى ديرفو تجربة سيئة مع أناس حميمين). وهو يحدثني الآن عن زوجته، وهذا يستثيرني. وبالنسبة للحديث الحميم، كما هو الأمر في رفقتنا، فإنه ببساطة لا يرتضي إلّا أن يختار سؤالًا واحدًا، أحد الأماكن المؤلمة من العشق في حياته.

وبهذا القدر إذن كان خوفه عميقًا كي يراعي ذاته، ويتصنع كيف أنه يتحدث معي أو يروي لي شيئًا عن نفسه. إنه في الواقع يتهيأ للخيار السيئ، أي بمعنى أن نتوقف عن اللقاء؛ وهذه الرواية تثبت بشكل قطعي صداقتنا لأنه من خلالها يبين لي السر المضاعف والأعمق. لم أكن أحب التعرف على أعماق خوفه، ولم أكن أحب امتلاك فرصة التحضر للموت مع شخص لا أكاد أعرفه. من المؤكد أنه قذر في ذاته. لكنّه قبل كلّ ذلك هادئ، شديد التركيز، متّزن، ومتوقد الذهن، وكأنّه عندما يتحدث يتحدث عن تغيير جوارب مبتلّة. أيّ درجة من التركيز هذه! وكيف تكون رباطة الجأش هذه!

هذه هي الفكرة، وأنا متأكد بأنّ صرخات الدهشة التي انفجرت في داخلي ترتبط بالفكرة عن عمق وثقل خوفه الذي لا يسمح بعرضه، أنا متأكد وأقول إنّ ذلك الرابط القصير استثار فورة نفاد صبري، وقاد إلى أنه أصبح الطريق الوحيد الذي يبين بشكل صريح الجهة المعتمة لصداقتي مع ديرفو.

سألتُ في إحدى اللحظات، بلا سبب، وعلى حين غرة (في الواقع كان هذا ما أدّى إليه نفاد صبري):

- هل تشعر بالخوف في مثل هذه اللحظات، أي قبل الخروج إلى أي موقع، أو بكلام آخر، قبل الخروج إلى القتال؟
- إنني أخاف بالطبع.

أجاب ديرفو بهدوء وسكون وتركيز وكأنه يتحداني.

- أبشدة؟

- تقريبًا.

أجاب ديرفو للمرة الثانية كما كان يجيب دائمًا.

والآن عندما أتذكر هذا، وعندما أستعيد كلّ لحظة من تلك الأحداث واللقاءات، وعندما أخجل من نفسي لسبب ما، أميل عندئذٍ إلى التأكد من أنني كنتُ أقلّ شرورًا، حتى إنّ ديرفو كان ليقول «تقريبًا» بدل تعبير «بما فيه الكفاية» أو «ما يشبه ذلك». وربما يتهيأ لي أن أكون أكثر احتمالًا بسبب تأكدي من خجلي الحالي.

- وكيف تجد حلًّا لذلك في النهاية؟

واصلت السؤال بغضب أشدّ، هكذا قبل القتال وأثناءه وبعده، عندما يتذكر المرء ويعايش كلّ ذلك مجدّدًا في ما بعد، ويتجمع كلّ ذلك بهذا القدر، الكثير من الخوف والتوتر والقلق. وتضيق ذرعًا من هذا، فيتوجب عليك أن تنفجر إذا لم تُحرِّر جزءًا ما بطريقة ما على الأقلّ، إذا لم تخفف الضغط، كيف ستتعامل مع ذلك؟ هذا ما يثير اهتمامي.

- لقد قلتَ ذلك من تلقاء نفسك، أتحرر بقدر ما هو ممكن.

أجاب ديرفو، وألقى بنصف سيجارة في النار. (ليسامحني الله لأنني لم أوفَّق في تلك اللحظة في أن أفهم كيف تجري الأمور معه. أرجو الله العزيز الرحيم أن يسامحني لأنني لا أريد أن أفهم ذلك، ولا أستطيع على

الإطلاق). لا يمكنني الاحتمال، ولا يمكن الاستمرار إذا لم يتم التحرر. تأتي لحظة لا يعود ممكنًا فيها بقاء شيء طيّ الكتمان، أنت على حقّ تمامًا.

قلت هامسا:

- ولكن كيف؟ هذا كلّ ما في الأمر.. كيف يمكنك التحرر من شيء عايشته؟ كيف يمكنك أن تنسى؟ كيف يمكنك تخفيف الضغط؟
- ولا بأيّ شكل. هناك جزء نسيته، جزء يُمحَى ببساطة وكأنه لم يكن، وجزء تكبته عميقًا في ذاتك، وتزعم أنّ لا علم لك به. وهذا يمضي إذا ضغطت عميقًا بما فيه الكفاية.

كان جوابي على هذا واحدًا من محاولات الإقناع الطويلة الصاخبة، بأنّه لا يوجد نسيان ولا زوال، ولا شيء ينمحي من الوجود تماما، وهو ما يتحدث عنه ديرفو. لا يمكن قطع الوجود، ولا يمكن إنكاره، فذاك الذي حصل على حظوة الوجود، لا يمكنه إضاعة هذه الحظوة والانتقال إلى اللاوجود إلّا برغبة من ديرفو، وهو ليس بإرادتنا ورغبتنا على كلّ حال، ولا وجود للنسيان. ومهما بُذل من جهود ورُصد من مال من أجل ذلك، ولو أنّ ثقافة بأكملها تحوّلت كما هي اليوم إلى صناعة النسيان والمحو والتقليل من أهمية الذاكرة، فلا نسيان هنا. كلّ ما كان يومًا ما يبقى في الذاكرة. أنا لا أعرف كيف، ولا أعرف أين، ولكن في مكان ما، وبطريقة ما، يبقى راسخًا في الذاكرة. أنا متأكّد من أنّ جذع الشجرة يتذكر الورقة

التي لها ماضٍ، وكلّ ورقة على كلّ غصن تتذكر. وتبقى كلّ تلك الأوراق وتستمر، ولو على هيئة جماد أو رطوبة، أو كمادّة بناء لأوراق السنة التالية، أو كطعام لشجرة ثانية؛ وأنا لا أعرف بأيّ شكل أصبحت الآن أوراق العام الفائت وما قبلها، لا أعرف لأنّني مجرد إنسان، ولكنني متأكد أنها موجودة لأنّ انقطاع الوجود مستحيل من الناحية المنطقية. وهذا يعني بأنّ النسيان مستحيل. إنّ التذكر هو الخاصّية الأساسية للوجود. نحن لم نسيطرعلى ذاتنا، أو بالأحرى لسنا في مواجهة مع ذواتنا، ولذا نحن لا نعرف ذواتنا ولا نستعمل قدراتنا بشكل حقيقي، حتى ليبدو لنا كيف ننسى، ونعتقد كيف أننا نسينا ما هو معروض على سطح وعينا. وفي الحقيقة فإننا لا نعرف فقط بأننا لا نتذكر؛ لأننا لا نعرف كيف نتمعن بشكل مضاعف في وعينا. إن يدَك تتذكر كلّ الأيدي التي صافحتَها، وكلّ المقاعد التي لمستَها، وكلّ الأوراق التي لامستها اليد أثناء الكتابة، إنها تتذكر كلّ ذلك، ولكنّك لستَ مؤهّلًا لتُصغي إلى يدك، ولستَ في وضع تتعلم فيه وتفهم ما تتحدث به إليك. لا نسيان، ولا زوال، فالموت هو مجرد تغيير في الهوية أو طريقة وجودها. وإذا لم يكن الأمر كذلك، أي إذا كان من الممكن نسيان شيء حصل وتمّ التعرف عليه، وإذا كان من الممكن بالفعل زوال ما كان موجوداً، إذا كان ذلك ممكنًا من الناحية المنطقية، فعندئذ يصبح العدم ممكنًا، ويكون العدم ممكن الوجود، لأنّ العدم غير موجود ولا يمكن أن يُوجَد.

- أتعتقد أنّه موجود؟

صرختُ مُهدِّدًا ديرفو الذي كان ساذجًا بشكل مطلق في كلّ ما تحدث به. ثمّ سألته بنبرة التهديد نفسها، إذا ما كان مستعدًا لأن يتحقق من هؤلاء الأيديولوجيين وهؤلاء المُنظِّرين الافتراضيين، الذين هم مجرد فوضويين في حقيقتهم، وهل يعرف ماذا يعني هذا إذا كان مستعدًا لفهم ذلك بالفعل؟

أدخلت نفسي بذلك الصراخ، أو بالأحرى بذلك السؤال في مصيبة جدية، لأنّني لم أكن أعرف حرفيًّا شيئًا عن الوجود الافتراضي ومُنظِّريه كما كنت قد تحدثت بإصرار. وتوجَّب عليّ، أو، ببساطة، كنت مُجبَرًا على أن أواصل الحديث، وأن يكون ذلك بالصوت المتوعِّد الشجاري نفسه، لأنّه كان عليّ أن أتحرر من الخوف وعدم الاحتمال، وكلّ تلك الشرور التي انتابتني من الداخل في تلك اللحظة بصورة تلقائية. ولذلك، ففي مثال الكمبيوتر الذي لا أعرف عنه شيئًا أيضًا، حاولت أن أوضح ماذا يمكن للفناء أن يكون، أي الذهاب إلى العدم الذي يعني مغادرة الوجود. وتصوُّر، كيف تكون الحال لو أنّ أمرًا ممّا هو موجود حقيقة وليس افتراضيًّا، يتلاشى ببساطة بالطريقة التي تتلاشى فيها الأشياء غير المطبوعة وغير المُخزَّنَة في ذاكرة الكمبيوتر. صرخت مهتاجًا وخائفًا (خائفًا بالفعل، وطوال الوقت كان الأمر يتعلق بخوفي). لقد شاهدته على الشاشة، وبدا كلّ شيء كأنه موجود، كأنّه في الواقع بحجم كتاب في

خزانتك، أو بحجم كمبيوتر على طاولة، ثمّ.. لا شيء. لا وجود له ببساطة، دون آثار ودون هوية ثانية، بلا ذاكرة وبلا بقايا. تصور كم سيكون الأمر مرعبًا عندما يمكن للأشياء أن تختفي، وهي التي حظيت بوجود واقعي وليس افتراضيًّا!!

سيكون ذلك مرعبًا، وهذا سيعني أنّه لا شيء ممكن، وهو واقعي بمقدار وجوده وحسب. وهذا سيعني بأنّ الموت هو هكذا، أو سيكون خروجًا تامًّا من الوجود، وهو ما قد يعني أنّ العالم يمكن أن يتلاشى فجأة بالفعل، ذلك أنه من الممكن أنّ الله غير موجود، وهذا... أصابني الصمّم، وبقيت مُصِرًّا على تصور أنّ العالم لا شيء ممكن فيه، ولذا لا يمكن أن يكون له معنى.

بصراحة، أنا خائف من أن تفلت هذه الأفكار من يدي. تنفستُ بصعوبة، وربّما يكون ذلك بسبب الصراخ، وحدقت بديرفو. عندما أكون في وضع لا أخاف فيه من المقارنات المدوّية، كنت سأقول إنّ الصمت تموضعَ بيننا طويلًا وصعبًا مثل جثة!

- لا بدّ أن أغيّر لك هذا النايلون الأسود.

قطع ديرفو حبل الصمت مشيرًا إلى نوافذي التي تمّ استبدال الزجاج فيها بالنايلون الأسود، إذ لم يعد يحتملها. ومن بين أربع دِرَف في النوافذ، كانت اثنتان منها مغطاتين بالنايلون من أكياس النفايات التي لا ينفذ منها الضوء. أمور كثيرة تلوح لعقل المرء في مثل هذه الغرفة الكئيبة.

- هل فكرتَ بسؤالي عن الانمحاء والعدم؟

سألت ببحة صوت متشنجة.

- بسؤالك وسؤالي. أجاب ديرفو. إذا عدت سوف أجلب لك النايلون من مساعدات الأمم المتحدة.

واصل ديرفو الحديث برويّة وتركيز كما هو دأبه دائمًا، جلس هادئًا بثبات كالعادة دون الكثير من الحركات، بلا حراك تمامًا، يغطي يده اليسرى المتكئة على ركبته براحة يده اليمنى. هذا الدوام فيه شيء. أوحى إليّ ديرفو في النبرة التي اعترف فيها بمقدار الجهد الذي يتحمله في هذه اللحظة بوضوح. كم كان هجومي الغاضب غير لائق! وفجأة اجتاحني الخجل لأنني قلت كلامي الفارغ أمام ديرفو وهو غير مذنب وغير مدين لي، شعرتُ بالخجل لأنّني فقدت السيطرة على نفسي تمامًا، وشعرت بالخجل لأنّني عَرَضتُ خوفي أمام الرجل الذي كان عليه أن يتدبر أموره، وله الحقّ أن يقوم بذلك أكثر مني، ولديه من الأسباب أكثر مما لديّ.

حاولت – كما يقال – تصحيح جزء ممّا أفسدتُه:

- أأنت مشغول بهذه الأفكار؟ لا يوجد لديّ ما أقوله، تبدو لي جيدًا بما فيه الكفاية، بكلّ تفاؤل، وللحقّ، بشكل طبيعي كلّ يوم.

أجاب ديرفو متطلعًا إلى ساعته، ومقدِّمًا لي سيجارة دون أي كتابة أو أي إشارات:

- لدينا وقت لجولة أخرى، ولكننا سنتحلى الآن ممّا لدينا.

لا أثر لأفكار سوداء عندما ينظر إليك إنسان، ويستمع لك على هذا النحو، توقفت بإصرار عند جهودي لكي أصلح شيئًا وأن أشجعه:

- أعتقد أنك تبدو كما أنت دائمًا، وتتحدث كما هو دأبك.

أجاب:

- ولكنني لست كما أنا دائمًا. لم أخفْ أبدًا على هذا النحو، ربما لأنّني أخرج لأول مرّة من المدينة. أول مرّة منذ بداية شهر نيسان أخرج إلى العالم، أو بالأحرى إلى الجبال، العالم الحقيقي. وأخشى ذلك بقدر ما أخشى القتال، ولكن بطريقة أخرى. ربما أكون قد اعتدت على دائرتنا النارية، وفيها لا أخاف كثيرًا. ولكنّ العالم الذي يقع خارج هذه الدائرة أخشاه كثيرًا في الواقع...

لوّح بيده وصمت. وران الصمت بيننا للمرة الثانية، ولكنّه لم يكن هذه المرة ثقيلًا وغير مريح، على الأقل بالنسبة لي. الشيء الوحيد هو أنني واصلت الشعور بالخجل. وبعد وقت قصير عرضت بأن نلفّ سيجارة مما لديّ، وكانت تلك المرة الأولى التي ندخن فيها من سجائري اثنتين، ومنه واحدة. عنى لي قبوله الكثير، وكأن ذلك سيقلل من بذاءتي. وعلى كلّ حال، كان ذلك سيعني أنه يتجاوز بذاءتي بقدر ما كنّا نعرفه نحن الاثنين. قبل ذلك لففنا سيجارة من تبغي العطن وأشعلناها. وتحدَّث ديرفو بعد ذلك وقبل مغادرته النهائية عن التبغ دون سبب، ودون رغبة في أن يقول ما يقوله، تحدث ربما لكي يُظهِر أنّ الأمور بيننا على ما يرام.

ومن المحتمل أنه تحدَّث بسبب ذلك بمثل ذلك الهراء، إذ قال إنّ ذلك التبغ كان من الممكن ألّا يكون سيئًا لو أنه جاف بأكثر ممّا هو عليه، ولو أنه لم يكن يفوح برائحة النفتالين (اكتشاف كبير.. عندما لم تكن له تلك الخاصيّة كنت أدخنه بشغف، ولكن ذلك كان قبل ثلاث سنوات). وإلى أن يصبح صالحًا قليلًا بطريقة ما إذا ما وضعته في مكان رطب في التسوية أسفل المنزل (كنت كما لو أنني أنصح شاةً بإرسال حملها المتعوس للتعافي في وكر الذئب).

إيه! متى سيصل إليه امتناني الذي لا أزال حتى في هذه اللحظة أستشعره بسبب ثرثرته تلك.

لاحقًا، بعد شهر ونصف من نهاية عام 1993 جلس ديرفو في بيتي في مكانه المعتاد أمام فرن المطبخ، مباشرة بعد عودته من تريسكافيتسا في يوم من تلك الأيام التي سيثبت لكم فيها أيّ إنسان طبيعي بأنّها مستحيلة، ومن المحتمل أن تثبتوا أنتم أنّها مستحيلة مباشرة بعد كلّ ما عايشتموه، وكما كان الأمرعليه في سراييفو. تلك أيام تمكنت من الجمع بين ارتعاش الكلاب من البرد، والثلج المتساقط، مع أنّ العقلاء من الناس سيثبتون بشكل صحيح أنها أيام سقط فيها الثلج بهدوء وكثافة، وكان أدفأ من المعدل الشتوي. وغضبت على نفسي للتو لأنّني سأثبت في الغد نفس الكلام الفارغ، وكأنني لم أعايش هذه التجربة والعديد من الأيام في هذه الحفرة ذاتها. سأثبت هذا الكلام الفارغ ضد تجربتي الشخصية لأنّ له

وقعًا عقليًّا، ولذا أوضحت لنفسي على الفور كيف سيكون ذلك من قلة الأدب، لأنّني بسبب العقل سأثبت بأنّ الأيام التي كان فيها الثلج دافئًا وكثيفًا يتساقط بشكل أدفأ.. وإذا بـ ديرفو يقرع الباب.

سعدت كثيرًا بقدومه لدرجة أنني عدلت عن المشاجرة التي كانت تبدأ مع أول زيارة له عند عودته من الميدان. وبالطبع فإن كلمة مشاجرة لها معنى خاص تمامًا عندما تستعمل مع ديرفو. لنَقُل إنّه يحدث عندما أعزم على تحويل الحديث إلى معركة، أو عندما نتحدث عن الحرب بشكل عام، وعند إصراري على تحديد الحديث بقدر المستطاع، وعندما يُصِرّ ديرفو في الوقت نفسه على الحديث عن أشياء من الحياة اليومية. ولكن، إذا ما اضطُرّ للحديث عن الحرب، فهو يتحدث بشكل عام بقدر المستطاع. وأنا أُسمِّي ذلك شجارًا لأنّه يشبه الشجار بهذا القدر أو ذاك، عندما يكون الحديث مع ديرفو ممكنًا بشكل عام.

تفهمت الأسباب التي تجعله يتهرب من الحديث عن المعارك التي عاد منها للتو، ولكنني تفهمتُ أيضًا حبّي للاستطلاع، أو - بالأحرى - حاجتي إلى أن أعرف بشكل مُحدَّد ومؤكد وحقيقي عن هذه المعارك لأنها تشغل تفكيري بشكل مباشر؛ ولذلك قلت بأنني أُصِرّ بإلحاح على حرف الحديث نحو هذا الموضوع على الرغم من تهرب ديرفو المصمم. وفي هذه المرة، وبدافع الفرح، لأنّ ديرفو عاد حيًّا وبصحة جيدة،

فتراجعت مُقدَّمًا عن موضوعي وعن إصراري، فالأهم أنّه الآن أمامي حيًّا معافى.

حيّاني ديرفو، وقال:

- إنّ الحرب شيء مقزز، يا بروفيسور. لو لم تكن هذه الحرب لكنتَ تتمشى الآن في الخارج مستغلًّا هذا الوقت القصير عندما يكون الثلج نظيفًا، ولكنتَ استمتعتَ وتأكدتَ بأنّ النهار والعالم رائعان.

وبعد ذلك بوقت قصير تحدثنا عن الثلج وفضيلته في شدّ أواصر العائلة، لأنّنا نحن الاثنين كنّا من بين الناس الذين يحبون الخروج إلى الساحات أثناء تساقط الثلج، إلا أنّه كان يقوم بذلك برفقة أطفاله، أما أنا فكنت أقوم بذلك مع زوجتي. ولكن، طوال حديثنا، افتقد حديثه إلى ذلك التركيز الهَوَسِيّ الذي اعتدته منه، والذي كنت أحسده عليه، افتقد في الحقيقة ذاتَه بأكملها، تعابيرَ وجهه، حركاتِه، تماسكَه الجسدي، كلّ ما يخصُّه افتُقد في لحظة. لم أسأله عن السبب. لا تزال تلازمني السعادة والامتنان اللذان يمكن أن يُعَكِّر صفوَهما أيُّ عدم انسجام يمكن أن يظهر أثناء حديثنا. وخشيت أن يُظهر هو اضطرارًا إذا ما سألت عن أسباب ذهوله. خشيت أن يكون قد فقد في المعارك أحد رفاقه الخُلَّص، فتعيد له أسئلتي عن ذلك آلامه بسبب تلك الخسارة. ساد توتر بيننا أدّى في النهاية إلى وقف حوارنا، ثَمّ، ودون أن أسأله، انبثقت الحكاية عمّا زعزع كيانه وجعله مغايرًا بذلك القدر. يمكنكم أن تصدقوني إذا ما قلت إنني لم

أعرف من حكاياته أيّ شيء ممّا كان يهمني ويمكنني أن أسأله عنه، من مثل: كيف خرجوا بشكل عام من مدينة محاصرة تمامًا؟ وكيف يمكن السير في العالم الواقعي حتى لو كان هذا العالم جبالًا تغطيها الثلوج؟ وما هي حال تجهيز الوحدات العسكرية البوسنيّة خارج سراييفو؟ وإلى أي حدٍّ تستطيع هذه الوحدات أن تتعامل مع المهمة التي تقع على كاهلها؟

بدأت قصة ديرفو من النهاية، من يوم العودة إلى المدينة؛ أي من النفق[4] الواقع تحت أرض المطار الذي افتُتِح قبل عدة أيام ليكون واسطة بين المدينة والعالم، والذي عبَرَه ديرفو هذا الصباح.

جاؤوا إلى مدخل النفق عند مطلع الفجر في ذلك الوقت من النهار عندما بدا الضوء مثل الضباب والضباب مثل الضوء، عندما كانت كلّ الأشياء غير واضحة وكلّ الحدود بين الأشياء غير مستقرة، الحدود بين الواقعي وغير الواقعي، ومن ثَمّ الممكن وغير الممكن، غير موجودة ببساطة.

وحده في مثل ذلك الوقت، ووحدهم الناس الذين كانوا لمدة شهر جياعًا راجفين في معارك في قفار ثلجية، وهم الآن ناعسون وجياع متجمدون ومتعَبون إلى أقصى حدٍ، أقول وحدهم أولئك الناس، وفي ذلك الوقت من النهار، يمكن أن يتحدثوا عن ما شاهدوه عندما وصلوا

(4) النفق المشهور الذي أقيم أثناء حصار سراييفو زمن الحرب التي اندلعت بين عامي 1992 – 1995.

إلى مدخل النفق. لقد شاهدوا سفينة نوح، أو المحطة والمكان الذي ستتجمع فيه مخلوقات هذا العالم لانتظار الحكم المريع. أو أنّهم شاهدوا ستوديو سينمائيًّا تُصوّر فيه نهاية العالم، أو هي النسخة ما بعد الحداثية لنشأة العالم أو ما شابه. على كلّ حال لقد رأوا مشهدًا لم يكن، ولا يمكن أن ينتمي لهذا العالم.

كان مئات، لا بل آلاف من البشر، محشورين، الواحد لصق الآخر، يتقافزون لعلهم يتدفؤون، أو أنهم انكمشوا على أنفسهم كي يحتموا من الصقيع، أو ليتحملوه وحدهم، متدثرين بكلّ ما وقعت عليه أيديهم، وبأحسن قطعة ملابس مما حملوه لأهلهم في سراييفو، ناعسين، مرتبكين، حاملين بأيديهم كلّ ماحصلوا عليه في الخارج، أو واضعيه إلى جوارهم، وها هم يحملونه الآن إلى بيوتهم في سراييفو حتى يعبر الشتاء.

قال ديرفو:

- مئات، بل آلاف من مثل هؤلاء الناس، عندما أتوا انتظروا أن يُفتَح النفق، وأن يجرِّبوا حظّهم، ويصلوا إلى الدور من أجل المرور عبره إلى المدينة.

وكان بينهم رجال جادّون اقتيدوا مرارا إلى حافة اليأس. وها هم يتحلقون من حوله منذ بداية افتتاحه، ويفكرون كيف سيعبرون إلى المدينة، لأنّ بيوتهم وعائلاتهم وكلّ ما هو مهمّ بالنسبة لهم موجود هناك. وكان بينهم مهربون يُدخِلونهم إلى المدينة كي يبيعوهم بعض الكماليات

من مثل الدخان والفواكه بسعر مرتفع. يجد مثل هؤلاء دائمًا، وفي كلّ مكان، مصلحة للمشتري ليحصلوا على النقود. وبينهم أناس طيبون اتجهوا إلى المدينة الواقعة تحت العدوان لكي يخففوا العذاب على الناس لأيام معدودة، وهنالك مغامرون يبحثون عن الإثارة. وبينهم مرضى في النّزع الأخير أُخِذوا نحو سراييفو بهدف أن يعتدى عليهم هناك ويُقتلوا، فيُخرَجوا بهذه الطريقة من هذا العالم ومن العذاب بشكل سريع، ودون أن يُضطروا إلى الانتحار. وتجد من اتجه إلى هناك لكي يُطَمئِن نفسه أنّه، على الرغم من كل شيء، يعيش بشكل جيد.

كلّ هذا، وكلّ ما لم يذكر مما يتخلّق في حديقة الله، اجتمع في مكان صغير حول مدخل النفق الذي يصل سراييفو ببقية العالم. ويمكنك من نظرة واحدة أن تتعرف على هذه النماذج المعبِّرة ممّا يحملونه معهم وما يرتدونه، والطريقة التي ينتظرون بها، والطريقة التي يشعلون بها السجائر سواء لأنفسهم أو لمجاوريهم، ومن كيفية تعاملهم مع بقية الناس، ومن خلال إذا ما كان حولهم أحد من معارفهم، بإشارات لا تكاد تُرى، لكنك يمكن أن تراها وتفهمها لو كنت قد قضيت عشرين عامًا في سلك الشرطة.

ركّز ديرفو اهتمامه لفترة أطول، وربط ذلك بحاله من خلال رؤيته لرجل عجوز يرتدي بذلة مدنية محتشمة بشكل معبّر تحت معطف مفتوح، يحمل ماعزا على كتفيه. أوضح لكلّ من أراد الإصغاء إليه، وكلّ من أراد أن يتصنع بأنّه يصغي إليه، وكلّ من لم يريدوا أن يبيّنوا له بوضوح

أنّهم لا يصغون إليه ولا يريدون سماعه... أوضح لهم أنه لا بدّ أن يذهب. لليوم الخامس على التوالي كان يأتي إلى هنا، وكان من أوائل مَن يأتون في كلّ مرّة وآخر مَن يعودون، كلّ ذلك بأمل أن يأتي دوره في العبور. وكان ذلك بلا طائل؛ لأنّ الشباب والأقوياء والشُّطَّار كانوا يتدافعون وهم يدفعونه إلى الخلف، إلى الحفرة تمامًا كما هو الآن، ويتفاهمون في ما بينهم ولا يأبهون لمن هم على شاكلته. والأمر يتعلق بأنّ عليه في أقرب فرصة أن يكون هو والماعز في سراييفو، وكان قد خرج في ذلك الحين من أجل الماعز، وإذا لم يعد معها في القريب العاجل فلن يُضطَرّ إلى الخروج غدًا ولا يتعين عليه العودة. وسيكون كلّ ذلك العناء والمصاريف والوقت كلامًا فارغًا وبلا طائل.. أيعتقد السادة أنّه من الممكن اليوم ببساطة الحصول على ماعز، وخصوصًا لمن هم في عمره؟ ولن تحتمل الماعز إلى ما بعد غد، يكفيها ما احتملته حتى الآن.

كان ديرفو بالفعل متفاجئًا جدًّا بعمق وقوة ردّ فعله تجاه الرجل المحترم الذي يرتدي بذلة مدنية. حاول بشكل جليّ استثارة الشفقة، فأثار السخرية أو الضحك العادي لأنّه عاش عمره الطويل بكرامة، ولم يكن يعرف ببساطة كيفية استثارة الشفقة. وحده الله يعرف لمن جلب هذه الماعز، ويعرف من أجل مَن يتذلل ولماذا. ما يعرفه ديرفو فقط أنّه يشعر بألم شديد في أحشائه بينما هو يشاهد ذلك ويسمعه. ويشعر بخجل مخيف لأنّه سيكون هو وبقية المقاتلين من أوائل من يعبرون النفق

مخلفين هنا هذا الرجل المُسنّ المحترم، ومعه ماعزه التي لن تحتمل إلى الغد مهما أشاد باحتمالها. لا يمكن ضمّه مع ماعزه وبذلته المدنية تحت المعطف المفتوح مع المقاتلين. ويعرف أنه بسبب هيئته وسنه لن يأتيه الدور اليوم للعبور. ويعرف أنّ الماعز الثمينة ستكون في الغد ميتة. وعندها، كما يقول السيد العجوز، سيكون كلّ شيء كلامًا فارغًا وبلا طائل. كلّ ذلك يعرفه ديرفو، ويخجل مثل كلب أو أكثر، لأنّه يعرف كلّ شيء ويراه، ويرى كيف يجري ذلك أمام ناظريه وهو لا يفعل شيئًا.

عندها وعند مخرج النفق ظهر أولئك الذين يغادرون سراييفو. أوّلهم الجرحى والمرضى الذين لا علاج لهم في مستشفيات سراييفو، ولهم أمل في مكان ما، ومن بعدهم أناس مدنيون مختلفون حصلوا على إذن للعبور لأي سبب، وفي النهاية عدة مجموعات من المدنيين الذين بدا عليهم أنّهم عائلات تغادر المدينة. وكان من بينهم قبل نهاية الطابور امرأة، كانت الخامسة أو السادسة بترتيبها من نهايته، تحمل بيدها مصباح طاولة. كان المصباح صغيرا من ذلك النوع الذي يمكن رؤيته غالبًا في غرف الأطفال، وله واقٍ أخضر، وذلك المصباح وواقيه، الذي أسماه ديرفو لسبب ما أباجور. قامت المرأة المجهولة بعمل طيب ونبيل بالفعل، أي أنّ كلّ مظاهر الخجل والمخاوف والأوجاع التي تجمعت لدى صديقي- الله وحده يعلم منذ متى - تكثفت في غضب وازدراء ربطه ديرفو بحالها. ولسبب كان واضحًا بالنسبة لي، وربما بالنسبة له، بطبيعة الأشياء، ومن

أجل المحافظة على مسافة أساسية بيننا، كان لا بدّ أن يبقى ذلك السبب مخفيًّا. رأى ديرفو في مصباح الطاولة وواقيه الأخضر، وحقيقة أنّ أحدًا ينقله (ينقذه! كما قال)، أقول إنّ ديرفو رأى في ذلك علامة وثيقة على أنّ سراييفو تموت، ولذا ربط بذلك المصباح كلّ الطاقة السلبية التي انبثقت في داخله منذ أن صمّم على الدفاع عن المدينة. لا أعرف، ولا أستطيع أن أتكهن بأي أفكار ربط ديرفو مصباح الطاولة، لا أعرف، ولا يمكنني أن أستشعر أي وظائف رمزية يمكن أن يعنيَها له الواقي الأخضر، ولا سيَّما أنني لا أعرف، ولا يمكنني أن أتكهن بأي معايشة وأي مشاعر يرتبط مصباح له وجود في أعماقه، لكنني أعرف - لأنّني أعرف صديقي - أنّه ازدرى بشدة وبصدق وودّ المرأة التي حملت المصباح ذا الواقي الأخضر عبر النفق، تمامًا بسبب ذلك المصباح ولأنّها كانت تحمله. لايمكنكِ أن تنقلي مصباحا من المدينة إلى مبتغاك، فحّ ديرفو وارتجف حرفيًّا من الغضب الذي حاول السيطرة عليه: اذهبي وحدك إذا لم تعودي تحتملين، لا أحد يرغمك على البقاء، وليس لأحد الحقّ بإبقائك، لكن اتركي المصباح، اتركيه للشيطان.

ليست لدي عواطف أو ذكريات لها علاقة بالمصابيح الكهربائية، ولا أعرف أيّ قيمة رمزية يمكن أن تكون للمصباح في الحياة الإنسانية والاجتماعية، وأعرف أنّ زوجتي لا تحبها لأنّ المصباح بحسب رأيها لا يمكن أن يضيء ولو مكانًا واحدًا بقوة كافية ليصبح مريحًا ومناسبًا،

وأعرف أيضًا بأنه لا يمكن استعمال المصباح بشكل مفيد في مدينة نسيت ما هي الكهرباء. أعرف كلّ ذلك جيدًا، وعلى الرغم من ذلك تفهَّمت غضب وكراهية ديرفو لتلك المرأة المجهولة التي حملت المصباح عبر النفق. لماذا بحق الله! لا أعرف، لكن من الواضح لديّ كم أن ذلك يبدو كلامًا فارغًا، وواضح لديّ كم يسوؤني ذلك ولا أسعد به، ولكنني أعترف بأنني لا أستطيع أن أتصور المرأة المجهولة، ولا يمكنني أن أسامحها لأنّها تترك المدينة دون مصباح. شيء ما ينهض بداخلي حتى اليوم، ويوحي بأنّ المدينة أقلّ جمالًا، وأنّها فقدت الكثير عندما بقيت دون مصباح طاولة صغير مع واقيه الأخضر.

أثناء عبور النفق كان يفكر بطابور المدنيين الذين يمضون معه، مع المؤن، والطعام والملابس الدافئة والأدوية والوقود والمشروبات، وكلّ ما تحتاجه المدينة للعيش، ومع كلّ الكماليات التي عليهم حملها لكي تصبح عليّة المجتمع نخبة، كانت لدى ديرفو للتّوّ في منتصف النفق تقريبًا، وكما قدّر هو، ما يشبه الرؤية، إضاءة ساعدته على فهم وضعنا. يُنقَل من المدينة كلّ ما هو هام، وكلّ ما يخصّ المرء كثيرًا، الحب، الذكريات، والمعاني. ويُنقَل إلى المدينة ما يبقي على قيد الحياة فقط، ويمكن أن يصلح علامةً اجتماعية.

صرخ ديرفو وكأنه في حالة انتشاء:

- وعندما يأتي الحزن هنا يجب على المرء أن ينزل إلى العالم السفلي؛ ولذلك تجد العالم هنا حيث نقيم ليس عالمًا واقعيًّا يا بروفيسور.

ثم صرخ وضرب الأرض بقبضته وكأنه يريد أن يتأكد من وجوده، وأضاف:

- وعندما أقول لك ذلك، فإن سراييفو من خلال نفقها التعس تتعلق بالعالم كما يتعلق الوليد بالحبل السرّي الذي يربطه بأمه.

هذا ما تحدث به لاحقًا عندما هدأ، وتمكن ثانية من أن يتحدث باتزان:

«ولكن كيف هو هذا الوليد؟ وكيف هي تلك السرّة التي يعبر منها المرء من تحت الأرض؟ إننا يا أخي على ظهر سفينة في عرض البحر، ولكننا لا نعوم، ولا يمكننا العوم، لأنّ أحد الحمقى ألقى بمرساة، أو أننا نحن من ألقى بها عمدًا لأحد الأسباب التي أرغمتنا على إلقائها في عرض البحر، ونسينا مع مرور الوقت السبب، أو فقدنا القدرة على رفعها».

أملت بأن تقوده المقارنة بالسفينة إلى أن يتحدث عن الغطس أو – على الأقل بالنسبة لي، إذا ما حاول ديرفو تطوير مقارنته لسراييفو بالسفينة – أن تسنح لي الفرصة بأن أذكر الغطس، وأقوده على هذا النحو إلى الموضوع الذي يمكن أن يحمل له مباشرة قليلًا من السعادة في هذا اليوم النحس. لكن أفكار ديرفو ومشاعره ذهبت باتجاه آخر، هناك حيث لا

مكان للغطس ولا للسعادة. وقبل أن أتمكن من نطق أيّ شيء صاح بأنّ هناك من يُجري التجارب علينا، وهو واثق بالمطلق من ذلك، لقد فهم ذلك عندما كان في مكان ما في منتصف النفق، وعندما انهمر عليه الضوء كشلال ذهبي ووداعة من نوع ما. ووَجدًا لا تمكن مقارنته. وفهم في اللحظة التي ارتقى به الوَجد الجميل وهدهده، بأنّ هناك من يُجري التجارب علينا.

لم يُقَدّر له أن يحدثني عن هذه التجربة وأن يصورها لي، وهي ممّا لا يمكن تصويره، لأنّ هناك الكثير من الأضواء بشكل مرعب، إحدى فيوض الضوء التي لا يمكن تصويرها ولا احتمالها، والأجواء المرعبة للمطر الذهبي.. هذا ممّا يُعاش أو لا يُعاش، هو ممّا لا يمنحك القدرة على تصويره ونقله للآخرين، وحده ذلك الصوت الآتي من كلّ الجهات، يأتي من تلقاء ذاته، الصوت الذي يقول: توالُدي معك يحقّق كلّ شيء: ولكن من الواضح أنّ هناك من يُجري التجارب علينا، يجرب علينا كلّ الحالات، ويراقب في أيّ مرحلة يمكن أن نتعامل مع معطياته هذه. أبرز ديرفو ذلك بعد أن حشد محاولاته لتوضيح أعماق وزخم تجربته تحت الأرضية التي يجب أن تكون استثنائية تمامًا، مخيفة، وجذابة في الوقت نفسه.

وتلتمع لديّ، بسبب تصريحاته، فكرة أنّ هناك من يجري التجارب علينا، صيحات ذلك المقهى النمساوي في فندق أوروبا، ويشعر ظهري

بملامسة جلد القطيفة الحمراء إلى جوار الحائط الواقع على اليسار بين نافذتين، هي نفس القطيفة التي صُنعت منها الستارة نصف الدائرية التي تغطي الباب الذي يعبر الناس منه إلى ذلك المكان.

من عمق أعماق الذاكرة برز وجه النادل أمين الذي كنت أطلب منه إحضار البقلاوة وفطائر التفاح، من أجل أن يوضّح لي بفخر كيف أنّ هذا الفندق المشهور الذي يمكن فيه تناول مختلف أنواع الجاتوهات من أرقى الأنواع، وإذا أراد السيد.. بقلاوة.. هِم! البقلاوة يمكن الحصول عليها في الباشتشارشيا[5] على بعد عشرين خطوة من هنا. ظهر وجه صديقي ألبرت جولدشتاين المغمور بأطنان قطران لا تحصى من التبغ المستهلك، ظهر صوته الذي يمتزج فيه التعب والنرفزة بشكل واضح، وظهرت إلى السطح محاضرته عن الظلال البرونزية التي تتساقط عبرنا بالطريقة نفسها التي كان يسقط فيها المطر ورحمة الله على الناس القدماء.

- للمرة الثانية لدينا بعض الشخصيات البرونزية؟

قال ديرفو:

- لا أعرف أيّ نوع من الشخصيات، لكنّها ضخمة، وهي تجعلنا مؤكدًا أطفالا صغارًا.

(5) باتشارشيا : السوق القديم في سراييفو.

واصطدمت بعدها ثانية برباطة جأش ديرفو وتركيزه الهادىء المعني بالعالم الخارجي بقدر أو بآخر إذا ما هاجمه أحد، أو هاجم عائلته. اصطدمت إذن مع ذلك الخليط المضني من الحسد والغضب والازدراء في داخلي الذي يظهر كلّ مرة عندما يتوجب عليّ قياس قلقي وخوفي مع رباطة جأش ديرفو، اصطدمت بما كنت قد أسميته الجانب المعتم في علاقتي بـ ديرفو. لجمت لساني حتى لا أنطق بشيء يجعلني أخجل وأندم عليه. كان مؤلمًا للغاية ولطيفًا جدًّا.. ألبرت ليس موجودًا، والرغبة الحزينة المتشابكة بالحديث معه، لا حسد ولا خجل، ولا شيء يهدئ الغياب، هنا وجع، وجع لطيف، واقعي ومحدد تمامًا وسط لسان ملجوم، وجع خارق يمكنني أن أجمعه وأركزه تمامًا مثل ديرفو حول أسئلته.

ينبهني ديرفو بعض اللحظات للتفكير بالجانب الحسن من المرض الفيزيائي:

- أخذنا الحديث، لقد نسيت لماذا أتيت...

تمتمت بلسان مؤلم ومتورم بالفعل:

- ربما تكون أتيت لرؤية صديقك لتخبره بأنّك حيّ ومُعافى..

قال ديرفو بشكل غير واضح بقدر ما هو موسع:

- بالطبع هكذا، ولكن بشكل رسمي أيضًا. وفي الواقع للمرة الثانية بشكل رفاقي، ولكن رسمي بالمعنى الرفاقي. أفكر بأن تساعدها

أن تأتي إلينا في مركز الشرطة، وأن تتحدث معها. هذا ما أردت أن أرجوك به. وأنا لا أقتادك، بل تذهب بإرادتك إلى صديقتك

- من تريدني أن أساعد؟ من الذي في مركز الشرطة يمكنه أن يجد لديّ أيّ نفع؟

أجاب ديرفو وهو يهم بالنهوض:

- إنها صديقتك تلك، صديقتك التي اقتدتها الصيف الماضي، وأعتقد أنّ اسمَها سارة.

أوضح باختصار أنّه في الساعة الحادية عشرة من هذا اليوم، أطلت سارة من زاوية شارع ترشتشانسكا وشارع كرانيتشفيتشا، أي على مفترق القناصة سيئ الصيت الذي لا يستطيع الكثير من الناس عبوره، وتمشّت عنده، وكانت تتوقف كلّ لحظة، أو هي باختصار – وحرفيًّا – عرَّضَت نفسها لتكون الهدف. الشرطة الذين حذروه من وضعها قالوا له بأنّ هذا ما يتكرر منذ عدة أيام، ومن المؤكد لعشرات الأيام، ولكنّ القنّاص لا يريد المرأة ببساطة مثل أخريات ممن يعرضن أنفسهن بيأس وبشكل علني. ربما لم يكن ذلك تحدّيًا له. دعوها مرتين وتحدثوا معها، وحذروها بشكل محترم أن لا تقوم بذلك، ولكنّ كلّ ذلك كان بلا طائل تمامًا.

لم يكن ديرفو ليستثار من المَشّاءة العزلاء لو أنه لم يكن يعرف أنها صديقتي؛ وعليه أرسل باثنين لكي يقتادوها. حاول الحديث معها،

وسألها عن أسباب رغبتها في الموت، ولكنّه لم يستطع أن يستدرجها بطيب الحديث، لذا عمد إلى التهديد، فأوضح لها بأنها ستكون سجينة، وسألها عمّن يجب إعلامه عنها. أجابته المرأة:

- لا أحد. لا أحد لي في هذا العالم. لم يعد لي أحد.. لا أحد أنتسب إليه كما آمل.

هكذا ظهرت سارة من خلال صداقتي مع ديرفو رابطة بين رجلين وصداقتين وتجربتين أشكر عليهما قدري. ظهرت، يا لحزني! في وقت متأخر جدًّا، في ذلك اليوم عندما حُكِم علينا أن نبقى دونها.

اللقاء مع سارة

تعرفت إلى سارة في الوقت نفسه تقريبًا الذي تعرفت فيه إلى ديرفو، ربما بعد عشرة أيام، ولنقل نهاية شهر أيلول عام 1992. ويعود الفضل في هذه المعرفة إلى علاقاتي الطيبة مع عدد من القساوسة الكاثوليك، وأحد أقاربي الذي يعمل في كلّية طب الأسنان، وبسبب أوجاع أسنان جاري، البيرة والحرب.

زرتُ في نهاية شهر أيلول أحد أقاربي، وهو بروفيسور معروف في طبّ الأسنان، كي أقوم تحت غطاء اهتمامي به وبعائلته بالاتفاق معه على موعد لمعاينة جاري دامر الذي لم يُفلِح معه أطباء الأسنان العاديون. بعد مغادرتي له بحوالي ساعة التقيت أمام مبنى الكلية بـ دوبرافكو هورفاتين، وهو أستاذ مساعد في تقنيات الأسنان؛ شاب وسيم المظهر، كنت قد تعرفت إليه قبل سنوات عندما عمل لي أستاذه طقم أسنان، وتذكرتُه وسعدت باللقاءات الأخيرة النادرة معه بسبب الصفاء البريء الذي انبثق منه بشكل حرفي. وعلى بعد خطوات قليلة من وجهي، رفع عبوة سعة لترين إلى ارتفاع وجهه، وقدَّمها لي وصرخ بكل قوته: «بيرة!». ثم ضحك ضحكة قصيرة، وقال بطريقة دوبرافكو العادية:

- ماذا يمكنك أن تقول، يا بروفيسور، إذا أخبرتك بأنّ هذه بيرة حقيقية وأصلية تمامًا مثل تلك من أيام ما قبل الحرب.

ذاع في المدينة قبل عدة أيام من لقائي دوبرافكو بأنّ مصنع البيرة في سراييفو بدأ بإنتاج البيرة من تلك التي أكدّ العديد من أصدقائي أنها ليست سيئة. كان على دوبرافكو بالطبع، باعتباره شابًّا يستحق فتوّتَه، أن يتفحص ذلك، وأن يعرف من الذي سيكون من بين الأوائل الذين سيجرّبون بيرة سراييفو المنتجة أثناء الحرب. والآن، وانسجامًا مع فتوته، تأججت رغبته بأن يتحدث لأحدهم عن كلّ ما عرفه عن البيرة، وأن يتحدث عن كيفية الوصول إليها (لأنّه توجب عليه بالطبع أن يحصل على بيرته بطريقة درامية خاصة)، وتعاظمت رغبته بشكل خاصّ للعثور على شخص يحتسي معه هذين اللترين اللذين حصل عليهما، لأنّ المتعة فيهما يمكن أن تكون كاملة فقط إذا ما احتساهما أمام شهود، أو بالأحرى مع الشهود. قبلت برضا أن أكون شاهدًا لـ دوبرافكو ونديم شراب فذهبنا معًا إلى غرفته.

ومهما فكّر أيّ امرئ بهذا يمكنني أن أؤكد لكم أن البيرة كانت جيدة تمامًا. كان دوبرافكو يعرف كلّ شيء بالطبع، كلّ شيء حرفيًّا عن البيرة وإنتاجها، وكلّ ما يمكن معرفته (وهذا ربما يتناسب مع طبيعة هذا المساعد)، وكان يتحدث باستمتاع، وحاولت جهدي أن أبدوَ كأنني أستمع إليه باهتمام. في النهاية إذا استثنينا تنبيه دوبرافكو بصوت عالٍ أحيانًا، وألقينا نظرة على الرفوف الغاصّة بالتراكيب السنيّة المصنوعة من الجبس، والجماجم والأسنان وبقية اللوازم التي تستثير لدى الناس

المحترمين مشاعر الألم والخوف، فإن الأكثر مناسبة تمامًا الصمت والاستماع إلى روايته. وسمعت بعد كلّ ذلك بعض الأشياء وفهمتها وحفظتها، مثل تلك الفرحة غير المنطوقة أنّ معظم مديري مصانع البيرة ينحدرون من مؤسس مجهول الاسم من أيام الأتراك إلى الآن، وأصروا على أن يتمّ الاعتناء والحفاظ على بئرهم الخاصة ونبعها الغزير بالمياه الصافية في حديقة مصنع البيرة؛ وعليه فإن مصنع البيرة على هذا النحو لن يقتصر إنتاجه على البيرة فقط، بل سيوزع المياه على المواطنين.

وإضافة إلى ذلك، سمعت وحفظت أنّه لا يوجد ازدحام كبير على البيرة لأنّ كلّ ما عليك هو إحضار آنية، ومن يحمل قوارير وعبوات فمن الأفضل استعمالها للماء. ثم تذكرت أخيرًا توضيحًا منه بأنّ بيرتنا هذه تحوي كلّ ما يجب أن تحويه البيرة، وأنّه بمقدار ما هي هذه البيرة حقيقية بالفعل بأنه لا ينقصها سوى بعض الأشياء التي لا تُذكَر.

المشكلة الجدية في الحقيقة هي عدم وجود أيّ نوع من الحافظات التي لا يمكن لبيرتنا دونها أن تدوم طويلًا، ولذا لا بدّ من شربها في اليوم نفسه كي لا تتلف. وللحظة، وعند هذا الموضع من شرح دوبرافكو، أردتُ أن أحتج لأنّني لم أرَ سببًا لتكون تلك مشكلة اليوم. وهنا يمكن أن يكون الشيء الوحيد عند الاستعمال أن تثمل بشكل إنساني وقور، وهكذا لن يكون، وليس من الضروري أن يكون هناك مشكلة بأنّ تشرب في اليوم

نفسه كلّ ما حصلت عليه من البيرة. ولكن ثائرتي لم تثر.. لم تطاوعني نفسي في تخريب اتساق العالم في هذا اليوم البديع جدًّا.

كان الوضع هادئًا طوال اليوم، لم يسمع منذ الصباح سوى صوت القليل من القذائف، وتبادل قصير لرصاص البنادق من جهة وادي الرواد، وعليه كان بإمكاننا أن نستمتع طوال اليوم بدفء الصيف والأحاديث الإنسانية، وخيرات أخرى من إقامة الإنسان في هذا العالم. إضافة إلى ذلك، كان بإمكاننا الاستمتاع بأحد الأيام المضيئة التي على الإنسان أن يحياها كي يفهم كيف يمكن أن يرى سراييفو مدينة جميلة، وأن يحبّها أيضًا. مثل هذه الأيام تنبثق بشكل رئيس في خريف مبكر، ولكن من الممكن أن تحلّ في الصيف وفي الربيع، مع أن ذلك من النادر جدًّا. لم أحيَ في أيّ مكان آخر مثل هذا اليوم، وأسأل هل هو ممكن في أيّ مكان آخر بشكل عام؟ أيوجد في الواقع، في مكان آخر، هذه المجموعة من الظروف والهواء الجاف ونسيج التلال هذا، إضافة إلى زاوية ضوء الشمس، وبالتحديد ألوان التربة والنباتات هذه؟ يستحق الأمر أن نحياه لمدة يوم مثل هذا، يستحق الأمر أن تُمضِيَ جزءًا من حياتك في سراييفو.

تبدو المدينة منذ الصباح وكأنها تعوم في الضوء ومعه، وهذا الضوء لا يأتي من الشمس وحدها، أي أنّ قرص الشمس هنا ظاهر في السماء ومرئي بوضوح، ولكن كحِلْية عليها إبراز السماء ذات الزرقة الغامقة بشكل مُعَبِّر، (وهي التي كانت في تلك الأيام أكثر عتمة مما كانت عليه من قبل)،

وليس كمصدر لهذا الضوء التام. الضوء في مثل هذه الأيام يتبدى من كلّ النواحي، ومن مصدر غير مرئي على وديان سراييفو، يتبدى ويغطي سفوح الجبال المحيطة، ويملأ حوض نهر مليا‌تسكا[6] الذي يطفح الزّبد منه من كلّ جانب، وينير كلّ ما هو موجود حتى تفقد المدينة وزنها حرفيًّا، وتنهض من الأرض، وتعوم في الضوء مع وديانها وبناياتها والأشجار النادرة، وبعض ما تبقى من الأبراج. ويصبح الهواء في هذا الضوء كريستاليًّا، ليس نظيفًا وشفافًا فحسب، وإنّما يشبه الكريستال حرفيًّا، أي مع خاصية أنّه لا يُشبع النظر فحسب، وإنّما يصحح الرؤية. إنكم ترون عبر الكريستال أبعد وأفضل كثيرًا ممّا ترون بدونه، مع أنّ الكريستال مليء بالضوء ونقيّ مثل هواء سراييفو في مثل تلك الأيام. أنتم ترون بشكل جيّد وأبعد أنّ الأشكال والألوان هي أشياء بعيدة جدًّا ـ تشعرون بذلك في سرائركم. وكلّ ما هو حولكم، كلّ شيء، يرتدي وضوحًا رائعًا، ذلك الوضوح – كما يمكنني القول – الذي وعد به القديس بافلو في العصر الحديث، إذ إنّه سيأتي بفضل الحقيقة والدين.

لا أتذكّر مَن مِنَ الكتاب الهلينستيين أثبت بأننا نرى الأشياء بفضل إشعاعاتها، كلّ شيء يشع من تلقاء ذاته: الألوان والأشكال، وهو يشع هويته، وتدخل هذه الإشعاعات في العين الناظرة، وتُمكِّنُها من رؤية الأشياء وتعرُّفِها. لم أعد أعرف ما اسم ذلك الحكيم القديم الذي أثبت

(6) مليا‌تسكا: نهر يمر وسط مدينة سراييفو.

ذلك، ولكنني متأكد من أنه كان في وادي سراييفو في مثل هذا اليوم، لأنّه هنا فقط، وفي مثل هذا اليوم فقط، يمكن أن تنشأ مثل هذه النظرية الجميلة والممكنة، أي أنه هنا فقط وفي هذا المكان وحده، عندما يشرق يوم مضيء نادر مثلما هو اليوم، والعالِم يتصرف بالفعل كما يتصور. تلك أيام تبدو فيها الظلال وتتفاعل بشكل استثنائي لأنّ الضوء يأتي من كلّ الجهات، تلك أيام لا يبحث فيها أحد عن ظلال لأنّ لا دفء هناك، والأشياء متسقة بروعة مع ذاتها ومكتفية بذاتها، تلك أيام لا يكون فيها الخفاء ضروريًّا، وهو غير ممكن لأنّ الوضوح الرائع يرتحل من العالم ويستقر في الناس.

جلسنا في يوم من أيام سراييفو المضيئة في غرفة دوبرافكو بين نماذج الأسنان المصنوعة من الجبس، وكان يتحدث وأنا أستمتع. شربنا بتلذذ، وشعرنا كيف أنّ كمية قليلة من البيرة التي شربناها تُحدِث أثرها فينا، نحن من نعاني من سوء التغذية.

نشأت بيننا مودة ندماء معينة، وتوسعت من حولنا، جعلت من شخصين، لا يكاد يعرف كلّ منهما الآخر، صديقين حميمَين. تلك المودة التي يُحِسّ بها الناس غير المخلصين وهم مجردون تمامًا من المودة، عندما يصلون إلى نصف حالة من السُّكر. تلك المودة الدّبقة التي يكون فيها الحبّ والكحول حاضرَين بالتساوي، مودة واقعية ومؤقتة. صوت دوبرافكو العالي الجهوري بشكل ظاهر الذي اعتقدت حتى اليوم بأنه

يدل على هرمون نسائي عالٍ وميول هستيرية، هو لا يزعجني الآن، وإنّما على عكس ذلك يُتمِّم بلطف هذا اليوم المفعم بالضوء والانسجام. ودوبرافكو عمومًا هو أحد الشباب الرائعين، ومِن مَن يمكن للمرء أن يصادقهم. ولو أنّ الأمرعلى غير ذلك لكانت الفروق الهائلة بيننا نحن الاثنين، من فرق السنّ وتجارب الحياة، إلى الفرق في الوضع الاجتماعي وفي الأوضاع الحياتية القائمة، لكان كلّ ذلك يفصل بيننا ويؤطرنا في علاقة محددة متباعدة بشكل جلي. وأقول، لم يكن لكلّ ذلك أن يزول بسرعة أو أن يصهرنا بشكل ظاهر كما يقال. وبدا لي دوبرافكو شابا أصغر منِّي كثيرًا، لكنّه إنسان قريب جدًّا.

سأل دوبرافكو بعد شرح طويل عن يومه هذا، وعن الطريق الاستعراضي الذي قاده إلى لترين من البيرة:

- هل أعجبتك البيرة، أيها البروفيسور؟

أجبت:

- أعتقد أنّ لدينا الحقّ بأن نفتخر بأنّ مدينتنا تصنع مثل هذه البيرة. وأنا شاكر لك بصدق، عزيزي دوبرافكو، لأنّك أرشدتَني إليها.

- بعيدًا عن السخرية، هل هي جيدة بحقّ؟

سعد دوبرافكو بذلك.

- ولكن حسن الطالع أنني التقيت بك للتو. لا أستطيع أن أبيّن لك مدى سعادتي بأنني استطعت أن أتقاسم معك البيرة والسعادة، وهذا بحد ذاته شيء جميل للغاية.

وبعد ذلك أشدنا نحن الاثنين بالمناسبة التي أعدّها لكي نلتقي أمام الكلية تمامًا، اللقاء الذي لو كان يبعد عشرين خطوة لما تسبّب بمثل هذا الحدث، ولذلك سعدنا بأن نتعرف على بعضنا بعضا بشكل أفضل، نحن الاثنين اللذين تجمعنا العاطفة المتبادلة منذ أول مرة التقينا فيها. وبعد ذلك اقترحت أنا أن ننتقل إلى التخاطب بـ «أنت» بدلًا من «أنتم»، وهو ما تقبله دوبرافكو بسعادة وفخر وامتنان. (أعتقد أنّ الاقتباس جيد على الرغم من حالتي في ذلك الوقت). ثم شربنا القليل، أي أنّنا شربنا ذلك القليل الذي تبقّى، وتلاشت البيرة في أفضل اللحظات وأكثرها واقعية، عندما غدونا قريبَين بما فيه الكفاية لكي نعقد صداقتنا، وصاحيَين بما فيه الكفاية لتجنب حماقات حقيقية يمكننا أن نخجل منها لاحقًا، ويمكنها أن تبعث المرارة فينا إذا لم نمكّن صداقتنا من الانعقاد.

قلت بافتخار بعد الجرعة الأخيرة:

- لا.. لا. إنّ البلد الذي تصنع فيه مثل هذه البيرة الجيدة كان وسيبقى مكانًا جيّدًا للحياة.

أجاب دوبرافكو وهو يمسح فمه بظاهر يده:

- أوافق، ولكنني سأغادر هذا المكان قريبًا..

أثنيت على قوله...

- مثل كلّ الناس الأذكياء!

- لكنّ مشكلتي هي مع الأذكياء واللامعين من الناس ممّن لهم أسماء غير ذكية.. أخذ دوبرافكو نفسًا عميقًا وضرب ركبته اليمنى بقبضته بقوة. ومع إرخاء كتفي وفتح ذراعي على وسعهما أضاف:

- أنت على سبيل المثال!

- لا أعتقد بأن الأمر مبهج، ولكن ما كان بودّي القول بأنّ الأمر غبيّ جدًّا.. صرّحت بصوت عالٍ بذلك بعد أن نطقتُ اسمي عدة مرات وبكلّ النبرات وكأنني أشارك دوبرافكو التأكيد على واقع الأمر.

- كيف لا؟ لو أنك سُمِّيتَ ذكيًّا لكنتَ رحلتَ من هنا دون مشاكل!

لوّح دوبرافكو بيده بمرارة.

ومع أنني لم أفهم تمامًا، أطلعني دوبرافكو على كامل الحكاية حول الأسماء وذكائها. قال إنّه قبل عشرة أيام، حصل عبر منظمة «ممرضون بلا حدود» على رسالة مطولة من أستاذه الذي يقيم منذ شهر نيسان في مدينة زغرب عند شقيقه الوجيه والممرض القريب من السلطة في تلك البلاد. وبفضل شقيقه حصل أستاذ دوبرافكو على وظيفة في الكلية في ذلك البلد، وكان من الضروري أن يبدأ محاضراته نهاية شهر أيلول، وهذا يعني أنّ دوبرافكو حصل على فرصة لدراسة الدكتوراه إذا نجح في نقل نفسه ورسالة الدكتوراه من مدينة سراييفو. وقد يكون الأستاذ بفضل أخيه

مفيدًا؛ وعند تصدير هذا المسعى، الذي بدا غير مجد، تلقى الأستاذ رسالة منك (أصبح أستاذك يتحول بشكل متزايد إلى شقيق أخيه). هذا ما لاحظته عند هذه النقطة. وصرخ دوبرافكو ردًّا على ذلك بأنّ أستاذه رجل رائع من كلّ النواحي، وأعاد النظر في الرسالة التي قرأها بالتعاقب ورواها. كان الرجل الوجيه شقيق البروفسور متزوجًا من بوسنية من مدينة سراييفو، ولديها في سراييفو أخت وابن أخ. وكانت زوجة الشقيق تريد إخراج أختها وابنتها من سراييفو بأيّ ثمن، وكان الشقيق صاحب الحظوة مرغمًا، أو رغب بشدة في إرضاء زوجته، إذ كان قادرًا بقوة. وسنحت الفرصة للبروفيسور أن ينقذ مساعده دوبرافكو ويرسله إلى مدينة زغرب. واقترح على شقيقه أن يرتب المذكور دوبرافكو كلّ ما هو ضروري وله علاقة بخروج السيدتين من سراييفو- وهو الحاذق بما فيه الكفاية - وذلك بأن يقوم بكلّ ما هو ضروري بشكل حسن، وهو مستعد أن يأخذ ذلك على عاتقه وأن يجنب السيدة كلّ المخاطر المتعلقة بالتحضير لمثل هذا الخروج. وتتألف كلّ تلك التحضيرات والتنظيم من أن يقوم بزيارة باريتش القاطن في ضاحية سراييفو ستوب، وهو رجل موثوق من قبل السلطات الكرواتية في سراييفو، وأن ينقل إليه سلام شقيقه الوجيه، وطلبه.

وقبل يوم الأمس كان دوبرافكو عند الرجل المذكور الموثوق، نقل له سلام الشقيق الوجيه، وسأله إذا كان من الممكن تلبية طلبه، وهنا يمكن

لدوبرافكو أن يقدم المساعدة. كان باريتش مصدومًا بشكل ظاهر من التحيات القادمة من زغرب.

- كان ذلك رجلًا مراوغًا، يا بروفيسور، بشكل واضح، مراوغًا تمامًا وبالكامل في كلّ نظرة.

كان دوبرافكو يحاول أن يصف لي باريتش، وكنت أنا ربّما لأنّني شربت بمقدارِ ما شرب دوبرافكو متساويًا معه في الثمالة تقريبًا. فهمتُ ما يريد دوبرافكو أن يقوله، حتى إنني رأيت العين السحرية للرجل المراوغ باريتش. كان باريتش إذن مصدومًا من تحيات زغرب وأكّد لدوبرافكو:

- أرى بأنّ الخروج من المدينة غير ضروري، ولن يكون مسموحًا به.. ستكون مشكلة. إذا تخلى أولئك الذين يريدون الخروج مع سياراتهم الجيدة غالية الثمن، إذا تمّ السفر بها يمكن أن تظهر مشاكل ليس بسببكم أنتم، وإنّما بسبب السيارات.

وأوضح باريتش:

- الشيء الوحيد الضروري وهو محتم ولا مفر منه أن يكون هناك شهادة معمودية مُعتمَدة لكلّ واحد من الخارجين، ودون ذلك لا ضرورة للتفكير حتى بالخروج.

حسنًا. يمكن بأيّ طريقة، ربّما، بطلب خاص من باريتش لدى شركائه الخروج دون شهادة معمودية إذا كان لدى كلّ الخارجين أسماء مقبولة لا لبس حولها، ولكن الأفضل بكثير أن يتمّ الخروج بشهادة

معمودية صادرة من أي كنيسة شقيقة. وباريتش مستعد أن يقدم لدى أصدقائه من الجانب الشريك طلبه الخاصّ من أجل الناس الذين يحاول السيد الدكتور من زغرب بذل جهوده لهم، ولكنّه يشك. إنّه ببساطة لا يمكنه تصديق أنّ مثل هؤلاء الناس من الممكن أن يكون لديهم مشكلة مع شهادة المعمودية على ما يبدو.

كيف اعترف دوبرافكو بأنّه قليلًا ما يفهم كلّ الحكاية عن شهادات المعمودية والأسماء التي بينها باريتش اللطيف، محاولًا أن تكون عبرته سياسية – شعبية (على حدّ تعبيره) بأعلى درجة. ليس لدى الجيشين الكرواتي والصِّربي أي أسباب لكي يواصلوا إخفاء تعاونهم منذ أن تمّ الاتفاق حول مفردات ترسيم الحدود؛ ولذلك يتم انتظار لحظة سياسية مناسبة فقط لكي يُعلن التعاون. وقبل تلك اللحظة المناسبة لا بدّ من جعلها غير رسمية وسرّية تمامًا، أو على النحو، الذي لاحت فيه الفرصة لدوبرافكو أن يرى ويعايش.

إن باريتش والسيد رايتش من كيسلياك كانا طوال الوقت في الواقع يتعاونان بشكل جيّد، وبوقع أخوي تام مع الجانب الشريك؛ الجهة الصربية تنقل إلى سراييفو وتنقل منها كلّ ما يخطر ببالهم، يدخلون ويخرجون تبعًا لإرادتهم – إذا كان ما يدخل وما يخرج مقبولًا من الطرفين، وكما يجري دائمًا بين الأصدقاء تمامًا، ففي الأساس الأشياء نفسها يمكن أن تكون مقبولة أوغير مقبولة بالمطلق من الطرفين. أي أنّ

كلّ شيء مقبول لنا ولهم، بالطبع الناس الأنقياء والمطيعون الذين يعرفون أين مكانهم، ولمن ينتمون، على أن يكون أبناء شعبنا وأبناء شعبهم هم المفضّلون، مع أنّ كليهما مقبول من الجانبين. أما مَن هم غير مقبولين بالمطلق منا ومنهم فهم المسلمون واللامنتمون، هم أولئك الذين ليسوا من هنا أو هناك. وعلى أيّ حال، فإنّ جوابنا للجانب الشريك بخصوص أولئك الذين لا يعرفون لمن ينتمون، وأين هو مكانهم، بأنّ شهادة المعمودية شرط لا مفرّ منه للمرور، فإذا كنتَ رجلًا واضحًا لا شكّ في انتمائه، ستحصل على شهادة معمودية من كنيستك بغض النظر عن أنّك كنت مُعمَّدا عندما كان ذلك إلزاميًّا مباشرة بعد الولادة، أو أنك ستتعمد في هذه اللحظة، لنقل مع عذر مُسبِّب للتأخير. وإذا لم يكن بإمكانك، أو كنت لا ترغب في الحصول على شهادة معمودية، فأنت إمّا مسلم أو أنّك ذلك الشخص الغامض وغير المنتمي.

- ولذلك فإن اسمك ليس ذكيًّا. من الواضح لك بأنّه لا يمكن أن يكون ذكيًّا كل ما هو مقبول. وقال لي الرجل مرتين بأنّه ليس كذلك، وأنّه ليس مقبولًا على الإطلاق.

ندم دوبرافكو زاعمًا أنّ ذلك من قبيل المزاح. وبعد ذلك، بعد صمت قصير صرخ:

- ولديه جبن طازج، لو أنّك تعرف أيّ جبن طازج أكلت البارحة عند باريتش؟ أتعرف كم كان سيطيب لنا الآن بعد هذا القدر من البيرة لو حصلنا على القليل من هذا الجبن؟!

عرفت ذلك جيدًا، وكنت سأعرف حتى لو لم يوضح لي دوبرافكو ذلك، لأنّه لمرة أو ثلاث مرات، أعتمت الأمور في عقلي بسبب الهواء الذي تنشقتُه بقدر ما أستطيع، ولن أوقف زفراتي. ولكن ما اخترق عقلي - لحظة ما حلّ فيه من تكدر - المعلومة الأهم في حديث دوبرافكو المسهب، وهي أنّ الناس من ذوي الأسماء المقبولة، وبتوصية من باريتش يمكنهم الخروج من المدينة، ولدى زوجتي اسم مقبول تمامًا. إذا حصلنا لها على توصية من باريتش بوساطة صديقي دوبرافكو، فسنحصل على شهادة معمودية دون مشاكل. لدي أصدقاء مخلصون من بين القساوسة الكاثوليك، ووضعي ليس سيّئًا لدى أولئك الذين ليسوا من أصدقائي.

فرح دوبرافكو لفكرتي والتمعت عيناه بالأمل الجديد. إذا كانوا فعلًا أصدقاء كبار، فسوف يعطونني شهادة معمودية بأحد الأسماء المُفَبرَكة، ويأخذ دوبرافكو على عاتقه إيجاد بقية الوثائق الضرورية للاسم نفسه حتى نتمكن جميعنا من النجاة. سيجد من يستخرِج الوثائق المزيفة ما دام تمكن من إيجاد بيرة ولم يتمكن من إيجاد الخبز في المدينة.

أجبت دوبرافكو على فكرته:

- أنا للأسف لست بيرة! يا صديقي العزيز.

لم أقصد أن أقول إنّ قدري هو قدر البيرة، ولا أقول تحديدًا بأنني جيد مثل ناسنا هؤلاء، ما أقوله فقط هو أنني لستُ بيرة، ولستُ في عمر يجري فيه اختيار الأسماء. لستُ كذلك، فماذا أبغي؟ يا للخسارة! لكنّ الأمرمهم بالنسبة للمرأة، كم سأكون مدينًا له إذا ما ساعدني في إنقاذها بطريقة ما!

- سوف أقدم المساعدة وسننجح بالطبع - يا للغباء - سوف أذهب غدًا إلى باريتش لكي نرتب ذلك.

صاح دوبرافكو باهتياج ثم عاد ليحاول المزاح ربما لكي يخفي اهتياجه:

- إذا عرفتَ أيّ جبن أكلتُ لديه ستكون واثقًا بأنني سأذهب إليه بقدر ما لديّ من أسباب أخرى. وها أنا في هذه اللحظة، ودون أسباب، ذاهب إلى هذا الإنسان العزيز فقط عندما أتذكر ذلك الجبن والبصل. ولكن لا يمكنني تركك بحق الله، إنّ خلاصي الشخصي لن يكون مريحًا إذا عرفتُ بأنني تركتك وحيدًا في كلّ ما يدور.
- لا تهتم، سأكون البيرة، سأنتظرك حتى تعود، وسأسعد لأنّ المرأة التي أحبّ هي في أمان.

هـدّأتُ دوبرافكـو الـذي كـان عنـد حسـن الظـن، وأثـارني برغبتـه في المساعدة. إنّه لشيء عظيم أن تعرف بأنّ هناك في مكان ما مَن يحبك. هذا ما أفكر فيه بجدية تامة. إذا عرفتُ أنّها هنـاك في مكـان آمـن، وأنهـا تحبنـي فسيكون كلّ شيء هنا على ما يرام.

سأل دوبرافكو بعد برهة تفكير:

- وما درجة صداقة هؤلاء الرهبان لك؟ هل هي إلى الدرجة التي يمكن أن يعطونا جميعًا شهادة معمودية؟ إذا لم تكن الأخت التي علينا إخراجها بتلك الأهمية، وليست معمّدة، ولا ابنة أختها، فسيأخذ ذلك كثيرًا من الوقت والجهد لترتيب أمر المعمودية لنا جميعًا.

كنتُ واثقًا تمامًا بأنّ أصدقائي من الرّهبان مستعدون لأن يقدموا لي ما يقدرون عليه، على الأقل. كنت على ثقة بقدر ما كان دوبرافكو واثقًا من استعداد باريتش للمساعدة بشأن إنقاذ زوجتي، ومثل هذه الثقة ليست بالشيء القليل في مثل ذلك الزمن. تملّكنا التفاؤل ورفع همتَنا عاليًا، حتى توقفت أنا عن الزفير، وتوقف دوبرافكوعن الصياح، إلى أن لاحظتُ حينها أنه بدأ بعد النصف الأول من لتر البيرة بالصراخ مثل المجنون، وبرصانة تامة جرّاء الثقة والأمل. وسارعْنا إلى وضع خطة العمل، أو بالأحرى، التعرف على الخطة التي تشكلت من تلقاء نفسها.

وبهذا الاندفاع قررنا الآن، ومن هذه النقطة، أن نذهب معًا إلى الأخت وابنتها اللتين علينا إخراجهما من المدينة. وكنتُ قد وُرِّطتُ في الحكاية بأكملها حتى أصبحت بالفعل جزءًا منها، وعلينا التصرف وفق هذه الحقيقة.

لا يزال الهدوء مخيمًا في الخارج، جيدًا وسلميًّا لدرجة أنّه لا يُسمَع حتى صوت أي كلب في البعيد. كان في وقت متأخر من فترة ما بعد الظهر، من المحتمل أنّه بين الساعة الرابعة والخامسة. وهذا ما لم يكن ممكنًا أن تراه تحت ضوء الشمس، أو لنقل بهذه القوة والنوعية، لأنّ سراييفو ما زالت تغتسل بضوء منتظم مبارك أبحر اليوم في حوالي الواحدة عندما دخلنا أنا ودوبرافكو إلى غرفته، أو في الصباح حوالي العاشرة عندما خرجت أنا من البيت، وسوف يبحر وقتًا أطول حتى يتعمّق في المساء. ومع طراوة ما بعد الظهر واستطالة الظلال دون زخم، يمكن فقط أن يُعرَف بأنّ النهار قد انقشع، وسيكون بعد لحظة قد انتهى تماما.

ومع أنّ الوضع كان هادئًا تمامًا، لم نذهب في منحدر شارع الملك توميسلاف، أو أننا لم نسلك هذا الطريق الطبيعي والأكثر قِصرًا، لأنّه في الحقيقة كان هادئًا على هذا النحو طوال النهار (لاحظت منذ زمن بعيد أنّ حالة الضيق من الشوارع العريضة والمفتوحة تزداد أيام الهدوء حتى لدى الناس الآخرين).

سرنا بسرعة كافية في شبكة شوارع ضيقة من تلك التي كان معظم بناة سراييفو وكلّ السلطات مولعين بها. هناك حيث تجب السرعة، بسبب طبيعة المكان، وحيث توجد الأرض المستوية في المحلات المقامة على سفح الجبل، لا تجب السرعة. وكانت المحلات القائمة على رأس الجبل في أنحاء المدينة شرقية الطراز، أما التي في الوسط فكانت أوروبية، والاشتراكية كانت حرفيًّا في كلّ مكان. هناك شبكة مكتظة من الشوارع تربط هذه المحلات في ما بينها، ويمكن قبل كلّ شيء التعرف جيدًا على هذه الشوارع من قبل قاطني هذه المحلات فقط، ولهذا السبب ربما كان أهل سراييفو متعلقين بمحلاتهم.

وبفضل معرفة دوبرافكو لهذا الجزء من المدينة انحدرنا نحو الحديقة، وكان من الأفضل هنا الركض لتجنب القناصة (أنا إنسان مضحك، في ذلك الوقت، ربّما ولأنّ اليوم بطوله كان هادئًا بشكل واضح، كان وقع الركض أمام أشخاص مجهولين ثقيلًا، وبدا لي غير لائق، ولا يجدر بشخص جدي. وعندما اشتدّ إطلاق الرصاص بما فيه الكفاية شعرت بأن ركضي هو شيء طبيعي تمامًا مهما كان هناك من شهود عليه). ثم سرنا نحو شينوين لكي نصل إلى شارع المدافعين عن سراييفو، وهكذا نتجنب الزحام الذي يسود دائمًا في شارع تيتو، وخصوصًا أيام الهدوء عندما يخرج الجميع لقضاء حاجاتهم. وصلنا دون مشاكل إلى شارع المدافعين عن المدينة، ولكننا حينها وفي ذلك الشارع،

على مبعدة مئات الأمتار من محل لبيع الأثاث قرب المسرح الوطني، كان علينا التوقف وانتظار مرور قافلة سيارات مصفحة جرارة تابعة للقوات الدولية. صادفنا قرب المتجر حيث وقفنا امرأتين أنيقتين، أم وابنة كما يبدو من مظهرهما وارتباطهما معًا.

سألت الصغيرة بقلق، وهي مَن قدّرتُ أنها الابنة:

- من أين هذا كلّه؟ ربما عاد ميتران ثانية!

- لا ليس كذلك عزيزتي.. ربما لن ينسانا الله الرحيم تمامًا.

هدّأت العجوز روعَها وأسكتتها بحركة من يدها.

كيف بدا الأمر؟ هناك قافلة سيارات مصفحة وبلا نهاية بالفعل، بينما أغذّ الخطا لأنّني أردت أن أستغل التفاؤل والعجلة اللذين نهضا في داخلي، اتجهت إلى شارع المدافعين عن المدينة صوب باشتشارتشيا بقصد أن أعبر من خلال الجسر الخشبي[7] إلى تلك الجهة لكي نصل بعد عشرين خطوة إلى البرج المسمى «النجمة»، حيث تسكن السيدة التي أردنا زيارتها. وتذكرت وأنا أعبر أنّ هذه الطريق أكثر أمانًا، لأنّ الجسر الخشبي، على الرغم من ذلك، أقلّ عرضة للقصف من جسر جوبانيا. وهذا ما قلته لـ دوبرافكو مدَّعيًا بأنني، لهذا السبب وعلى أساس تفكير جدّي، اتجهت للسير في هذه الطريق. وعلى بعد مئتي متر كان

(7) الجسر الخشبي هو أحد الجسور الكثيرة المقامة على نهر مليناتسكا والتي سيرد ذكر أسماء بعضها في ثنايا النص.

بإمكاننا عبور الشارع، وبعدها عبر المدخل الأخير لـ بروبورود، وعبر حديقة البناية المجاورة نكون محميين تمامًا لنصل إلى الجسر الخشبي، حيث كان ينبغي أن نركض ثانية مع عدد قليل من المارّة هذه المرة.

كانت السيدة الممرضة، أو بالأحرى سيرافينا بلال، تقيم في الطابق السابع لناطحة السّحاب المسمّاة بالنجمة التي كانت تحمل على قمتها كتابة معدنية. بعد الركض غير اللائق والمُجهِد جدًّا في الحديقة، لأنّه أطول عبر الجسر الخشبي، كان من المُجهد الوصول إلى الطابق السابع. طرقنا بابها وقد صعدت أرواحنا إلى أنوفنا.

فُتِح الباب على الفور وكأنّه قد أُعلن عنّا في تلك الساعة، أو كأنه قد وُضِع لنا كمين عند الباب. أثناء ذلك فُتِح الباب على مصراعيه، أو هو أُشرِع حرفيًّا لنكتشف امرأة متوسطة الطول، في حوالي الستين من عمرها، بشعر قصير جاف وأصفر مثل سنابل القمح الناضجة، مرتدية بدلة رياضة ملتصقة بجسدها، ووجه عريض بهيّ الطلعة.

«تفضلوا»، سألت المرأة بصوت طلِيّ كما يليق بإمرأة شابة بشكل ظاهر. لم يفاجئني صوتُها بأيّ شكل بقدر سعادتي بهذا الصوت. مهما بدا ذلك من الحماقة، أسعدتنا هذه المرأة المتألقة نحن المجهولين بالنسبة لها، أسعدتنا فعلًا من دون شك.

«سيدة سيرافينا بلال، نحن نحتاجك»، أوضح دوبرافكو محاولًا أن يبدو طبيعيًا بقدر ما مكنّه لهاثه من ذلك، دون سبب في النهاية، لأنّ المضيفة لم تكن خائفة، وإنّما - يمكن القول - احتفت بنا نحن الاثنين.

«سارة.. نعم، أنا سارة، ادخلوا، تفضلوا». ابتسمت المضيفة ثانيةً، وأكدت بإشارة من يدها دعوتها للدخول.

إذا لم يبدُ ذلك غموضًا أو تحليلًا لاحقًا لكلّ ما له علاقة بسارة، والخشية من كلّ ما يخصّها، والحبّ نحوها الذي ظهر لديّ لاحقًا ولا يزال ينمو، عندما أقول إنني لم أكن لأخشى ذلك، فإنني سأقول إنني لم أدخل في حياتي قط مثل هذا الباب المشرع تمامًا أمامي على هذا النحو. كان الأمر كذلك بالفعل، وهكذا شعرت بالفعل إلى أن لاحظتُ عندها بأنني لم أشعر طوال حياتي بمثل هذا الترحيب في أيّ مكان من العالم في شقة سارة الصغيرة في الطابق السابع من ناطحة السحاب (النجمة). أجلستنا في المطبخ على الأريكة التي تُذَكِّر دون شكّ بالمقعد البوسني التقليدي، أي على المقعد المُنَجَّد المصنوع على هيئة حرف U حول ثلاث جهات من الطاولة على يسار الباب. وتمددت على مقعد مشابه عليه سجادة، فوقها «كروشيه» من الصوف بدلا من المفروشات الجلدية، يشبه المطبخ الذي عشت فيه، ولذلك ربّما استمتعت جيدًا بجلستنا تلك. وضعَت الكرز الذي بلّلته بقليل من الماء على الطاولة في إناء كريستالي كبير وجميل. عندما رأيت الكرز استدرت ناحية دوبرافكو وقلت له إنّ

هذا اليوم هو يوم العجائب، وأوضحت سارة ردًّا على ذلك بأن هذا الكرز من منطقة بستريك، قدّمه لها والدا أحد طلابها. وأحضرت بعد ذلك قبضة من عشب أبيض جاف مُقَطَّع، وهو أيضًا هدية من أناس من بستريك، ويمكن تدخينه بشكل لائق عند جفافه تمامًا، مثل التبغ العادي إذا ما وجدت ورقة رقيقة للَّف. وبعد ذلك راودها القلق كثيرًا لأنّه ليس لديها ما يمكن أن تقدمه لنا من مشروبات لائقة، وحلّت المشكلة بعصر حفنتي كرز خالطة العصير بالماء وقدّمته لنا شرابا، وأشارت بعد ذلك إلى أنّها يمكن أن تحضّر لنا الشاي لدى الجيران الذين يملكون الغاز إذا لم يعجبنا هذا العصير.

وكانت تتحدث طوال الوقت. وتتحرك من دون توقف في المطبخ المضاء، تعمل وتتحدث دون أن تلاحظ، وتقول وتطوي أمام الحضور ستارة من الكلمات التي ليس من الضروري إعلام محدثيها عنها بأيّ أمر، وإنّما لتقول إنّ ربة البيت هنا تشهد على حضورها واهتمامها بالضيوف. وهكذا انتعشت إحدى تجاربي الأقدم والأهم، واحدة من تلك التجارب التي تشكلت حولها كامل كينونتي، ويتجمع حولها، في داخلي، واحد من تلك الأماكن التي تشع منها الثقة والديمومة التي تبقيني منتصبًا عندما يُهدّد العمود الفقري بالتهالك. واحدة من ذكرياتي الأساسية والهامة هي مثل هذا المطبخ الصغير المضيء، ولكن فيه مكان كافٍ للعديد من الناس الذين كانوا يقيمون فيه دائمًا، وأمي التي كانت تتحدث وتتحدث

وتتحدث، وكأنها تعمل كلّ ما هو ضروري، عَرَضًا ودون توقف، ووفقًا لمتطلبات العمل، تُرتِّب ذلك المطبخ، وتملأ الأماكن الفارغة لحظة بصوتها وأخرى بحركتها.

هذه في الحقيقة ليست ذكريات عن حدث محدد، وهي ليست ربّما ذكريات عن مطبخ مُحدَّد ترعرعتُ فيه وتعلمتُ هذا القليل الذي أعرفه، كانت هذه واحدة من تلك الصور الروحية التي أحملها في ذاتي- كما يقال- منذ القدم، مثل شيء عميق لا يمكن إنكاره فيّ مع أنّه أقدم منِّي، ومع أنه قديم بقدر قدم الثقافة التي شكلتني. هنا رأيت هذه الصورة، وكرّرتُ التجربة لمرات متعددة في العديد من المطابخ المضيئة، بفارق واحد هو أنّه بعد انقضاء طفولتي لم تملأ أمي المكان المُحرَّر بصوتها وحركاتها، وإنّما امرأة أخرى. وكررتُ ذلك في العديد من المرات داخل روحي، في كلّ مرة كنتُ فيها وحيدًا وخائفًا، إلى الحدّ الذي يمكنك فيه تكرار الذكريات في مطبخ مضيء تتحرك فيه امرأة طيبة وتتحدث، وأنت لستَ ذاهلًا تمامًا إلى الحدّ الذي تعرف فيه أنّ مثل هذا المطبخ موجود في مكان ما، وأنّ فيه أحد الأمكنة لك، وأنك لستَ وحيدًا تمامًا. وإلى أن يوجد مثل هذا المطبخ فإنّ عالمك يصبح واقعيًّا وطافحًا بالمعنى.

هل كنتُ حينئذ، وأنا في المطبخ المضيء، قد أحببت سارة بعمق وامتنان بهذا القدر لأنّها أعادت لي الثقة والديمومة، في الوقت الذي لم

يكن هناك في العالم أثر للأمان والثبات، وعندما بدا ببساطة أنّه لم يعد لي مكان فيه؟

عرفنا من خلال رواية سارة غير المترابطة أنّها سعدت بنا كما يمكن لأي روح إنساني أن يسعد وهو ينظر إلى باب بيته. قامت فور عودة ابنتها أنطونيا من المدرسة بدفعها إلى الخارج لكي تتنفس هواءً نقيًّا وترى الشمس:

- إنها تخاف قليلًا، إنّه الذعر، إنّ خوفها إثمٌ إلهي، وهي لا تجرؤ أن تدخل الشقة منذ أن بدأ هذا الوضع. طوال الوقت، ليلًا ونهارًا، تجلس في درج التسوية وترتجف، وها هي تشحب من دون ضوء وهواء، سمكة بشرية، ولذلك أرغمتها الآن على الخروج إلى الشمس، ما دامت الأمور هادئة على هذا النحو، كي يعود بعض اللون لوجنتيها، ما أصعب أن يفقد المرء لون وجهه! ما أصعبه على الجميع وخصوصًا الصغارمنهم!

أوضحت سارة بذلك سبب دفعها لابنتها، وحدث أن أصبحت سارة وحيدة في البيت، وكانت لا تطيق الوحدة، فالوحدة بالنسبة لها أسوأ من المرض: في الوحدة ينفتح فيها ما يشبه حفرة تتهاوى فيها قليلًا قليلًا، تتأذى منها وتفقد وعيها، وفي وقت لاحق ضحكت من الوصف الذي قدمته، واعترفت بأنه غبيّ تقريبًا، لكنها تشعر بالوحدة على هذا النحو بالفعل. ولذلك سعدت هكذا بحضورنا نحن الاثنين، وهكذا هي تفرح

بكلّ روح إنساني ما عدا الأعداء، وكلّ واحد يظهر بصفته منقذًا من الوحدة.

لكنّ المدرسة هي المنقذ الرئيس والأفضل من الوحدة، وبفضل المدرسة فإنّها نادرا ما تكون وحيدة، لدرجة يمكنها فيها أن تسمّيَ حياتها بالجميلة حتى الآن في زمن الحرب. إنّها تذهب كلّ يوم إلى المدرسة بما في ذلك يوم الأحد. ومع أنّه لا يكون هناك تلاميذ فعلًا؛ فالشهر شهر تموز، فترة العطلة الصيفية، ولن يكونوا هناك حتى لو لم تكن حرب، ولكنّ الأمر سيّان عندها، فهي تذهب لترى مجرى الأمور، وتلتقي هناك مع أولياء أمور تلاميذها، وتستودعهم بعض الأشياء من اللوازم. أكملت سارة قبل عامين شروط التقاعد، لكنّهم رجوها في المدرسة أن تستمر في العمل، وهو ما كانت تنتظره، بالطبع. لا يوجد أساتذة رياضيات وفيزياء بما فيه الكفاية، إذ يصعب العثور عليهم حتى في مدارس النخبة، فكيف لمدرستها أن تجد بديلًا لسارة، وهي مدرسة فقيرة في حيّ فقير، لا يخرج الناس فيه برضاهم حتى في مشوار. وهكذا بقيت تعمل بعد المدة القانونية للتقاعد، وهي الآن في زمن الحرب قد أصبحت بمثابة مديرة أو ما شابه، لأنّ قلة منهم وحدهم من الهيئة التدريسية مَن يأتي إلى المدرسة. أي أنّه زمن حرب، وعطلة صيفية ولا تدريس، ولا سبب لكي يحضر جميع الأساتذة، ولكن لا بدّ لأحد أن يأتي – على الرغم من ذلك – كلّ يوم، وأن يتفقد ممتلكات المدرسة، ويحاول أن يحافظ عليها قدر المستطاع.

وبالنسبة لها فالأجمل والأبسط هو المجيء إلى المدرسة كلّ يوم لأنّها تسكن قريبًا جدًّا. إنّها المدرسة الابتدائية (إليا قربتش) في منطقة بستريك، وشاءت الظروف عند بداية الحرب أن تكون بمثابة المديرة.

إنّها تذهب كلّ يوم إلى مدرستها على الأقل لساعات، وتلتقي هناك بأولياء أمور التلاميذ، على الأقلّ من يقطنون مباشرة قرب المدرسة، فيتحدثون لبعض الوقت ويتشاورون، ويتداولون فيما بينهم وبما لديهم، وبما يمكن تبادله، ويقومون بأشياء للمحافظة على المدرسة بشكل مناسب. وهكذا لا يكون الإنسان وحيدًا وغير ضروري.

- ولذلك أنا بهذا اللباس.. الرثّ قليلًا والمؤقت.

أوضحت سارة وهي تشير إلى بدلة الرياضة البالية. لا وجود للماء، لا يمكن الاغتسال، لا كهرباء، ولا يمكن استعمال المكواة لما هو ضروري، وفي العمل وتحديدًا في المدرسة لا بدّ من الذهاب بحشمة وارتداء ملابس لائقة. ولذلك أرتدي في البيت بدلة رياضة لـ أنطونيا بديلًا عن ملابسي.

عندما انتهت من وضع كلّ ما يمكن أن يُقدّم للضيوف، استقرت سيرافينا على الكرسي خلف الطاولة مقابلنا، صمتت وتطلعت إلى مكان ما بين دوبرافكو ورأسي. فهم دوبرافكو ذلك على أنّه دعوة لكي يوضح سبب قدومه، فسعل وبدأ بالكلام بأننا نحمل تحيات من الشقيقة أنجلينا

وزوجها الذي يحبها، وأنهما مهتمان كثيرًا بإنقاذها ومستعدان لبذل أيّ جهد ممكن لذلك.

تدخلت سارة:

- كيف حالهما؟

أجاب دوبرافكو دون أن يخفي انشغاله بقلق سارة:

- أحسب أنهما بحالة جيدة، هذا على الأقل ما يمكنني أن أؤكّده من خلال الرسالة التي تسلمتُها...

سألت سارة:

- أنت لم ترَهما؟

- أنا لا أعرفهما. أوضح دوبرافكو وقد ازداد قلقًا، أنا أعرفهما فقط من خلال الرسالة التي تسلمتُها من وقت قريب.

ابتسمت سارة بانزعاج..

- هنا كنتم في حالة خُسْران كما يبدو، أنجلينا امرأة فائقة الجمال، وبقدر ما بدا لي ذلك غير محتمل عندما تراني بهذه الهيئة.

حاول دوبرافكو الإمساك بالجوهر ليأتي إلى أسباب زيارتنا:

- في تلك الرسالة التي تسلمتُها من أستاذي، جرى الحديث عن شقيقتك وزوجها أيضًا، وعن قلقهما عليكم ورغبتهم في إخراجكم من هنا بأيّ طريقة..

- هذا ما جرت عادتها عليه لإنقاذي.. ابتسمت سارة للمرة الثانية وأوضحت:
- أنجلينا كانت قد أنقذتني في إحدى المرات، كنّا على هذا المستوى من العلاقة. حدث ذلك عندما كنتُ أنا في الصف الثاني، وأنجلينا في الصف السادس...

أخذت سارة الكلام دون أن يطلب ذلك منها أحد، ودائمًا بتلك العصبية التي ظهرت منذ أن ذكر دوبرافكو شقيقتها من زغرب، وأصرّت هنا، دون أن تخفي ذلك بالفعل، بأنها تريد أن تقطع، أو على الأقل أن تؤجل، الحديث عن السبب الحقيقي لزيارتنا، وهو ما تخشاه كما يبدو. كان ذلك إذن قد حدث عام 1938. كانوا حينها يقيمون في أحد شوارع زغرب في إحدى تلك البنايات النمساوية تحت جسر فربانيا الذي من المحتمل أن يكون الآن في الخطوط الأمامية، وكانتا تذهبان إلى مدرسة على الطرف الثاني من النهر، وهي في الحقيقة مدرسة حديثة الافتتاح قرب بناية مارين دفور وكنيسة القديس يوسف. كانت توجد، في تلك الفترة، حديقة بريّة مُهمَلة خلف المتحف الوطني، مثلما هو المتحف نفسه، وأصبحت بريّة، حتى إنّ الكبار كانوا لا يتخطونها أو يتوغلون فيها إلّا إذا كان لذلك ضرورة فقط. وكانت سارة على الرغم من ذلك تذهب إلى هناك بعد الدراسة، تتجول في الطرقات المُعشَوشِبة التي كان من الصعب تعرّفها، تتطلع إلى الأشجار والعشب الذي لم يَعُد له مثيل في أيّ مكان،

تتسلل بين الشجيرات، وتتوقف متخفية وهي تكتشف قبل ذلك الإثارة التي لا تضاهى، والتي يحملها الخفاء والتلاشي فيه. تتسكع في الحديقة البرية خلف بناية المتحف الجميلة، وتبدو غير مرئية ومتلاشية في العشب الكثيف أو بين شجيرات غير ظاهرة، تتخفى وتكتم أنفاسها وتتنصّت، إلى أن ترى في وقت متأخر من فترة بعد الظهر مجموعات أكبر من الأطفال وهم يأتون من ناحية المدرسة. وتعرف حينها أنّ الدراسة في المدرسة قد انتهت بالتأكيد، وحان موعد مجيء أختها الكبرى، فيكون الوقت قد حان لكي تمضي إلى البيت.

وكانت أختها الكبرى أنجلينا قد حذرتها عدة مرات بأنّه ليس من الضروري أن تذهب إلى الحديقة البرية وتتسكع هناك، ففي ذلك الدّغل توجد أشياء مخيفة، وربما هناك الأفاعي. والأطفال الذين في سنها يخافون الذهاب إلى هناك فكيف بالفتيات؟! حتى إنّ الكبار يحاذرون دخول الحديقة، والله وحده يعلم ما فيها. أثناء الحديث مع سارة لاحظَت أنها تذهب إلى الحديقة، وتتسكع لساعات في ذلك الحرش. عندها أحبت سارة أختها كثيرًا، وأُعجِبت بذكائها، ولكنّها لم تسمع كلمتها فيما يتعلق بالحديقة، وهي لا تعرف حتى يومنا هذا لماذا فعلت ذلك، كما أنّها لم تكن تعرف قطّ لماذا تذهب إلى الحديقة البرية، أو أنّها عرفت واحتارت لماذا تُصِرّ على الذهاب إلى تلك الحديقة المخيفة بالنسبة لها؟ ولكنها لم تستطع أن تبوح بذلك لأحد لأنّ في كلّ ذلك قليلًا من الحماقة. وفي الواقع

هي تعتقد الآن أنّها حماقة، هي الآن لا تعرف لماذا كانت تذهب، ولا تعي شيئًا من كلّ الحكاية؛ وإضافة إلى ذلك، تتذكر جيّدًا أنّها كانت تذهب عندما كان نداء داخلي يدعوها إلى ذلك. نعم كان هناك نداء من الحديقة البرية، من قبل أحدهم، أو من قبل شيء غير مرئي ومخفي بين الشجيرات عميقًا عميقًا مثلها، يدعوها بصوت كانت تسمعه في دخيلتها بوضوح، ولم يكن بمقدورها أن تقاومه. ولذلك كانت تذهب خلافًا لرغبة أنجلينا، تذهب كأنّها مرغمة، وتذهب ضدّ رغبتها الشخصية بالتأكيد. كانت تذهب إلى جانب خشيتها التي كانت تشعر بها أمام ذلك المكان، كانت تذهب لأنّه لم يكن بمقدورها أن تقاوم مثل هذا النداء.

كان المكان الأجمل والأكثر إثارة في الحديقة بأكملها هو تلة واحدة فيها مستنقع صغير وزوج من الصخور على سفحها. نمت على قمة التلّة ثلاث زهرات كبيرة من تلك التي لا تعرف اسمها الحقيقي حتّى اليوم (وأقول بصراحة لم أكن لأقبل التعرف عليها، أو إن حاول أحدهم ذكر الاسم الرسمي لهذه الزهور لم أكن لأسمعه لأنّ لديه وحده اسمها الحقيقي)؛ وفي الحقيقة لم تكن تلك زهورا طبيعيَّة، ولكن لم يكن من الممكن تسميتها بالشجيرة لأنّ لا شيء فيها شجري، إنها تنمو إلى علو شجيرة كبيرة، لنقل مثل ليلك صلب أو «زوفا»، ويبدو هكذا تقريبًا في البداية مثل الزوها [8]. ثلاث إلى أربع سيقان بارتفاع أقلّ من الزوها تجعل

(8) الزوها: نوع من أنواع الورود.

منه ما يشبه الشجيرة، وكلّ واحدة منها تحمل في قمتها زهرة بيضاء ضخمة بحجم فطيرة مُعتَبَرة، أو بالأحرى تويج مُؤلَّف من العديد من الورد الأبيض الصغير الملتصق ببعضه البعض. تلك الزهور.. تلك الشجيرات، أو ما هو كائن أسمته سارة موكب العرس، ربما بسبب اللون الأبيض النظيف الجميل لأزهارها الضخمة، بسبب تلك المساحة من اللون الأبيض الذي لا يوجد على أزهار الزوها المتفتحة. شجيرات ثلاث على هذا النحو، الواحدة جانب الأخرى مباشرة، نمت على قمة تلّتِها المحببة، وكانت هي كلّما تضاعفت رغبتها في التلاشي اختبأت أعلاها بين الورد، وأسلمت نفسها للسكينة التامة والرائعة بالفعل. كانت ترتاح هكذا متخفية بين السيقان الخضراء الكثيفة الشاخصة إلى السماء على مدّ النظر، وهنا عند نهاية المنظر كانت ترى الزهور شديدة البياض التي تبدو بالنظر إليها من الأعلى مثل طواقٍ وردية. كانت ترتاح هكذا بقدر ما كانت تشعر بالمتعة أنّها غير مرئية، وكانت تسعد بذلك.

في إحدى المرات نهاية شهر أيار فهمت أنّ هذا موكب عرسها. وهذا ما يوضح لماذا سميت الأزهار بهذا الاسم، وهذا أوضح لها النداءات التي كانت تسمعها في داخلها والتي لم تكن تستطيع مقاومتها، لقد تَوَضَّح لها كلّ ذلك. كان النّهار رائعًا دافئًا ومُشِعًّا، وملَّ العروسان بأناة ربّما من الركوب، وسادت العالم سكينة تامة، وكانت سارة سعيدة وغير مرئية ومرتاحة وسط ذلك كلّه. وغفت ربّما هكذا. قلِقَ والداها قليلًا بسبب

غيابها، واستفسرا من أنجلينا التي قالت في البداية إنها لا تعرف، ثم سيطرت على خوفها وذهبت إلى الحديقة البرية للبحث عنها. ولكنّها لم تتوغل أكثر في الحديقة لأنّ خوفها كان هائلًا، فبكت وهربت عائدة إلى البيت. وأُجبِرت في البيت أن تعترف لوالديها بأنّها كذبت عليهم، وتحدثت عن ذهاب سارة إلى الحديقة. حينها ذهبوا ثلاثتهم، اتجه الوالدان وأنجلينا الباكية ثانيةً إلى حديقة سارة للبحث عنها، وأجهدوا كثيرًا إلى أن عثروا عليها نائمة ومحفوفة بالأزهار من كلّ جانب.

وبسرعة بعد هذه الحادثة، وقبل نهاية السنة الدراسية، رحلوا إلى شارع كولوفيتش إلى الشقة التي عاش فيها والداها حتى وفاتهما. وغيّرت سارة، مع انتقالها إلى الشقة الجديدة، المدرسة والطرقات التي تتنقل فيها. وبهذا التغيير تحرّرت من ذلك النداء الذي يدعوها إلى الحديقة البرية وإلى التلاشي البهيج، وتحرّرت من ضرورة الذهاب إلى هناك، كما تحرّرت من ذكرياتها عن كلّ تلك الحادثة. وبقي من كلّ ذلك حقيقة واحدة بأنّ أنجلينا أنقذت حياتها، أمّا ما تبقى فاستقر في أعماقها، تلك الذكريات التي لم تتحرّر منها على الإطلاق، والتي ها هي الآن حاضرة بهدوء فيها، لو أنها في ذلك الحين احتفلت بالزواج الذي لن ينفصم أبدًا وتحت أيّ ظروف، في الحديقة البرية وبين الشجيرات الخضراء!

لحظ دوبرافكو نظراتي وإيماءاتي عدة مرات أثناء سرد سارة معبِّرًا عن أعلى درجات استثارته. ثم فهمتُ بالإشارة، وعلى هيئة سؤال، ما الذي

علينا عمله، ولكنني لم أستطع المساعدة لأنّني أنا شخصيًّا كنت مستثارًا تمامًا. بدا لي من الواضح بشكل كبير أنّ سارة، ومن خلال ثرثرتها، تريد في الحقيقة أن تصدّنا عن الإفصاح عن سبب مجيئنا، فهمتها حتى تلك اللحظة بقدر معين، ولكن لم يخطر على بال عقلي الصغير أيّ سبب واحد ووحيد لتقوم بمثل هذا العمل. وبعد ثلاث دقائق بدا لي من الواضح أنّ سارة هي من ذلك النوع الشجاع من الناس الذين لا يعرفون الإخفاء، أو من بين تلك الندرة مِمَّن يملكون ما يمكن أن يقدموه ويعطوه بسخاء، يعطون كلّ ما يتصورونه، وأسرارهم الشخصية، ومخاوفهم، ولذلك لا يقدرون على إخفاء أيّ شيء (في أوقات الضيق، وكما هي حالنا، فإنّ أكثرية الناس المحاصَرين مثلَنا يتحدثون عن مثل هؤلاء الناس بقَدَر من السخرية غير المريحة باحتقار تام، فيصفونهم بأنهم أناس من دون أسرار لأنّهم ليسوا في وضع للتعريف بقيمتهم).

وأنا واثق الآن بأنّ أول تقديراتي كانت صحيحة، وأنّ سارة من بين الناس المُقدَّرين الذين لا يعرفون اصطناع الحكمة، وتكون نيتهم أن يكونوا مخادعين، ويلاحظ محدِّثُهم ذلك، كما يقال، قبل صياغة خداعهم هذا. وهكذا لاحظتُ مخادعة سارة، لاحظتها ربما قبل أن يكون واضحًا لها نفسها ماذا تعمل.

ولكنني لم أنجح في أن أتصور لماذا يجري هذا كما فعل العالم. لم يكن، ولا يمكن لهذا أن يكون رغبة في أن تبقينا حتى تعود الابنة وحتى لا

تبقى وحيدة، لم تكن لتصبح بمثل هذه العصبية لو أنّ الأمر على هذا النحو، لم تكن لتقاطع محدثها بهذه الطريقة العصبية والعدوانية تمامًا في منتصف حديثه، ولكن لماذا؟ أي خسارة ستلحق بها إن عرفت ما الذي نريده؟ نحن لا نرغمها على شيء، ولا ندبّر لها شيئًا، أسوأ ما يمكن أن يحدث لها هو أن تسمع منا شيئًا غير مريح!

عندما فهم دوبرافكو ربّما بأنّه من غير الممكن أن ينتظر من طرفي أي مساعدة، وعند سبر غور التكتيك المخادع لـ سارة في الوقت ذاته معي، بدأ يتحدث بصوت مرعد في تلك اللحظة التي أنهت فيها سارة حكايتها عن الزواج. وإزاء العديد من محاولات سارة للتدخل في الكلام، رفع صوته وبدأ بالصراخ تمامًا مُصِرًّا على مواصلة الحديث بسرعة بقدر ما استطاع، إلى أن أفرغ بشكل رئيس كلّ ما في جعبته. وبعد العديد من محاولات سارة لكي تستخدم المخادعة التي جرّبَتها، هدأت وأصغت بتركيز راضية بمصيرها. وعندما أنهى دوبرافكو أشاحت نظرها نحوي، ونظرت إليّ بصمت إلى أن بينتُ بإيماءة بأنني لا أنوي الحديث. ثم حرفت نظرها ونظرت لبعض الوقت إلى الأمام، ثم التفتت إلى دوبرافكو:

- أحتاج الآن أن أجيب بشكل ما؟
- لا يتوجب عليك ذلك بالطبع.

بدأ دوبرافكو الدفاع عن نفسه وهو مستثار، وقال عندما شعر بشكل واضح مثلي بشيء غير لائق إلى حدّ كبير في نبرات صوتها، ولم يرق له ذلك كما هو بالنسبة لي، لأنّه بدا بشكل ظاهر أنّ سارة حظيت بإعجابه:

- لديكم مزيد من الوقت لتفكروا وتختاروا. لا يوجد سبب لكي تتعجلوا أيّ جواب. وعليّ أنا على كلّ حال أن أتحدث عدة مرات حول كلّ شيء مع السيد باريتش.
- ويمكنني أنا ذلك، وعلى الفور.. عرضت سارة ذلك بإصرار.
- يمكنكم أن تفكروا بالفعل، وكلّ هذا على كلّ حال لا يمكن أن يحصل بسرعة.

قال دوبرافكو:

- يمكننا بالطبع أن نُسرِّع بالقدر الذي بمتناولنا إذا كان لديكم أيّ شيء يقتضي السرعة، ولكن على الرغم من ذلك، لا يمكننا أن نؤثر بقدر كبير، ولذلك سيكون الأمر بحدّ ذاته سيّان، لذا لا سبب هناك لأن تجيبوا الآن فورًا.
- لا أذهب أنا إلى أيّ مكان... نطقت بذلك سارة بهدوء وتصميم.. مقاطعة دوبرافكو بغطرسة لم تكن لتُتَوقَّع منها.

صُدِمتُ من قرار سارة الذي كان واضحًا من السؤال: هل عليها أن تجيب دوبرافكو بشيء، أو يكون في صوتها تلك الفظاظة التي تصادّت في نبرة صوتها التي لا ترتبط بسارة حتى اليوم، ذلك الصّدى المعدني التام في

الصوت، الذي لم أكن قبل لحظات قادرًا على نسبته لها. نظرتُ إلى دوبرافكو لوقت قصير، وضحكت من تعابير وجهه وتضخم فكه السفلي الذي بيّن، بأفضل طريقة ممكنة، كلّ أمارات استثارته الخائبة لما جرى لنا هنا، في هذا الوقت القصير الذي أمضيناه عند سارة.

إنّها ممتنّة لنا بعمق على جهودنا. واصلت سارة بعد صمت قصير، من دون ذلك الصرير المعدني في نبرة الصوت. وهي شاكرة لنا وللسيّد المجهول باريتش، وشاكرة جميع من حاولوا بأيّ طريقة من أجلها، أو كانوا جاهزين على الأقلّ لبذل الجهود. إنّها تعرف كيف تُقدّر ذلك، ومن المؤكّد أنّها ستبدي لكلّ واحد منا مقدار شكرها إذا أتيحت لها الفرصة لذلك، على الرغم من أنّها بالطبع تريد ألّا تمنح هذه الفرصة لنا من أجل سعادتنا وخيرنا. أمّا فيما يتعلق بشقيقتها أنجلينا فكان بإمكانها أن تتحدث عن شقيقتها، وعن علاقتهما الأخوية لأيّام، فقد كانت بحقّ شيئًا استثنائيًّا، كانت تروي لأيّام دون توقف، ولم تكن لتروي ذلك الجزء الذي تشعر به، وما هو ضروري، وما يجب أن يقال. إنّها علاقة بلا نهاية وبلا قاع. إنهما تحبّان بعضهما بالفعل، وكانتا على الدوام مُتحابتين، مع أنّ ذلك كان من النادر بين الشقيقات، وبالأخص إذا كانت الحال كما هي بينهما، علاقة كاريكاتورية تمامًا بين شقيقتين لصالح إحداهما. العلاقة بين الشقيقتين كانت لصالح أنجلينا التي كانت جميلة، ذكية، وناجحة، وماهرة، ومحبوبة، وأنيقة. وربّما يمكن بحقّ بسبب ذلك، لنقل بسبب هذا

التفاوت الظاهر بينهما، لم تكن هناك منافسة ولا حتى مقارنة، كان يلاحظ على علاقتهما منذ الصغر وحتى اليوم الحبّ الصادق قبلَ كلّ شيء. منذ القدم حقًّا، وبالأحرى منذ أن وعت سارة على نفسها، وبشكل خاص منذ أن كانت أنجلينا تقيم في زغرب، كانت تحدوها الرغبة في أن تلتقيا وتتحسّسا السعادة عندما تلتقيان للمرة الثانية. لم تكن لتقل إنّه مذّاك، منذ مغادرة أنجلينا إلى زغرب، تَقَوَّى حبّهما، وأصبح صافيًا بشكل أو بآخر، وهدأت علاقتهما ونضجت، ربّما لأنّهما قد نضجتا إنسانيًّا.

هل من الضروري إذن أن يوضح لها كم كانت أنجلينا قلقة بينما شقيقتها في مدينة سراييفو المُعتدى عليها والمُهَدَّمة؟ وهل من الضروري أن يوضح لها أيٌّ كان كم يصعب عليها أن يتواصل قلق شقيقتها هذا بسبب قرارها البقاء هنا؟ كان رائعًا أن يهبّ هذا القَدْر من الناس لإنقاذها، ولكنّ الأجمل والأهم أنّ حبّ أنجلينا توجه لكلّ هؤلاء الناس. إنّ وعيَ هذا وتذكّرَ ذلك الحديث سيجمّلها، وسيجمّلها دائمًا من جديد فيما تبقى لها من أيام. كلّما كان الحب والجمال ضروريًّا لها ستتذكر زيارتنا هذه التي بادرت إليها أنجلينا من زغرب لكي لا تكون شقيقتها الصغرى وحيدة في فترة ما بعد الظهر تلك. وبفضل ذلك النهار سيكون من السهل عليها احتمال ما يمكن التعرّض له في المستقبل، وهي ترجونا عندما نلتقي أنجلينا في زغرب أن نحدثها عن مقدار امتنان سارة. وهنا نهضت

دون إشعار أو أدنى إشارة وقالت إن ذلك يحتاج لمتابعة، مؤذنة بأنّ الزيارة انتهت.

تطلعنا أنا ودوبرافكو باستثارة جرّاء مثل هذا الحديث المكثف، المُحَدَّد، معتدل الشفقة، والمملوء بالاستقامة الموضوعية، والذي يمكن توقعه من أستاذ في علم النفس، وليس من هذه السيدة العزيزة التي فتحت لنا الباب. وتمّ الحديث عن هذه الاستقامة بهدوء وتقتير دون حركات أو توقف، دون تغيير لنبرة الصوت، ومن دون أيّ لمزة حقيقية من الوجه، مثل تقرير عن موضوع لا يهمّك، لا أعرف لمن وجَّهَته ولكنّني أعرف، أعرف بثقة بأنّه لم ينبع تمامًا من قلبها. وهنا حتى الآن لم يُتَح عمل أو معرفة المزيد، لأنّ سارة خطت نحو الباب بتصميم.

كانت العتمة قد حلّت، وصار الوقت قريبًا من التاسعة. ومع أنني كنت أعرف أن زوجتي قد تكون جُنَّت من القلق، إلا أننا لم نذهب بطريق أقصر عبر جسر جوبانيا، وإنّما رجوعًا عبر الجسر الخشبي، وإلى الأسفل إلى شارع المدافعين عن المدينة (مس إربينا)، ومن ثَمّ من خلال الحديقة الصغيرة إلى مركز الرعاية الصحية، وإلى المفترق غير المريح الذي يغذّ فيه الخطى أولئك الذين لا يرغبون في الموت. لماذا ذهبنا من هناك إذا كانت العتمة قد حلّت، والقناصة لا يكادون يعرفون مكاننا؟ وحتى لو لم تكن هناك عتمة، وكانت الرؤية لا تزال ممكنة، لا فروق مهمة في الأمان بين الطريق الملتفة التي سرنا بها وبين تلك الأقصر مرتين، وكان بإمكاننا

أن نسير فيها بشكل طبيعي، كلتاهما معرضتان للخطر بالتساوي. هذا ما خطر ببالي عندما كنا قد عبرنا الجسر الخشبي، وكان الوقت متأخرًا للعودة إلى الشارع الأقصر، لكنني لم أجد حينها سببًا مقنعًا لذلك (وأعتقد الآن أننا ذهبنا عبر الجسر الخشبي لأنّنا كنّا قد مررنا في أحد المرات بهذه الطريق، إذ بدت لنا معروفة وأقل خطورة. وإلى جانب كلّ النواحي الجيدة الأخرى له، فإنّ التكرار ثمين لأنّه يخلق شعورًا بالأمان). وبعد وقت قليل من عبورنا الجسر الخشبي، عاد إلى دوبرافكو صوابه مباشرة وراء الثانوية الأولى، فوقف متسائلًا فاتحا يديه:

- أترى هذا أرجوك؟ كيف أفسر لك ما يحصل معنا، وهل هناك تفسير لهذا بشكل عام؟
- هناك تفسير بالتأكيد، ولكنني لا أعرفه. ولا أعرف إذا كان من الذكاء في هذه اللحظة البحث عن تفسير ما، لا أعرف إذا ما كنّا سنفقد حينها تمامًا القدرة على فهم ما حدث..

تذاكيت بدون ضرورة فعلية، لأقول شيئًا برغبة مجردة لكي أتحدث. لوّح دوبرافكو يده بغضب:

- آخر ما يهمني التوضيح والفهم. ما يهمني ماذا سأفعل أنا. هذه العجوز بالنسبة لي هي الفأر الأبيض - جالب الحظ. إنّها بطاقتي للخروج يا رجل، بهذا القدر تهمني.. بهذا القدر فحسب. إنها شرط

لخروجي، وإذا لم أفكر بشيء آخر سأبقى بدون دكتوراه، محكوم عليّ بأن أواصل شرب البيرة معك حتى نهاية الفترة.

واصلت التذاكي بإصرار:

- يمكنني أن أفهم بأنّها ترفض الخروج.
- إنها امرأة عجوز، والناس الكبار في السّنّ يرتبطون بالمكان والأشياء، ولنظرة محددة من النافذة. مثل الكلاب، وربما أشدّ إذا كان هناك ما هو أشدّ. وعدا ذلك إنّ لها مكانها هنا وكرامتها، ولن تجد هناك لا هذا ولا ذاك، ومن الطبيعي إذن أنها لا ترغب في الذهاب. ولكن لماذا لا تقول ذلك بشكل طبيعي وببساطة، لماذا يكلفها هذا القدر من العذاب والجهد والعصبية وبعض الخوف لكي تقول شيئًا طبيعيًّا كهذا؟ كان يمكنها أن تقول: شكرًا لكم أيها السادة.. إنني مصدومة ولكنني لا أريد. وينتهي كلّ شيء بروية وحسب الأصول. إنها تثرثر بدلًا من ذلك، تروي ذكريات مؤثرة، وتلقي محاضرة في النهاية، وتريد من هذه المحاضرة أن ترضيَ أحد القضاة الصارمين، قاض غائب ولكنّه معروف لديها جيدًا. ربما تكون في الحقيقة شقيقتها العزيزة أنجلينا التي لا تجري الأمور معها بهذه البساطة كما عرضتها لنا. كثيرا ما أعلنت بأنّ واحدتهما تحبّ الأخرى محبة أزلية رائعة، منذ الأزل وإلى الأبد. لا أعرف، أعتقد بأنّ هذا يمكن أن يكون سببًا لثورة سارة.

وفجأة صرخ: «الرحمة».. ووقف بأيدي مرفوعة للأعلى، وأضاف:

- افهم يا رجل بأنّها لا تهمني إذا ما كانت قد ثارت ضدي، لا يهمني إذا ما كانت تثور من أجلي.. لا يهمني. الشيء الوحيد الذي يهمني، وله علاقة بها، هو أنها لا تريد الخروج، وهي في الحقيقة أحد العناصر لدى باريتش. وتهمني أيضًا لأنّ عليّ أن أتكفل بها لكي يؤمِّن لنا باريتش الخروج.. وإذا لم تخرج!! هذا كلّ ما يهمني.. إنّ باريتش هو قضيتي الوحيدة، وهو كلّ مواضيعي في هذه اللحظة.

الشيء الآخر غير الواضح بأيّ شكل بالنسبة لي.. واصلت حكمتي بصفاء.. هو عدم استعدادها أن تُخرِج ابنتها. يبدو واضحًا تمامًا من الناحية الإنسانية لماذا لا تريد الخروج. ولكن من الناحية الإنسانية، ومن أيّ منظار آخر نُظر في الأمر فإنّ الممكن الوحيد هنا هو أن ترغب وتناضل من أجل أن تخرج ابنتها. لا يوجد مثل هؤلاء الأهل ممّن يمكنهم أن يقدموا كلّ ما لديهم في هذا العالم لكي يُخرِجوا أبناءهم ممّا يجري هنا، ويبدو أنها أمّ جيدة. وعلى الرغم من ذلك، فهي لم تأتِ على ذكر إمكانية أن تذهب الصغيرة معك.. لماذا؟ بقدر ما فهمت هي بشكل عام ليست شابة بهذا القدر، وغير مؤهلة لكي ترعى نفسها، وعدا ذلك سيكون لديها ملاذ لدى أقاربها الحميمين. ما هي حقيقة الأمر هنا؟ ماذا في خلفية عدم

استعداد سارة لأن تُخرِج ابنتها من هنا؟ إنّ مَن سيفسّر لي هذين الأمرين سيجعلني أؤمن بأنه يعرف الروح الإنساني جيدًا.

- انظر! لقد لاحظت ذلك فعلًا، ولكنني نسيته جراء عذاباتي. حسنًا؛ إنّ العجوز الحمقاء لا تريد – أوافقك الرأي – أما أنّها لاتريد إنقاذ الفتاة! فلا أفهم، مع أن الأمر لا يهمني.

وافق دوبرافكو:

- وهناك حقيقة أخرى؛ أنّ صديقك باريتش هو موضوعنا الهام، فالأمر في النهاية يعتمد عليه. أيريد أن تخرج زوجتي؟

قال دوبرافكو ساخرا:

- جيّدٌ أنّك تذكرت، هيا بنا لنرى ماذا وكيف.

اتفقنا أن يقوم في الغد بزيارة باريتش ثانيةً، وأن يحاول أن يعطيَ انطباعًا كيف أنّه قريب جدًّا منه، بعلاقة صداقة حقيقية مع الشقيق الشهير من زغرب، الذي تنقطع أنفاس باريتش كما يبدو عند ذكره. وإذا صدّق باريتش – مُقرِّر المصير فسيكون رفض سارة بالخروج دون عواقب وبلا أهمية، لأنّ حب باريتش بالطبع موجه إلى الأخ الأكبر وله فقط. وأثناء ذلك الوقت سأرى كيف هي الشواهد بالحصول من أصدقائي الرهبان على شهادات المعمودية الضرورية للاثنين اللذين سيخرجان الآن، أي لزوجتي ولـ دوبرافكو. اذكر عند الرهبان الصغيرة أنطونيا وسارة على كلّ

حال، لا يمكن أن يعرف. أشار دوبرافكو إلى ذلك قبل أن نفترق. ذهب مع انحدار شارع تورخانيا، وواصلت أنا الطريق إلى بيتي.

عندما وصلت إلى البيت كانت البوابة قد أُغلقت، ولذلك كان عليّ طوال الفترة أن أقرع الباب لكي يسمعني الحارس المناوب ويفتح لي. لم تبدُ لي تلك الدقائق العشر أمام الباب احتمال أن تكون أبدًا من الدهر لولا أنه لم تُسمَع من ناحية فوغوشتا العديد من الانفجارات التي ستقترب مؤكدًا من مركز المدينة. وبسبب ذلك كان ذلك الوقت أمام الباب أبدًا من الدهر قصير الأمد حقيقيًّا، بدا ثانية في عدد من الليالي التي حُكِم بها عليّ.

حكاية الأبواب

كنتُ أعتقد دائمًا أنّ شخصية أيّ إنسان تتبدى بوضوح تام بالطريقة التي يَفتَح بها الباب، وتحديدًا بالطريقة التي يفتح بها لضيوف طارئين وأشخاص غير معروفين. وقد تعاملتُ في وقت من الأوقات مع فكرة إعداد تصنيف لأنماط بشرية مميّزة من خلال طرق فتح الأبواب، وأن أعزز دقة تصنيفي هذا بأمثلة من الأدب، ولكنني لم أذهب بعيدًا في تحقيق هذه النية، لأنّ أصحاب الأدب قليلًا ما يتزاورون، ولذلك قليلًا جدًّا ما يفتحون الأبواب. والأمر سيّان، وأنا أواصل الاعتقاد بأنّ واحدًا من تصنيفات الشخصية من خلال كيفية فتح الناس للأبواب كانت أفضل من تلك التي تصدع عقلي بدروس علم الاجتماع عن العُصابيين واللامبالين الذين يعانون من العُصابية واللامبالاة ببساطة أو من تلقاء أنفسهم. وإذا لم يكن هناك أيّ سبب آخر، فإنّ تصنيفي هذا سيكون أفضل لأنّ أحد التصنيفات لنماذج مميزة من خلال طريقة فتحهم للأبواب، لا بدّ أن تأخذ في الاعتبار العلاقة التي لا تنفصم بين الشخصية والمصير، وتتجنب بهذا خطأً أساسيًّا للتصنيفات التقليدية التي أعرفها ولا أحبّها. مثل هذا التصنيف سيقدم أكبر مساعدة للتجار المسافرين، والصيارفة، والشرطة، والباعة الجوّالين، والشحّاذين، وجميع الناس الآخرين المُجبرين مهنيًّا وشخصيًّا على قرع أجراس بيوت الناس غير المعروفين. إذا كنتَ قد

اطّلعتَ على كيفية تصرف أيّ نمط شخصي قبل فتح االباب (وأنتَ مطّلع جيدًا بفضل تصنيفاتي هذه)، فأنت تعرف بثقة تامّة من يقف على الطرف الآخر من الباب الذي قرعتَه قبل أن تراه أو تتبادل معه كلمة واحدة، وهذا يمكّنك أن تكوّن الجملة الأولى، الأهم في كلّ شيء، وتكيّفها للنمط الشخصي لذلك الواقف على الجهة الأخرى الذي سيفتح لك الباب. لأنّك كيّفتَ جملتك الأولى معه، ومكّنتَ نفسك بأن تقدمَها جيدًا، وسوّقتَها جيدًا في نظره، وبهذا قطعت منتصف الطريق إلى النجاح. ولذلك كانت تصنيفاتي لا مفرّ منها، وجزءًا من المرشد المهني للوظيفة التي تُمارَس أمام الأبواب الغريبة.

إنّه ينظر، على سبيل المثال، من خلال العين السحرية لبابه. ينظر، وأنت تلاحظ أنّه ينظر، وأنه يتظاهر بأنّه لا وجود لأي شخص. ثم يغلق العين السحرية، ويفكّر، ثم يقرّر أنّه في البيت، ثم يسأل بصوت مُتكدِّر مِنَ الداخل: من أنت؟ وماذا تريد؟ إذا قام بذلك تعرف أنتَ بأنّ هناك امرأة مسنة تعيش وحيدة، وتعرف أنّ الأمور على ما يرام (امرأة مسنة تعيش وحيدة، وتفتح الباب لأشخاص مجهولين، فهذا بالتأكيد ليس بالأمر الحسن، لا لشخصها ولا للحياة التي تحياها). إذا قامت بذلك كلّه، ولم تكن امرأة مُسِنّة، فأنت تعرف أنّ لديك عملًا مع مخلوق بشري يمارس ربّما من وقت لآخر التجارة من أيّ نوع، وأنه سيُدمَّر من هذا العمل. لذلك يمكننا أن نعدّ هؤلاء من الأنماط الشخصية التجارية. إنهم يفكرون

بأنفسهم جيدًا، ويعتقدون أنهم يستحقون أفضل ممّا حصّلوه، يستحقون على الأقل عالمًا صغيرًا أفضل قليلًا مكانًا للإقامة. وبسبب هذا الاعتقاد الذي يتحول مع الوقت إلى ذكريات (إذا لم يكن الترتيب معكوسًا، وإذا لم يكن الاعتقاد متأتيًا بالأحرى من الذكريات، إذا لم يشعروا من قبل بأنهم أفضل من العالم الذي أحرقهم، فوجدوا إثباتات عقلانية لذلك. إنهم يعتقدون أنّهم معرّضون للخطر؛ لأنّ هذا العالم القبيح سيثأر منهم آجلا أم عاجلًا بسبب تفوقهم. لذلك فهم، منذ اللحظة التي دخلوا فيها عصرهم الحياتي الناضج، يستعدون لهذا الثأر النهائي مع العالم، ولذلك كان بإمكانهم منذ فترة شبابهم أن يلاحظوا عدم الثقة والشك لأنّهم ببساطة لا يعرفون أن يتهاونوا، لأنّهم دائمًا ما كانوا يتسلون باستراتيجية الدفاع كما كانوا يقولون. وعليه كانوا يطوّرون دائمًا استراتيجيتهم الدفاعية تلك، وبهذا يستعدون جيدًا لإحراز نقطة أكثر في أيّ وضع حياتي مُتصوَّر. وبسبب نقطتهم الزائدة يخسرون ثأرهم النهائي مع العالم، وبسبب هذه النقطة الزائدة، يتهالكون في الاتجار بالحياة، وبذلك تتهالك أنفسهم.

إذا توقف النظر من العين السحرية، فإنّ الباقي يشبه كثيرًا التصرف الموصوف للنمط التجاري، يبدو لك واضحًا أنّ وراء الباب الذي قرعته هناك من ينتمي الى النمط الرّبوي. وإذا لم يحرك الغطاء عن العين السحرية، إذا لم يسأل أحد من الجانب الآخر للباب شيئا، وبدا أنّ لا أحد داخل البيت، وأنت لا تكاد أذنك تلتقط أصوات كالتي تحدث عندما يقوم

أحدهم بحكّ الحذاء في الأرض بشكل متعمد (ولم يطفىء الضوء في الممرّ حتى لا يردّ) أو يسند يده على الباب... إذا كانت مثل هذه الأصوات تبين أنّ أحدًا هناك خلف الباب، إذا وقفتَ كما قلتَ أمام الباب، وهذا ما يحدث أحيانًا، فاعلم أنّ هناك أحدًا من أولئك الناس، الذين هم وفقًا لدوستويفسكي يقتلون أقاربهم الحميمين بالساطور دون سبب، ونحن في الواقع نتجنبهم بلا طائل. ووفقًا للمظاهر الخارجية فإنّ هذا النمط الرّبوي يبدو قريبًا من نمط التجار، ولكنّه في الجوهر على النقيض تمامًا: الرّبوي حذر ولكنّه غير متشكك. إنّه يحتمي بالمخادعة مع العالم لأنّه غير متأكد، ويخشى كونه صغيرًا وضعيف العود بمواجهة عالم ضخم كهذا، إنّه غير راضٍ عن نفسه، وقلق من جوانب ضعفه إلى الدرجة التي لا يستطيع فيها أن يصل إلى التفكير بأنّه يستحق عالمًا أفضل. إنّه ذبابة وراء باب مغلق تحوم لتعرف من الطارق، لأنّه غير متأكد من أن هناك جوابًا مناسبًا على التحدي الذي يقف له أمام الباب. ولكنّه دائمًا ما يفتح في النهاية، لأنّه ليس شكّاكًا بما فيه الكفاية (أيمكن أن يكون في هذا العالم بشكل عام من هو شكّاك بما فيه الكفاية؟ أخشى أن يكونوا هم أولئك الذين تجنّبوا أن يولدوا). افتح وافهم بأنك قد خُدِعتَ وبشكل مضاعف، فأنت مخدوع، أولًا، لأنّ انتظاره كان أسوأ كثيرًا من انتظارك، وثانيًا، لأنّهم ينتظرون شيئًا ما منك، وعليك أن تعرف أنّه لا وجود

لزيارات، ولا لزوّار، يمكنهم أن يُحضِروا لرجل محترم بعضَ الخير الحقيقي.

المرابون يثيرون اشمئزازي بسبب خوفهم من العالم، ومن كلّ ما فيه، ولكنّهم على الرغم من ذلك أقلّ إثارة للاشمئزاز من كثير من الناس الذين يشبهونني. إنهم نمط من الأشخاص الذين تخلّوا عن كلّ شيء منذ أمد بعيد، ويتصنعون بإصرار أنّهم يبذلون جهدًا في شيء ما. (وينجحون بذلك في أفضل الحالات بخداع أنفسهم، وهم يخفقون في ذلك بالطبع أو يرفضون إدراك ذلك). إنهم ذلك النمط من الأشخاص الذين لا يهاتفهم الناس المحترمون حتى لو فقدوا صوابهم، لأنّ أحدهم يترك جرس الهاتف يرنّ طويلا بلا توقف قبل أن يرفع السماعة، ولا تكاد تسمع منه كلمة هالو. إذا قرعتَ مرّة باب أحد هؤلاء، فعليك أن تتردد عشر مرات بخصوص ما نويته، ولأي سبب قرعته، إذا لم تكن قد نسيت نواياك قبل أن يفتح لك الباب. إنّه لا ينظر من خلال العين السحرية، ولا يتمسمر وراء الباب محاولًا أن لا يُصدر صوتا. إنّه يختفي في مكان ما خلف الباب، ولا يبتكر استراتيجية لكي يختفي عنك؛ لأنّه ببساطة يرجيء، ولأنّه يعتقد... (إلى الجحيم يعتقد، إنه يشعر! إنه يعرف!) أنّها مكسب خالص إذا لم يحصل كلّ ثانية له فيها شيء، وحتى اللقاء معك. إنه بائس، وُلد مع نقص هائل في الطاقة الحيوية، ودون أدنى ثقة بالعالم، ومع مرور الوقت رأى أنّ الأكثر راحة هو الإقامة في العالم، إذا نجحت إعاقتك بأن

تكون مقبولة بشكل واقعي فقط. بهذه النية المخادعة يحاول ترويج الحكمة بأنّ كلّ الأشياء المعروضة لنا في هذا العالم، من الطعام والحركة إلى الحبّ والحلم، خطرة جدًّا علينا لأنّها في نهاية المطاف، أينما توجهت، تقود إلى المرض والموت اللذين تنتهي بهما إقامتنا في هذا العالم. إنه إذن أحد الثرثارين الرماديين المتعبين ممّن لديهم القليل من الرضا من هذه اللقاءات التي نجح في تجنبها وممّا لم يحدث له. وبسبب مثل هذه الأنماط عليك أن تكون مُصِرًّا، وتقرع الجرس على الأقلّ ثلاث مرات، تقرع بكلّ الوسائل إلى أن يفتح الباب. وهذا يتطلب وقتًا، ولكنْ عليك القيام به.

النقيض التام لهذا هو ما يُسَمَّى النمط العدواني الذي يفتح بسرعة غير طبيعية بمجرَّد قرع الجرس، وهو يفتح فجأة بدفعة قصيرة واحدة، ولكن بالقدر الذي يُمَكِّنه من أن يمدّ وجهه فاتحا درفة الباب قليلا، سائلا بجفاف: ماذا تريد؟ ولكن كلّ مرة بشكل حرفي. إذا فتح لك الباب أحد من هذا النوع، فإنك ستتأكد عن طريق الخطأ أنّ الباب مربوط بسلسلة وأنّ تلك الحركة التي تم فيها إيقاف فتح الباب متأتية من أنّ السلسلة مشدودة فجأة للنهاية، عندئذ هزّ الباب وأوقفه. خطأ، ومليون خطأ! ذلك النمط لا يضع سلسلة بشكل عام، إنّه لا يحتمي من العالم، وإنّما على العكس من ذلك فهو يهاجمه. وبالهزة التي أُوقف فيها الباب وفُتح تمامًا على اتساع الرأس، إذ إنه بهزة واحدة انفصل الباب عن مصراعه، وبهزة

واحدة أوقفه عندما فتحه بالمقدار الذي يحتاجه. لقد فعل ذلك بهذا الشكل لأنّه يعمل كلّ شيء هكذا. إنه قصير وفعّال في كلّ شيء. إنّه يهتز تقريبًا لكلّ لمزة. ولذلك فهو يسأل ماذا تريد؟ وليس على سبيل المثال من أنت؟ أو ما شابه. لا يهمّه من أنت ومن أنا، وهو لا يسأل من يكون الطارق تحديدًا، ما يهمه هو أن ينهي العمل بأقصى سرعة. إنّ سؤاله العاجل الذي تبدّى من فتح الباب بنزق واضح، الفتحة التي تسمح لك برؤية وجهه فقط تبعث فيك الفضول، وتبدأ حرفيًّا بالخطو لكي تنفذ إلى الداخل. وفي حومة غبائك أو براءتك لا تعرف أنك تنسى تمامًا أنّ ذلك الرجل الذي فتح لك الباب ينتظرك في الداخل، الرجل الذي يعرف دائمًا ما يريد، وكيف يصل إلى غرضه بسهولة، إنه إذن أحد أولئك السّفهاء الناجحين، ومن يصح القول فيهم إنهم مملّون، لأنّهم الملل ذاته.

لا يضع المنتمون للنمط المحترم السلاسل على الباب، وكذلك الناس الطيبون الذين يفتحون الباب أيضًا على الفور، حتى قبل أن يتلاشى صوت الجرس، لكنّهم يفتحون الباب على اتساعه، وواقعيًّا بالقدر الذي يكون فيه الباب متعامدًا مع الحائط. يقفون وسط الباب ويهتمون لأمرك. يُمسكون الباب قبل ذلك باليد اليمنى، ويُبقون اليسرى مستعدة لدعوتك إلى الداخل بحركة منها لأنّهم أناس طيبون، أيّ أنهم أناس ولدوا تقريبًا لدعوة أيّ شخص إلى الداخل، ولكي يخدعوا حكمًا في النهاية. أمّا لماذا لم يدعُك مضيفك الطيب إلى الداخل، ويخاطبك بشكل عام، فلا علاقة

له بالخداع الذي كان هو ضحية له في المرة الماضية. هذا النمط ينتمي بشكل جليّ إلى الناس المحترمين، والإنسان المحترم لا ينجح في تعلّم الأشياء التي تتناقض مع شخصيته. إنّه لم يدعُك إلى الداخل على الفور لأنّه لبق ومؤدَّب جيدًا، وبهذه الصفة هو يعرف أنّه من غير المسموح أن يعرض أو أن يتصنع لطفًا غير مرجوٍّ منه. ولذلك هو ينتظر إلى أن تفصح عن رغبتك في الدخول.

وبهذا يختلف النمط الطيب جوهريًّا عن ذلك الفَرِح. النمط الفَرِح ليس لديه براعة، وهو ببساطة غير قابل للتأهيل، إنّه فقير، يفرح بالحياة بذلك القدر الذي ينسى فيه أنّ هناك وجودًا للشرّ في العالم، حتى إنّه يحتفي بالزوار، سواء كان معلنا عن حضورهم أم لا. إنّه يفتح الباب على اتساعه، ويبعد يده عنه حتى يلطم الحائط في الغالب إذا لم يكن هناك ردّاد مطاطي في الأرضية يتحكم بمقدار فتحة الباب. هو لا ينتظر شيئًا، إنّه يدعوك على الفور لتدخل، لأنّه يُسعَد بك... إنّهم رائعون، وهم بهجة خالصة في عيون الناس الذين يمكنهم أن يقتربوا منهم.

رويت كلّ هذا الكلام السخيف لزوجتي مُقدّمة لحكاية موسعة عن تعارفي مع سارة. وكان من الضروري لهذا أن يُمتِع زوجتي التي نجحت للمرة الثانية في أن تدرك المستحيل، نجحت هذه المرة في منتصف شهر أيلول الدافئ الذي أصابها فيه الزكام بشكل حادّ لدرجة أنها لم تستطع أن تقف طوال اليوم على قدميها، وبقيت منهكة من السعال وارتفاع الحرارة،

ويمكن لزوجتي بكل صراحة أن تخدمني بالاعتراف بنظريتي لكي أتباهى، لأنّني كنت واثقًا أن سارة أثبتت تمامًا نظريتي عن الأبواب. ولكنني لم أصل إلى التفاخر بنجاح نظريتي قبل أن أثبت أيّ شيء. قرعت سارة التي كنت سأتحدث عنها باب بيتنا. زارتنا في اليوم اللاحق لتعارفنا.

لم يكن من الممكن مقارنة سارة التي فتحت لها الباب مع تلك التي فتحت لي الباب قبل يومين. لا أثر لذلك الصفاء الراقي الذي يُبهِر كلّ شخص يرى امرأة حسناء على الأقل، لا وجود لذلك التركيز الحاد الذي تتبعتني به ودوبرافكو، لا وجود لتلك القوة التي كانت تومض من تعابير وجهها، ومن صوتها، ومن كلّ نأمة. مَن هي أمامي كانت إحدى النساء المفجوعات المتعَبات، لا تعرف ما الذي تريده، ولا تعرف كيف تحتمي من ذاك الشيء الذي لم يحدث، إنسانة بائسة، والشيء الوحيد الواضح لديها أنّها لا تريد أن تبقى هنا. وأنا لا أعرف إذا ما كان هذا الهنا يتعلق بسارة ذاتها، ولكنني أعتقد أنّه يتعلق قبل كلّ شيء بها، مع أنّه من المحتمل أن يخصّ كامل المدينة، أو بعض الأماكن فيها على الأقل، مع أنه مؤكد وظاهر تمامًا. لا.. لا يمكن أن يكون هناك شكّ بأنها لا تريد أن تبقى هنا.. بيننا. تردّدتْ بداية في الدخول، وعندما دخلت رفضت حتى التفكير بالجلوس، أو أن تشعل سيجارة أو أن تشرب شيئًا، مولِّدة في النهاية موقفًا شديد الغباء، كان وقعه في نهاية الأمر أكثر شدةً عليها وليس علينا؛ وهكذا، وبشكل إضافي، تفاقم وضعُها، واشتدّت عصبيّتها بدرجة لا تُحتمل. أي

أنها لم تُرِد أن تجلس، وكان عليّ بمنطق الأمور أن أعرِّفَها على زوجتي هانيا التي كانت تضطجع منهكة مع سعال استمرّ أكثر من يوم وعطاس وحرارة مرتفعة. أثناء التعارف مدّت لها سارة يدها وهي واقفة، وهكذا حتى استطاعت هانيا أن تستقبل اليد الممدودة وهي واقفة. وهمّت هانيا بالوقوف لأنّها فهمت من ملاحظاتي العرضية السابقة أنّ سارة شخصية لامعة، وتستحق أن تتعرف عليها، لكنّ ذلك أرهق سارة حرفيًّا، وأرغمها على إجراء تحقق طويل بأنّها لم تفكر بهذا على هذا النحو، والحمد لله أنها لم تكن لتفعل شيئًا من هذا القبيل، وتحديدًا مع امرأة مريضة، وإنّما هي الآن مضطربة قليلًا، ولذا تبدو غبية. دعاها هذا الحادث الصغير، أو بالأحرى أرغمها على أن تجلس وتقبل بإشعال سيجارة، إذ قمت أنا بلفّها لها، ولا شيء أكثر بالتأكيد، لا شيء أكثر.

سألت سارة عندما جلسنا في النهاية حول سرير هانيا:

- ألا يزال ذلك العرض ساري المفعول؟

سارعتُ بالجواب بغية تشجيعها، وبأمل أن أثنّي على قرارها الجديد:

- هل أعدت النظر؟ أنا سعيد بذلك، أعتقد أن ذلك بالنسبة لك من حسن الفطن.

كرّرت سارة بالنبرة نفسها، وكما يبدو، لم تلاحظ سعادتي وطيب نيتي:

- ألا يزال ساري المفعول؟

- أعتقد أنّي لا أجد سببًا لأن يتغير شيء من ذلك.. وكما تعلمين لا يوجد شيء يمكن أن يُعتَمَد عليّ فيه، أو بالأحرى لا شيء يعتمد عليّ، ولذا ليس لي حقّ الكلام، ولكن سيبدو لي سخيفًا إن تغير شيء خلال يومين، خاصة أنّه لم يحدث شيء بشكل خاص.
- ألا يزال عرضكم ساريًا بأن تستخرجوا الأشياء الضرورية؟ هذا هو سؤالي! وما مدى صداقتكم هناك في ذلك المكان المُرتقَب، بأي معايير يتم الحصول هناك على هذه الأشياء؟ سألت سارة بعد أن أربكت نفسها وأربكتني معها، وكل ذلك من أجل أن تكون متكتمة، وأضافت:
- هل أنتم أصدقاء بما فيه الكفاية؟ هذا ما يهمني.
- إنّ عرضي بالطبع ساري المفعول.. سوف أقوم بما يجب عليّ، لا جدال في ذلك. أجبتُ بسرعة.

وقد فهمتُ أنّ سارة تفكر بشهادات المعمودية، وصداقتي مع عدد من رجال الدين الكاثوليك، لكنّني لم أفهم السؤال الثاني، إذ قالت:

- ماذا يعني أن تكون صديقًا لهم بما فيه الكفاية؟ بما فيه الكفاية لِمَن، بما فيه الكفاية لأجل ماذا؟ أمن أجل هذين الشيئين، ولكنّهما ليسا طبيعيين تمامًا.. غير طبيعيين كثيرًا..

سألتنا سارة بطريقة مزدوجة ماكرة.

أعلنت زوجتي للمرة الأولى هامّة بالوقوف:

- أيمكنني الخروج إذا كنت أزعجكم؟

أعلنت ذلك كما هو طبعها دائمًا عندما تكون غاضبة أو مُهانة، وتحدثت بصوت عالٍ بما ليس من طبعها، وفي الواقع بشكل مباشر ضدّ طبيعتها العادية، وهذا ما جعل سارة تتخذ قرارًا انتحاريًّا وتجيب:

- - لا.. لا يا للغباء!

قفزت سارة وهي مضطربة كثيرًا، وتوجهت إلى الباب، وصرخت بوجه زوجتي، لقد قمتُ بعمل غبي، هذا ما أردتُ قوله!، وتوجهتْ ثانية نحو الباب، ثم توقفت بعدها ثانية، وخاطبتني وكأنها مدينة لي ببعض التوضيح عن كلّ ما حدث:

- أمام الزوجة وفي بيتها، تخبئون شيئًا وتتحدثون عن أسرار؟! لا. لا. هذا غير ممكن.. أنا ذاهبة، وهذا هو الأفضل.

نجحتُ بإيقاف سارة وإعادتها إلى مكانها، ونجحت بإيقاف هانيا وإجبارها على التمدد على السرير ثانية، ثم جلستُ وتوسلتُ إلى السيدتين بأن نحاول قليلًا وباختصار - على الأقلّ لمدة ساعة - أن نكون متعقلين.

- يمكنني أن أتفهّم عندما أستدرك الشيء القليل على الأقل.

أجابتني هانيا وواصلت بصوتٍ عالٍ تقريبًا:

- عندما تسمحون وتوضحون لي ما حقيقة الأمر.. ربّما سيمكنني أن أكون متعقلة وهادئة وأجيب عن كلّ ما يُطلَب مني.

- الحديث يجري عن شهادات المعمودية، أجبتُ أنا باقتضاب.

آملًا بأنني بهذا الجواب المُختصَر والحقيقي جدًّا يمكنني أن أوقف تصاعد الحديث عن مجمل الحكاية وكشف خططي مبكرًا، وأضفت، «وتحتاج السيدة إلى شهادتين على الفور».

سألت هانيا بارتياب:

- أتعتقدين أنّ شهادتين تبدوان مقنعتين، أم أنكما قد عُمّدتما مرتين حقًّا، يا سيدة سيرافينا؟

- سارة.. سارة، نطقت اسمها بطريقة آلية، ثم نهضت بنِيّة الخروج. لقد أفسدتُ أنا كلّ شيء، تشوشنا، ولم نعد نعرف ماذا نتحدث.

- لقد تعمدّت في إحدى المرات بالفعل هنا بالقرب منكم في كنيسة القديس يوسف، ولكنّ شهادة التعميد ليست ضرورية لي، وهنا تكمن المشكلة. إنها ضرورية لآخرين، لاثنين هما ليسا مُعمَّدين. وأخشى ألّا يمكنني الآن أن أزيد الأمور تعقيدًا. لقد حطمتُ كلّ شيء بشكل كبير.

- عليكم المحاولة على الرغم من ذلك. حاولوا أرجوكم.. اقترحت هانيا بنبرة واهنة بصوتها الهادئ العادي حاثّة سارة البائسة بحركة من يدها بأن تعود لمكانها. سيكون هذا بداية سيئة لتعارفنا، وهذا لن يؤدي حقيقة لبداية تعارف صحيحة، وأنا واثقة بأنّ بإمكاننا أن

نصبح صديقتين حقيقيتين، زوجي معجب بك، وأنا أصدّقه.. أرجوك.

- لست ذاهبة.. لست ذاهبة بالتأكيد.

أوضحت سارة ذلك وهي لا تزال واقفة قرب الباب:

- ولكن هل يمكن لأنطونيا الذهاب، أحتاج شهادة لها ولكينان.

سألت هانيا وهي تبتسم وبسخرية وارتباك في الوقت نفسه:

- شهادة تعميد لكينان؟
- غباء.. أليس كذلك؟ سألت سارة
- نعم.. تمامًا. وافقت هانيا على ذلك.
- وهنا مربط الفرس عزيزتي، ولذلك أسأل عن مدى صداقاته هناك في ذلك المكان المُعيَّن، أجابت سارة. لا أحتاج لأصدقاء لاستخراج شهادة تعميد لي، فأنا معمّدة وبإمكاني الحصول عليها عندما أريد دون أيّ أصدقاء. ويمكن أن أسوّي الأمر لأنطونيا دون أي صداقات مهمة إذا توقف الأمر الآن على التصليب والحصول على الشهادة، لا أحد يمكنه أن يحرمها من ذلك. ولكن كيف يمكن بشكل شرعي ودون صداقات مميّزة استخراج شهادة تعميد لمسلم في الكنيسة؟! كيف يمكن ترتيب ذلك؟

وافقت هانيا سارة للمرة الثانية:

- صعب جدًّا.. ويبدو لي واضحًا الآن لماذا يتوجب على زوجي أن يكون صديقًا حميمًا للكاهن الذي سيعطيه هذه الشهادة، لكن الذي لا يزال غير واضح لديّ: لماذا نحتاج ذلك؟

صرخت سارة بنفاد صبر.

- من أجل أن تتمكن أنطونيا من الخروج.. كما أسلفت..

وقفت هانيا وهي مصرة:

- ولكن لماذا شهادة تعميد، لا أفهم ذلك، هل الشهادة شرط للخروج؟

- إنّه يعرف ذلك أفضل مني، وسوف يستخرج شهادات لنا جميعًا، أوضح لي كلّ ذلك، وورّطني في المصيبة، وأومأت سارة نحوي.

ليس هو، وإنّما دوبرافكو، وفي نهاية الأمر ليس هو ولا دوبرافكو، وإنّما شقيقتك الفاتنة وزوجها الوجيه. فكرتُ بمرارة لأنّ عدم حذق سارة قوّض جميع الخطط. نويت منذ اللحظة الأولى أن أخفيَ خطة الخروج عن هانيا لتجنب الأحاديث والسجالات والتوضيحات التي لا بدّ أن تؤلم، تؤلم بالقدر الذي سيحدد فيه ذلك الألم بشكل تام ودائم علاقاتنا. وهذا سيكون خطأً تامًّا، وهذا ليس له علاقة في الواقع، علاقاتنا كانت وستبقى مبنية على الحبّ. الحبّ والكثير من السعادة حقًّا. ولذا كان من المهم بالنسبة لي تجنب كلّ الأحاديث المتعلقة بخروجها، والتحضير سرًّا لكلّ ما هو ضروري، ومن ثَمّ عندما يخبرني دوبرافكو أنّ الأمور تسير

سيرًا حسنًا سأخبرها قبل يوم من الخروج، وأطلعُها على كلّ شيء، وأساعدها على حزم الأمتعة، وقضاء الليلة الأخيرة معًا، وهي الليلة التي لن تترك لي ولها أيّ شك عما لدينا وعما نعمله الآن. وبالنسبة للمستقبل، وحتى في حال أننا لن نرى بعضنا، فإن مثل هذا الوداع سيحفظ لنا صورة صادقة عن حبّنا وذكرى حقيقية تمامًا.

هكذا خططتُ، وكنت واثقًا بأنّ هذا سيكون الأفضل لنا نحن الاثنين وللجميع، ولكن لم يتح لي أن يكتمل الأمر على هذا النحو. لم تُتِح سارة ذلك. أرغمني الحديث الذي جرى بينهما، ولم أستطع إدارته أو التأثيرعليه، على أن أكشف الآن كامل الخطة مع دوبرافكو، وباريتش والباقين جميعًا. وعندما أنهيت، تطلعت إليّ هانيا طويلًا خلال الهدوء الأصم، بعينيها على اتساعهما (علامة على أنّها غاضبة أو مهانة أو الحالين معًا، وعلامة على أنّها تريد الحديث بصوت عالٍ جدًّا إذا ملكت زمام صوتها).

سألت هانيا بعد بعض الوقت:

- وأنتَ خططتَ فعلًا أن أكون أنا من ضمن المجموعة التي يريد صديقك باريتش إنقاذها.

حاولت مقاطعتها بحزم:

- لا أرغب في مناقشة ذلك، لا أرغب الآن.

- وأنا لست راغبة.. أبدًا! ثم صاحت هانيا: إذا قمنا بمناقشة ذلك يمكنني أن أفهم ماذا نويت، ولن أغفر لك أبدًا عندها.

صاحت سارة بشكل مُخفَّف، وهي توجه الحديث لزوجتي ملزمة إياها بصيغة الخطاب العادية أنت وليس بصيغة التفخيم أنتم فجأة:

- هو كذلك.. هنا مربط الفرس، أنت تفهمين كلّ شيء، ولا يتوجب عليّ أن أوضح لكِ. من الواضح لكِ أنّ علينا أن نناضل من أجلهم.
- بالطبع. إننا مرغمون.. أجابت هانيا بايماءة واهنة من رأسها. وربما سنحقق شيئًا إذا كنا حاذقين.

بناءً على أنني لم أفهم، وكنتُ مهتمًّا لهذا التحول الذي أدى إلى هذا الوضع الجديد الذي لا مفرّ منه في كلّ الخطط، تحدثت سارة باقتضاب عن أحداث هذين اليومين. عادت أنطونيا إلى البيت بعد وقت قصير من مغادرتنا أنا ودوبرافكو بعد أن كانت قد رأتنا عند مجيئنا ومغادرتنا، لأنّها كانت طوال الوقت قرب المرآب أمام بنايتهم، ولكنّها لم تعرف أننا ذاهبان إلى بيتهم. وسارة التي تعرف خوف أنطونيا الكبير وصعوبة احتماله، وكيف أنّ وضعها الحياتي مُعقَّد، قرّرت أن لا تحدثها بشيء عن أسباب زيارتنا، ولا عن إمكانية الخروج من المدينة التي لاحت. ولكنها لم تكتم السرّ طويلًا في ذاتها (هذه طريقتي التي سأتحدث فيها عن مؤخرتي لأقول ما يجب أن أخفيه) وأشارت إلى ذاتها بغضب. تحدثت

عن كلّ شيء في الليلة نفسها بعد قليل من بدء هجوم المدفعية على المدينة، والذي بسببه ارتجفتُ أنا في الوقت نفسه أمام مدخل بيتي. عرفتُ أنّ انطونيا، حتى مع ما هو فوق طاقة البشر، لا يمكنها ان تقاوم المحنة، وأنها ستذهب بأي ثمن لكي تتحرر أخيرًا من الخوف، وعرفت في الوقت نفسه أنّه ليس من الضروري للفتاة المسكينة أن تخرج، ولا يسمح لها حتى التفكير به، لأنّها فهمت من حديثنا أنّ شهادة التعميد شرط للخروج، وهذا الشرط يعني بالأحرى أنّ كينان خطيبها لا يمكنه مرافقتها وهذا....

لا يمكن تصور أنطونيا شخصًا ناجحًا وحازمًا. درست اللغة الإنجليزية والأدب أولًا، وبعد ذلك درست العمارة، وكانت طوال الوقت تسأل لماذا هي تفعل ذلك، أو إذا ما كان هو حقًا ما ترغب في عمله. وطوال تلك السنوات تنقلت مئات المرّات بين أعمال متعددة، وبدأت العمل إلى جانب الدراسة، وبعد وقت قصير من البداية عدَلت عن ذلك، إذ اكتشفت أن العمل إلى جانب الدراسة لا يناسبها حقًا. ومع أنها تجاوزت الثلاثين، إلا أنها لم تجب نفسها على أيّ سؤال مما يسمى «بالأسئلة النسوية» من مثل: هل من الضروري أن تتبرج أم لا؟ وإذا كان ذلك ضروريا، فبأي طريقة؟ أو: أيّ طراز من اللباس يليق بها؟ أو: ما هو أكثر لباس يمنحها الراحة عند ارتدائه؟ كلّ ذلك بدا لديها غير ثابت، ولحظيًّا. الشيء الوحيد الثابت في حياتها والمستمر خارج الأسئلة جميعها وبدون تغيير هو عشقها لكينان. إنهما لا يزالان معًا منذ أن كانت أنطونيا

تدرس اللغة الإنجليزية (لم يكن على سارة أن تُقسم بأنها لم تنتقل إلى هندسة العمارة من أجل كينان)، كان يبدي الكثيرمن التفهم والصبرمنذ عدة سنوات في جميع أزماتها وانعطافاتها، كانا يتحدثان عن الزواج منذ أن بدأ كينان العمل ويخططان لحياتهما المشتركة ويتلذذان بذلك كالممسوسين. طوال تلك العقود لم يظهر لدي أي منهما أيّ شك في العلاقة المشتركة، بل ترسخت الثقة بأن ذلك هو الحب الحقيقي.

إذا كان هناك في العالم من يفهم مقدار عدم احتمال خوف أنطونيا، فإن سارة تفهمه، إذا كان هناك في العالم من يثقل عليه معاناة هذه الفتاة المسكينة فهي أمها (ليس من الضروري لأحد في هذا العالم أن يقول كم هو ثقيل خوفها، وأنا لا يمكنني أن أوضّح لأحد حال قلبي عندما أرى وأعرف أنها ترتجف مثل عصفور لعدة شهور دون توقف. صرّحت سارة في لحظة معينة، وكأنها تدافع عن اتفاقنا المكتوم). لكن سارة المرأة المُسنّة والمجربة تعرف معرفة تامة، من خلال تجربتها الخاصة بأن الأقل شرًا هو احتمال كلّ ذلك على أن تبقى من دون حبيبها، ومن دون ذلك المكان الآمن الذي تجتمع فيه حياتها ووجودها. لذلك هي ضد مغادرة أنطونيا، ولذلك هي لم تذكر ذلك حتى عندما كنّا أنا ودوبرافكو في بيتها، ولهذا السبب ففي حديثها الذي استمر يومين مع أنطونيا تحدثت ما تحدثته على هذا النحو.

من الحماقة اتهامي بأنني ضد خروجها. إنها الشيء الوحيد الذي أملكه، وبالنسبة لي فإن الحرب ستنتهي عندما أتوقف عن رؤية عذابها. تحدثت سارة بمرارة وحرقة وكأنها تريد إقناع أحد ما، كأنها تواصل بيأس وعناد النقاش الذي ضاع منها، وكانت قد فقدته قبل أن تبدأ. فهمت أنه ليس لسارة مشكلة معنا، وعندما تصرخ كأنها تدافع ولا تجيب على مطالبنا المكتومة التي تفترضها، وإنّما تواصل الحديث مع ابنتها التي لا تزال تتألم كثيرا وعميقًا، مصممة على إنهائه ودفعه نحو أيّ تفاهم ممكن بينهما.

وعلى أي حال، ومنذ يوم أمس، بعد زيارتنا أنا ودوبرافكو تحدثت سارة وأنطونيا وبكتا وتشاجرتا. لم ترد أنطونيا أن تستمع لأي حجج وتحفظات، فقد ولدت من جديد، عندما سمعت بأنها يمكنها الخروج من هنا، وأرادت الذهاب الآن، وعلى الفور، بدءًا من هذه الخطوة حتى لا تفقد الوقت لكي تختار وتحمل معها الأشياء الثمينة. صرختُ: كيف يمكنها ذلك عندما يتعلق الأمر بالأغلى.. عندما يذهب الأغلى الوحيد من هنا؟ وعلى الضد من ذلك توسّلَت إليها سارة بإصرار وصبر ورجاء أن تتمهل وتفكر وتزن الأمور، أن تفكّر وتقدّر (القرارات النهائية هي الأكثر سهولة، إنها تأتي من تلقاء ذاتها، قالت سارة: لا بد أن تزِني الأمور وتتخذي القرارالصائب أمام الأسئلة الصغيرة، أمام الأشياء الجانبية التي تؤدي إلى القرار النهائي). وفي النهاية كان عليهما نطق ما تحاولان تجاوزه بإصرار،

ومصممتان على عدم ذكر كينان وحبهما له. وللمرة الثانية غاب الأمل بأن تتفاهما لأنّهما كانتا تفكران بتلك اللحظة، بما سيحدث خلال العام. كان من الممكن لأنطونيا الذهاب بدون كينان، وكانت ستذهب حتى لو لم يتمكن هو من الخروج. إنها تعرف جيدًا ما الذي يعنيه لها كينان وحبهما لبعضهما بعضًا، ولكن كينان يعرف أيضًا أن الأمر لا يتعلق بشكل عام بقرارها هي، وأن لا علاقة لذلك بإرادته، وهو يتفهم ذلك بالتأكيد، ليس لأنّها لا تريد، ولا يمكنها احتمال ذلك، ولا يتعلق الأمر بأنها تريد الخروج، إذ إنها مرغمة على الخروج لكي تكون في الغد طبيعية ومؤهلة للحياة مهما كان شكلها. سارة تسمح بكل شيء أن يتكرر أما كينان فلا. لا يجوز لها الذهاب من دون كينان. ربما ستعيش بسبب خروجها من هنا. ولكن سيكون كل ما يتبقى لها حتى الممات العيش المجرد فحسب. لن تحصد شيئًا من هذه الحياة إذا كانت مقابل ذلك ستكون بدون حبيبها، هذا لا يمكن أن يسمى حياة. وهو مرعب لا يمكن تمنّيه للأعداء.

واستنتجا في النهاية بأن الأفضل بالطبع أن يذهبا معًا (سيكون ذلك رائعًا ستتوقف الحرب وكل إكراهاتها لدي في تلك اللحظة.. قالت سارة). وإذا كان ذلك مستحيلا ستذهب أنطونيا وحدها بمساعدة سارة أو بدونها، دون اعتبار لمن يفكر بذلك وله كلمة، ودون اعتبار للثمن الذي سيكلفه الخروج، حتى لو دفعت حياتها كاملة ثمنا لذلك. وعلى أيّ حال ستدفع لها هي، وهي وحدها. أنطونيا (هي بالنسبة لي مشكلة حقًّا، قالت سارة

لنا.. لو قُدّر لي أن أضحي بها، لكنت في هذه الدقائق قد أطلقت هذه الطفلة المسكينة لتذهب).

صمتنا طويلا بعد أن أنهت سارة كلامها، وكان يُسمع صوت نفس زوجتي المجهد، ونقاش غير مفهوم لشخصين تحت نافذتنا، وإصرار ملح لأحد الأشخاص لتشغيل محرك السيارة الذي كان هو ايضًا مصرّا على عدم الاشتغال. (من المؤكد أنه أمام مركز شرطة ديرفو حيث يمكن من مكان ما قريب أن يتم تشغيل السيارة). قهقهت زوجتي بصوت هادئ. سمعنا الضحكات ولم نفهمها. ثم انقطعت الضحكات. ضحكت هي إذن على ما قالته تحت النافذة.

سألت مقطبًا بعد صمت طويل ثقيل:

- أودّ على ضوء ما قيل أن أقرر هل عليه أن يستخرج شهادة تعميد لكينان؟
- نعم، ذلك ضروري، ومن دونه فإن الأمر لن يمر، تدبريه يا سارة!

سألت مواصلا:

- هل من الواضح لديكم أنه إلى جانب ذلك عليه أن يملك وثائق أخرى بالاسم الذي سيكون على شهادة التعميد.
- يمكنكم أنتم ذلك، لامشكلة هنا، سأدفع عن كلّ شيء.

شجعتني سارة التي كانت كأنها تسارع إلى إنهاء الأمر من الناحية الفنية، بعد أن توضح الآن كلّ شيء وتم تعريفه وتقريره.

- ما الذي ستدفعونه أنتم؟ كيف؟ لمن؟

سألت غاضبًا من سارة بسبب آمالها العمياء، بسبب توقها السريع لنتائج محددة، هي التي لا تسأل عن الأسباب ولا ترتضي رؤية العقبات.

- لماذا تصرخين؟ ما الذي فعلناه لك؟.. تدخلت هانيا للمشاجرة مع سارة.

لم ألاحظ أننا توزعنا، أنا من ناحية، وهما من ناحية أخرى، لا أعرف حول ماذا، ومتى نشأ هذا التوزيع، لا أعرف إذا ما كانتا قد لاحظتا التوزيع، وهل رضيتا به، لكن مجتمعنا الصغير قد انقسم على هذا النحو أثناء الحوار. وكنت سأقول إن هانيا شعرت قبلي بذلك، لذلك ردت عليها بهذه النبرة الشجارية.

استشطت غضبا:

- أنا أرفض المشاركة بكل هذا الكلام الفارغ، لايمكنني ذلك ولا أوافق على أيّ جزء من أفكاركم الحمقاء.

أنّبتني –هانيا– بهدوء وبحزن نوعًا ما:

- وكان من الضروري ومن الرائع جدًّا لو أنك تشارك. ويتوجب عليك المشاركة بسبب الخير كله الذي حصل لك، إنك بهذا تبين أنك تعرف أن تقدر ذلك، وأنك ممتن لكل ما هو خير.

صرخت:

- أوكان عليّ المشاركة في تعميد كينان؟ أليس يكفي هذا المسكين التعميد من دوني.. يا إلهي! أتطلبين ذلك مني حقًا؟
- لا سمح الله أن أطلب ذلك حرفيًّا.. زعقت سارة.. كان ذلك أيّ كلام غير واقعي، لمجرد أن تخرج.. وأن يبقى كينان.

أوضحت–هانيا– بروية:

- أنا أطلب منك، ياعزيزي، أن تشارك في إنقاذ حالة حب، وأنت تعرف أنني لم أكن لأطلب منك شيئًا آخر حتى لو جننت. كينان لا يؤذي أحدًا، كان بامكانك مساعدته كي يذهب مع زوجته التي يحب..
- هذا صحيح.. أنت تفهمين كلّ شيء، كان الله في عونك. شكرت سارة زوجتي على مساندتها لها ثم استدارت نحوي، وأضافت: سوف تذهب أنطونيا بدون كينان، إنها لم تعد قادرة على الاحتمال، منذ أن عرفتْ أن بإمكانها الخروج ثقل عليها احتمال ما يجري هنا. وقد وعدتها بالمساعدة في الخروج، لم أستطع غير ذلك خلال ذلك الحوار المثير. إن ذهبت بدونه، لن تغفرذلك أبدًا لنفسها ولي، وسيكون من الأفضل لي في هذه الحالة أن لا أكون على قيد الحياة.

نشأت بين هانيا وسارة صداقة قائمة على أعلى مستويات التفاهم الممكنة عمومًا، وعلى التضامن والحاجة الواقعية والمحددة تمامًا بأن

تتساعدا في حل إحدى المشكلات المحددة تمامًا. وعلى ضوء تجربتي، فإن هذا النمط من الصداقة هو من خصائص النساء، فهو يظهر بشكل رئيس بين النساء اللائي حزن تجربة معينة. لا يوجد حب في هذه الصداقة، وليس من المحتمل فيها إعجاب مميز، وعندما يحين انطفاؤها لا تعود بالألم، وتنطفئ هذه الصداقات في الحقيقة بعد وقت قصير من غياب المشكلة التي نشأت من حولها. وعلى الرغم من ذلك، ومع أنها تتأسس على تصميم مشترك لحل إحدى المشكلات المحددة، إلا أن العلاقة بين امرأتين لا يكون فيها أيّ شيء متشابه بشكل حرفي مصلحة مشتركة فهي أكثر بكثيرٍ من أي مصلحة مشتركة متخيلة، إنها باختصار صداقة حقيقية.

ربما لأنّني كنت أغار من تلك الصداقة، ولأنّني شعرت بأنني مقصيّ، وبالتأكيد لأنّه طلب مني أن أعمل شيئًا لا أرغب فيه، كنت فظًا أكثر مما يجب، وأكثر فظاظة مما رغبت.

صرخت:

- لا تتحيرا.. أرجوكما بمودة.. أيتها السيدتان.. يخرج المرء من هنا لكي ينقذ مؤخرته، ويصبح الأمر هكذا بشكل رئيس مع كلّ مغادرة. وعندما ينجح المسعى، وعندما تستقر المؤخرة العزيزة في أمان تبدأ الحالات النفسية بالظهور، وكذلك الحساسيات، والحقائق العميقة والمعضلات الأخلاقية والروايات المثيرة.

ولكنكما ستوافقان معي أن الطفل لن يكون معافى إلا عندما تتكوّن نفسيته. وإذا ما تعامل مع «أريد و لا أريد أن أغفر، وهل حبها متيقّن أو مختل» يكون واضحًا لكم أن الأمور طيبة. ولذلك لا أرى، في الواقع، ما الذي يزعجكما بهذا القدر حول ما يدور، ولا أفهم لماذا تقتلانني وأنا لا ناقة لي ولا جمل.

قالت هانيا مع وقع بشع في صوتها، وكما يبدو كانت مصدومة من تذاكيّ عن المؤخرات:

- لكننا لا نملك أي فكرة عن مجريات ما يدور من منظار أولئك الذين لم يخلِّصوا مؤخراتهم ومن لم يريدوا. كيف تكون الأمور لديهم مع النفسية والحقائق العميقة؟ هل بامكانهم عمومًا أن يسألوا عن الحب عندما لا تكون مؤخراتهم مستقرة.

حاولتُ تغيير الموضوع:

- حسنًا.. دعك من ذلك.
- سأدع ذلك، إنه فعلا غير مهم، أردت أن أقول فقط إن سارة ربما تفكر بالحب على طريقة أولئك الذين ليسوا محتوين تمامًا في مؤخراتهم. وربما تحسب حسابًا لأحد جوانبها غير المشمول بالمؤخرة. ربما سمعت سارة بأنك اعتقدت أنت في زمن ما، وأكدت ذلك في الحقيقة، مرات عديدة أن الإنسان ليس كله في المؤخرة، أو في الواقع أن الإنسان ليس هو المحتوى في المؤخرة.

في الحقيقة إنه الفائض الذي يبقى عند التخلص من محتوى الأمعاء. هذا هو الإنسان أليست هذه كلماتك يا عزيزي؟

سيطر الصمت للمرة الثانية، وكانت مغضبة ومعذّبة ونافدة الصبر. بعد صمت وصمت طويل كانت قد ناقشت خلاله مع ذاتها- كما يبدو- ماذا وكيف تعمل الآن وهي تنظر إلى الأرضية أمامها وتخاطب سارة بصوت هادىء مسالم وكأنها تتحدث مع شخص غائب.

- لقد أنقذَتْ شقيقتي أنجيلينا حياتي مرتين. في المرة الأولى عندما كنا صغارًا وكنت لا أزال في الصف الثاني، وفي المرة الثانية عندما كبرت وأصبحت فتاة ناضجة. كانت المرة الثانية بالنسبة لي مصيرية، وأراني مجبرة أن أحدثكما عن ذلك لكي تفهمانّي الآن واليوم عندما أتحدث عن أنطونيا.

كان ذلك نهاية شهر شباط عام 1942. بعد شتاء رهيب أنذر بأن العالم بأكمله سيتجمد وتنهال عليه الثلوج، ومن البعيد أطل الربيع واكتست المدينة بالأخضر المتفتح النضر وبشيء مرّ. وفاض نهر مليانتسكا مثل نهر حقيقي، وأنذر حتى بالفيض عن مجراه وإغراق ما حوله. وبدت فيلا – تشينجتش مثل بحيرة، وكان الوصول إلى سهل سراييفو وهراسنيتسا صعبًا جدًّا. لكن التوتر من كلّ ذلك لم يكن ثقيلا ولا شاقًّا، وإنّما رخيًّا بهيجًا شبابيًّا، وكأن خوف الأطفال البهيج من الفيضان انسكب في المدينة والعالم بأكمله. أو أن الصفاء جاء من كون كلّ خيرات الشتاء قد أتت كما

كانت في المرة السابقة بعد أن حدث الشعور بفيض المياه باعتباره ذوبانًا وانتعاشا.

لم تعد سارة وأعز صديقاتها أيلا كمحي من المدرسة إلى البيت، وإنّما ذهبتا إلى الجسر اللاتيني لمشاهدة ارتفاع نهر ملياتسكا وكيف أصبح ينذر بالخطر. كان النهر جارفًا، نهرا حقيقيا فعلا، وكان من المثير الوقوف على الجسر، والاحتماء بالسياج الحجري، ورؤية سيل الماء وهو يرغي ويرتطم بالجسر الحجري الذي لم تكن بوابته وفتحتان في الدعامات الحاملة كافية لهذا القدر من المياه المندفعة والهادرة أن تنهمر وتهدد بتدمير الجسر بأكمله وسياجه الحجري وجرف الفتيات من ورائه. كان هناك شعور فعلا بقوة جريان المياه على الجسر ووراء السياج، وكان ذلك الشعور مبهجًا فعلا، وجيدًا ومثيرًا، ومجردًا من الخوف والتهديد والغضب. وربما لهذا السبب بقيت الفتاتان وقتًا أطول مما كانتا قد قررتا، ولأنّ من الحكمة البقاء خارج البيت في مثل هذه الأوقات. وتحسن الوضع بعد الظهر عندما توجهتا في النهاية إلى بيتيهما.

لم تُلحظا وهما مأخوذتان بمشهد زبد الماء القوي الذي تأملتاه طويلا، واستمتعتا وافتتنتا به حقيقة متحمستين لأحاديثهما السرية (من لم يكن أنثى في مرحلة ما بين الطفولة والفتوة لا يمكنه تصور كم وكيف تحدثتا كأفضل صديقتين). لم تلحظا أنهما وصلتا إلى الساحة أمام المسرح الوطني، وإذا برجل شاب متزن بلباس رسمي يستوقفهما. لقد

ذكّرهما بالواقع الذي وفقتا في تجنبه طوال فترة ما بعد الظهر، بالحرب والجوع وجنسية ودين إيلا غير المقبولين.

كانت تقف أمام ساحة المسرح الوطني عربة عليها شادر مرفوع فوق هيكل العربة، وكان يُرى في أعلى هيكل السيارة ثلاثة صفوف من المقاعد جلس عليها عدد من الأشخاص. كان هناك حول العربة عشرات من الجنود، ووُزِّع عشرات من الأشخاص على مداخل الساحة والشوارع المحيطة كانوا يوقفون المارة المشكوك في أمرهم، ويدققون ببطاقاتهم الشخصية.

بدت الاثنتان موضع شك بسبب أن إيلا كانت الفتاة الأكثر جمالا وإثارة التي وقعت عليها عينا سارة طوال حياتها، بسبب وجهها الأبيض مثل الحليب أو الجبن الطازج المؤطر بخصل طائشة من الشعرالأسود الغزير الذي يشبه جناح الغراب. عرفت إيلا أن هذه السيمياء تقع في أعين الناس الواعين العنصريين، كما عرفت أنه لا بد من إخفاء الشعر تحت القبعة، فهذا هو الوقت الذي يجب أن لا تكون محط الأنظار إذا كان اسمك غير مقبول – وهذا ما قامت به عمومًا– لكنها لم تستطع فعل هذا اليوم، إذ كان اليوم مريرًا ومليئًا بالخضرة النابتة، ولأنها تبدو بمنتهى الجمال عندما تحرر شعرها، وهي متوترة لأنّها ارتابت بسنواتها الاثنتي عشرة وانزعجت من الماء الهادر كالوحش. لا يمكنك أن تكون ذكيًّا دائمًا إذا كنت فائق الجمال باثنتي عشرة سنة من العمر، حتى يتوجب

عليك ببساطة أن تشعر- على الرغم من الخوف- بأنك لا تستطيع إخفاء خجلك إذا ما أقلقك شيء عميق وقوي. قرب العربة، قال أحد الأشخاص بلباس مدني لأحدهم ممن يرتدون لباسًا رسميًّا: لا يمكن أن يكون هناك شك إذا نظر المرء لأنف واسع وشفاه ممتلئة وذقن مسنون على وجه ناصع البياض مؤطر بمثل هذا الشعر. لا.. الأمر هنا واضح تمامًا، كرر ذلك صاحب اللباس المدني. ثم سأل إيلا: ما اسمك؟ وتبين حينئذ أنهما كانا متشككين بوجود أسباب لذلك. سارت إيلا على أحد الألواح محاطة بسياج من الجانبين مع درابزين على اليسار وجلست في الصف الثاني. ثم سأل صاحب اللباس المدني سارة عن اسمها فردت بصوت عالٍ وواضح: سارة. وسألها صاحب اللباس المدني حينئذ ماذا تنتظر، ولماذا لا تقفز، ولم يتبين من خلال صوته ما إذا كان ساخرًا أو غاضبًا، لأنّ سارة ترغمه على بذل جهد إضافي. صعدت سارة إلى العربة بمساعدة اللوح الذي وضع ليسند ممسك الدرابزين، وجلست في الصف الثاني إلى جانب إيلا.

ظهرت في تلك اللحظة شقيقة سارة أنجيلينا معلمة الصف الأول للثانوية الأولى التي كانت عائدة من المدرسة إلى البيت. تطلّعت نحو شقيقتها وتعرفت عليها جيدا عندما جلست، ومن المحتمل أنها لم تكن لترى، ولم تعط انتباهًا أنها لم تكن الشخص الوحيد الذي يسير ضمن كامل المجموعة في الساحة..

تقدمت أنجلينا من العربة وصرخت تمامًا:

- سيرافينا ماذا تفعلين عندك في العربة؟

سألها صاحب اللباس المدني:

- ماذا قلت؟.. سيرافينا؟

أجابت أنجلينا:

- إنها شقيقتي واسمها سيرافينا..

سألها صاحب اللباس المدني مقطبًا:

- هل يمكنك إثبات ذلك بطريقة ما...

- يمكن لخالي أن يشهد. أجابت أنجلينا وسألت إن كان بامكانها إحضاره..

قال صاحب اللباس المدني.. لدينا عمل أكثر جدوى من مماحكتكما أنتما الاثنتين.

- أسرعي..

سارعت أنجلينا وهي متوترة جدًّا لمركز البريد على الجهة المقابلة تمامًا حيث يعمل شقيق أمهما، الرجل ذو المنصب المهيب لدى ذلك النظام. ولحسن حظها سُمح لها بالوصول إلى خالها الوجيه الذي ذهب معها على الفور، أسرع إلى العربة وأثبت وهو يلهث أن الأمر يتعلق بسيرافينا البنت الصغرى لشقيقته، ثم أنها شخصية ملتزمة مئة بالمئة. وشدّد على كلّ ذلك ببطاقة هوية ورتبة عسكرية يمكن أن يرتقي بها

كضابط احتياط، وخلق كلّ ذلك انطباعًا عميقًا لدى صاحب اللباس المدني.

سأل صاحب اللباس المدني:

- لماذا ذكرت الفتاة إذن اسم سارة.

وبعد أن دقق في هوية الخال تصرف بمنتهى اللطف، ولم يُوفّق أن يتكهن هل من الضروري أن يقف أمامه بوضعية استعداد، فوقف لوقت قصير بهذه الوضعية واهتز بشدة لكي يرى أنه لا يقف بوضعية استعداد، ثم عاد ووقف على ذلك النحو معتقدًا ربما أن الشيطان لا ينام، وأنه يجدر به الوقوف دائمًا بوضعية استعداد أمام الناس الكبار لأنّهم بشكلٍ ما من كبار الشخصيات العسكرية.

ثم عاد بعد ذلك ثانية وتململ خائفًا، ربما سيسيء الخال فهمه إذا ما وقف أمامه كما يقف أمام شخص عسكري عادي. ومن المؤكد أن يكون هذا السؤال هو مبرره للتوجه للعربة، وليس السؤال الذي يجدر به الإجابة عليه بالفعل.

- إن هذا لقبها، لقد أسميتها سارة عندما كنا صغارًا، وصغارا جدًّا.

أوضحت أنجلينا ذلك ردًا للجميل.

أومأ صاحب اللباس المدني برأسه:

- أها! هكذا هو الأمر. كان من حسن حظي منذ اللحظة الأولى أن الأمرغير واضح، فلها شعر أشقر رائع مثل حقل قمح ناضج، لم يستو لي ذلك مع اسم سارة.

شكر الخال صاحب اللباس المدني:

- أنتم تعرفون عملكم، وتقومون به بشكل جيد.. وهذا شرف لكم، أيها السيد..

احمرّ وجهه، وصاح بصوت عالٍ أنه جاهز. ونادى على سارة لتخرج من العربة.

نهضت سارة ونزلت من العربة وعانقت شقيقتها والتصقت بها بحرارة. وعندما ودع الخال صاحب اللباس المدني ومضى، فهمت الفتاتان أن هذا إذنٌ لهما بأن تذهبا هما أيضًا، ومضتا مسرعتين إلى البيت متعانقتين طوال الوقت. ركضتا حرفيًّا، غير شاعرتين بالأرض من تحتهما، وغير منفكتين عن العناق، طوال الطريق إلى البيت في شارع كولوفيتش حيث كانتا تقيمان.

كان هذا ما جرى بمنتهى الاختصار، دون استطرادات وإضافات وتوضيحات غير ضرورية وصراخ وبقية التعبيرات عن المشاعر التي كان هناك منها الكثير جدًّا.

كانت تلك رواية سارة عن كيفية إنقاذ حياتها من قبل شقيقتها التي تعيش الآن في مدينة زغرب. صمتنا قليلا من الوقت، إذ إن سارة ربما

كانت تود أن تتحرر من ذكريات التوقيف التي كانت تضغط عليها، ولتأخذ نفسًا، وحتى نتمكن نحن الاثنتين من جمع أفكارنا وانطباعاتنا المتعلقة بالرواية.

بدأ إطلاق النار الكثيف، واعتقدتُ من تردد الأصوات أنها آتية من جهة جسر فربانيا أو من جهة المقبرة اليهودية. أكملت سارة:

- وحتى لا نُفهم خطأً لا بد لي من تذكيركم ببعض الأشياء، أي أنني مرغم على البوح ببعض الأشياء المهمة. الفتاة ذات الاثني عشر عامًا لم تعد طفلة بأي حال من الأحوال، وهي ليست حتى الآن شخصًا بالغًا ومسؤولًا تمامًا. ربما كانت أكثر نضجًا ومسؤولية، وأكثر وعيا لذاتها وللعالم من أقرانها الذكور. إنني اذكركم بذلك لكي تفهموا كيف أنني كنت أعرف بالطبع ما يعنيه ارتقاء عربة التوقيف، كما كنت أعرف ماذا يعني أن أخبر صاحب اللباس المدني بأن اسمي سارة. عرفنا نحن كلّ ذلك وفهمناه أنا و «إيلا». لم نكن نعرف بالطبع بالاسم معسكرات الاعتقال وتلك الأشياء، لم نعرف التفاصيل والحقائق ولكننا عرفنا على أيّ حال بأن «إيلا» غير مقبولة، فلماذا تكون صداقتي معها ورطة؟ أو أنني بسبب هذه الرفقة أصبحت بدون أصدقاء آخرين في الصف، كنا نعرف أنه من غير الصحيح أن نتمشى كما فعلنا ذلك اليوم، وكنا نعرف أنه يتوجب علينا أن نتمشى على هذا النحو في ذلك اليوم، لأن هناك

أشياء تستحق ما هو أكثر من الصحة والعيش. أؤمن بأننا عرفنا ذلك أيضًا بأننا لن تكون لدينا لاحقا الجرأة التي امتلكناها آنذاك بأن نكون راشدات في ذلك اليوم، ونبعد الخوف الذي لن نتحرر منه أبدًا، وبوجوده سنفتقد بلا رجعة آثار السعادة التي حملتنا طوال فترة ما بعد الظهيرة. عرفنا جيدًا جدًّا ماذا يعني الأمر بالقفز على العربة. لقد فعلت ذلك من أجل صداقتي مع «إيلا» التي كانت من أفضل صديقاتي، بسبب الدين والنداء الذي سمعته بداخلي، بسبب تلك المسرات التي حملها لي النهر الهائج.

لا أعرف، ربما يكون ذلك مبهما كما يمكن أن تقولوا، ربما أضفت لاحقًا ذكرياتي وآمنت بتلك الإضافات، ولكنني سأقول، والآن سأقسم بأنني سمعت ذلك النداء في داخلي وأنني أصغيت إليه فقط.

تنهدت سارة قليلا للمرة الثانية لكي تتماسك وتلتقط أنفاسها لأنّ إطلاق النار من ناحية جسر فربانيا اشتد، وكان لا بد من الحديث بصوت أعلى مما هو طبيعي. أعلنت سارة للمرة الثانية وهي تتحدث لي بشكل جلي، مع أنها كانت تتأمل طوال الوقت متمعنة الأرضية أمامها:

- لا يتوجب عليّ أن أحدثكم كم كنت ممتنة لشقيقتي الكبرى في تلك اللحظة! لم أحبها بهذا الشكل، وبهذا القدر قط، ولم أكن لأشعر بها بهذه الحميمة، لم تكن مهمة بالنسبة لي بهذا القدر قط، وكنت سأقول إنها أقرب إليّ من نفسي. لقد ظهرت ونطقت

باسمي الرسمي وأنقذتني. لقد خلصتني من مهمة الذهاب مع إيلا، لقد أسكتت ذلك النداء بداخلي، لقد حلّت كلّ شيء بطريقة يمكن تمنيها. لقد حُلّت الأمور من تلقاء ذاتها لأنّها ظهرت فحسب. إذا كنتم تستطيعون أن تتصوروا فقط أيّ سعادة حلّت، وأيّ تسهيل للنزول من العربة التي تعرفون إلى أين تذهب! لايوجد دليل أفضل على حبي لإيلا من أنني كتمت صرخة وأنا أنزل على لوح الخشب. ولكنني لم أكتم ضرورة أن أقبل شقيقتي الكبرى، وأن أعانقها، وألتصق بها بالقدر الذي يسمح بامتزاج سعادتنا.

كان على سارة أن تتحدث بصوت عالٍ لأنّ المدفعية كانت تطلق قذائفها، لكنني أعتقد أن توقفاتها المتكررة كانت أكثر ضرورة من أجل التماسك الداخلي أكثر مما هي لإراحة الحلق المتعب جراء رفع حدة الصوت لتجاوز صوت الانفجارات.

استمر هذا الاقتراب الحماسي، سعادتي الفائرة وامتناني، لشهور. ثم عادت الحياة لمجراها الطبيعي. توقفنا أولا عن ذكر ذلك، ونسينا من ثم إيلا تمامًا وكل ما جرى في تلك الحادثة. نسينا بالفعل.. نسينا تمامًا. ثم لاحقًا بوقت طويل، وكانت الحرب قد مضت كما أعتقد، ظهر لدي نوع من الشعور بالذنب. يا للغباء! لم يكن ذلك شعورا بالذنب، لا يوجد هنا أيّ ذنب، كان ذلك أولا شيئًا كالسؤال، أو بالأحرى سيلًا كاملًا من

الأسئلة. هل كان من اللازم أن يكون الحدث قد جرى بالطريقة التي جرى بها؟ هل أنا فعلا قد خسرت؟ هل يمكنني في ما بعد، على الإطلاق، أن يكون لي أفضل الصديقات؟ هل من الممكن بعد إيلا أن يبقى بهاء في العالم؟ هل سنستشعر في الربيع المبكر شغفًا وألمًا وحياة؟

من أين يأتي ذلك الخجل الذي كان يداهمني دائمًا في تلك الأيام؟ افهمني بدقة أيها البروفيسور أرجوك، لم تكن تلك هي الأسئلة، إنني اليوم وللمرة الأولى أحاول أن أبوح بها. واليوم، وفي هذه اللحظة تتشكل هذه الأسئلة لدي على هذا النحو، وطوال هذا الوقت والسنين، ومنذ نهاية تلك الحرب بقيت في داخلي عكرة، غير محددة، غير منطوقة، عسيرة. من المحتمل تمامًا أن أحد تلك الأسئلة الذي لا يريد أن يتكون يتعلق بشقيقتي الكبرى، وأن شكله التقريبي، لنقل، هو ما دفعها لإنقاذي؟ أو هل هي مدعوة بالفعل لإنقاذي على الدوام؟ أو أن الأمر على هذا النحو أو ذاك. أعتقد أحيانًا أن الأسئلة المتعلقة بها تظهر مثل مشاعر، ولتذهب هي وعمليات إنقاذها – قبل ذلك من الذي يحتاج عمليات إنقاذها؟– إنني أكرر: ليس لأي سؤال من أسئلتي شكل وتعبير واضحين، ولم يتح لي الشعور بها بوصفها عاطفة أو علاقة واضحة، إضافة لترتيبها وأشكال الشعور المنبثقة عنها والصيغ المحتملة التي من شأنها على الأقل التعبير عنها بشكل تقريبي، لقد تغير كل ذلك من يوم لآخر ومن ساعة لساعة حسب اللحظة والوضع ، تغير مثل كتلة صماء ارتطمت بحاجز .

يستمر بداخلي حضور دائم للعديد من الأسئلة غير الواضحة وغير المنظورة، في حين أبقى غير مؤهل بأن أواريها أو أن أنساها أو أتظاهر للحظة بأنها غير موجودة. قلق مستمر ينشأ من حولي، ويبدو معه أن حياتي كلها قد حُدِّدت لأنني كنت أشعر بها طوال هذه السنوات المديدة التي عشتها دون في لهاث ودون أن آخذ قسطًا من الراحة .. أتفهمون ذلك؟ هل يمكنكم أن تتصوروا عشرات السنين من الضيق

انهالت سارة تمامًا بأسئلتها عليّ، وكأنني المسؤول عن ضيقها، ونظرت إليّ لأول مرّة منذ أن بدأت سردها لحادثة عام 1942. وأيّ نظرة كانت!

طويلة، مصممة، خارقة وكأنها تصر على اختراق قرارة أهليتي في التفكيروالتأكد من إمكانية تصوري لما تريده مني.

- كان من الخطأ التفكير بأنه ظهرت لدي مشاعر سلبية تجاه أنجلينا، مثل بعض التحفظ والشك، أو أن حبي لها قلّ. لا.. لا شيء من ذلك. إنني حقا أحببتها بعد الحرب بهدوء، وبشكل جلي وكامل، مثلما كان الأمر من قبل أو في زمن الحرب. لكن لم تكن لدي تلك الحميمية، ولا أيّ أثر منها، لم تكن أنجلينا بالنسبة لي رداءً فكيف بها تكون أقرب مني إليّ؟ كأن أسئلتي انحشرت بيننا وأبعدتنا عن بعض بدون أمل أن نعود للتواصل عن بعد وللأبد. ليس لأنّني أتهم أنجلينا لغرض في نقسي- لا سمح الله- وليس لأنّني اعتقدت أو

شعرت أن تكون هي مذنبة لضيقي وعذابي من تلك الأسئلة، ولكني لا يمكنني أن أقسم بأنه لم يكن هناك شيء من ذلك. تعلمون عندما لا تفكرون أنتم بأحد ما، ويكون هناك من يفكر بكم، ولكن من دون مشاركتكم في الأمر. تتضمن الفكرة، أو الفرضية، سؤالًا: هل كنت سأعاني من هذا الضيق لو أنها لم تكن هنا هي وعمليات إنقاذها؟ لم أفكر بذلك بالطبع البتة، لم أشعر واقعيًّا وبهذا الشكل قط، ولكن غالبًا ما تمور حدوس بهذه الأفكار من حولي أو في مكان ما في سريرتي، أو في زوايا بعيدة من روحي. وخلق هذا تباعدًا بيننا، مسافةً لم يكن من الضروري أن تكون بيننا، ولم نكن نطيقها. لم نتحدث عن ذلك، ولم نذكر البتة أسئلتي والقلق المرتبط بها، تصنّعنا بأننا لا نعرف المسافة التي نشأت بيننا، ومع ذلك كنّا نشعر بها. نحن نحب بعضنا بعضا، نحب بعضنا بالفعل. ومن الواضح أن إحدانا لم تستطع إخفاء مثل هذا الأمر عن الأخرى من تلقاء ذاتها. شعرنا بأننا نتباعد، وعانينا الكثير جراء ذلك، وخشينا من الأسوأ الذي يمكن أن يحدث إذا استمر هذا البعاد. ولكن لحسن الحظ أن انجلينا، التي وهبها الله الحكمة والحذق، وجدت الحل الصحيح بسرعة، المتمثل بأن ننفصل عن بعضنا، أو، بكلمة أخرى، أن أبتعد أنا عن الأعين. استعملت تأثيرها على المرحوم والدي على الرغم من الظروف المتواضعة

التي كنا نعيشها حينئذ، وذهبتْ للدراسة في مدينة زغرب. اليوم أنا متأكدة بأن هذا قد أنقذنا من حب الشقيقة، وبأننا بفضل ذلك يمكن أن نسعد مع بعضنا بعضًا خلال اللقاءات القادمة، وأنا متأكدة بأننا نحب بعضنا البعض بصفاء بفضل مغادرتها إلى زغرب في تلك الأيام. غباء أن يحدث الأمر، وأن أفقد شقيقتي التي أنقذت حياتي. وعلى الرغم من ذلك فقد بقيت أحافظ عليها لأنّنا انفصلنا.

اشتد هجوم المدفعية وسقطت القذائف على حينا، قرب بيتنا تمامًا. تبادلنا النظرات متسائلين هل حان الوقت للنزول إلى الملجأ. سمعنا على الدرجات عدة مرات خطوات مسرعة، من المؤكد أنهم أشخاص هارعون إلى الملجأ، ولكننا لم نهرع، بقينا مترددين بسبب انفلونزا هانيا، وبسبب الضيفة التي لم نرد على الرغم من ذلك أن نسجنها معنا في الملجأ.

نهضت سارة التي كانت منزعجة منذ فترة بعد انفجار قريب:

- عليّ أن أذهب.. أنطونيا تخاف، وسوف تجن وحيدة.

قاطعتها وجذبتها من يدها لتجلس:

- غباء، لقد نزلت إلى الملجأ منذ زمن أثناء تبادل إطلاق النار، أنت تعرفين ذلك أفضل مني. وهي الآن ليست وحيدة في الملجأ، فقد نزل حتى من كان يعاند بعد رؤية هذا العدد الهائل من القذائف. لا حاجة لها الآن بك، لن تكون في الملجأ وحيدة أبدًا، من الأفضل أن تكملي قصتك عن أنجلينا وعنك.

لقد أكملت:

- هذه القصة انتهت منذ سنوات على خير وعلى ما يرام، والأمر الآن يتعلق بأنطونيا. إننا بالفعل بأحسن حال وقريبات من بعض، إنها بذلك تعوضني الكثير. عليّ أن أوفر عليها مئات الأعوام من القلق يا بروفيسور. وعلي بشكل خاص أن أوفر على نفسي واجب الهرب منها وأمكنها بهذه الطريقة أن تسعدني في اللقاءات من وقت لآخر.. هل تفهم؟ لا أرى أيّ سبب لكي أحصل على تجربة أنجلينا وأنطونيا هي تجربتي، سيكون ذلك قاسيًا بإفراط، ولم نكن لنستحق هذا القدر بالتأكيد.

على الرغم من كلّ ذلك علينا النزول إلى الملجأ، الانفجارات أصبحت قريبة ومتواصلة جدًّا. في الخارج عتمة تامة، والوقت قريب من التاسعة، وفي مثل هذا الهجوم على المدينة لا مجال لأن تذهب سارة، وهذا يعني أن عليها أن تبيت عندنا لأنّ حظر التجول يبدأ في العاشرة. وهذا ما تبين من أنها فكّرت بذلك بينما كنا ننزل، لأنّها اضطربت بشدة، وفقدت الاهتمام بكل شيء ماعدا الاهتمام بأنطونيا، بدأت تعرض تجاهي ما يشبه حالة نفاد الصبر؛ إذ يُحتمل أنها استنتجت أنني المذنب في أن أنطونيا ستشهد هذا الهجوم . هل يمكن إقناع أي أم أن كلمات من مثل " بدونها " و " وحيدة " ليستا مترادفتين، وأجبت بنفسي أن لا!. تحدثت هي وهانيا، تصنعتا الحديث عن بديل الطعام في المطابخ أوقات السلام،

وذكرت قبل ذلك أنطونيا كلما نظرت هانيا إليّ أو لفتت انتباهي. كان كافيًا أن تنظر إليّ زوجتي وتتابعني أثناء الحديث، وتُذكرني بكل المواضيع التي تخصّني (وفرضت سارة، في الحقيقة، بإصرار مثل هذه المواضيع) لكي تذكر سارة أنطونيا وتنهدتْ بألم، وذكرتْ مقدار خوف المسكينة، وكيف ستكون حالها الآن، ثم نظرتْ إليّ بكثير من الإدانة. هل كانت هذه طريقتها لعرض نفاد صبرها وأن تعاقبني كما فكّرت للوهلة الأولى، أو هو تقدير فريد كما تأكدت لاحقًا؟ لا أعرف حتى الآن. وعلى كلّ حال أصبح واضحًا لي قبل منتصف الليل أنني سأبذل جهدي للحصول على شهادة تعميد كينان، بمثل ما أبذل جهدي لإنقاذ روحي، وأعتقد أن الأمر كان واضحًا لديهما.

هدأت الانفجارات حوالي منتصف الليل، ولكننا بقينا لبعض الوقت في الملجأ لكي نوفّر على أنفسنا نزول الدرج بسرعة، أو أن يكون هناك هجوم آخر. وعلى هذا النحو خرجنا منه عندما أصبح فارغًا. صعدنا الدرجات ببطء؛ لأنّني، كما هو دأبي دائمًا، كنت أوفّر بطّارية المصباح، ولم تكن سارة تعرف قاع السلّم.

سألتني هانيا بشكل عرضي عندما دخلنا شقتنا:

- متى يمكنك أن تذهب إلى كينان؟
- لماذا إلى كينان؟ هل من ضرورة لذلك؟

أوضحت هانيا:

- لا بد لأحد أن يتحدث معه بأمر الخروج من المدينة، أي في طريقة الخروج، وبشكل محدد بمسألة شهادة التعميد. معك وحدك، يمكن لمثل هذا الحديث أن يكون قصة عن الحب وليس عن السياسة والعنف، أو عن تعميده، هل تدرك ذلك؟
- لست متأكدًا.

أجبتُ بعصبيّة، مع أنه كان من الواضح لي بأنني سأكون نافعًا لكينان.

أوضحت سارة للمرة الثانية بودٍ:

- وهو من عليه فقط أن يبرز شهادة التعميد عند مراقبة الحدود لكي يتمكن من الخروج مع زوجته.. وهذا واضح تمامًا إذا تحدثتم أنتم إليه.. من السهل عليكم.. أنتم ذكور، أما نحن فمجرد امرأتين.

لم يكن واضحًا لي حتى يومنا هذا ما الذي يعنيه تأكيد سارة الأخير، خصوصًا مع الأخذ بالاعتبار أن زوجتي – والحمد لله – لم تكن وحيدة. ولكنني لم أسأل. الأمر المهم كان واضحًا بالنسبة لي وهو أن أتوجه في الغد للنضال من أجل إنقاذ كينان. وأن يكون واضحًا لي أن هانيا ستكون معي، وقد اخترقني هذا الوضوح حتى الأعماق، وكان دافئًا منيرًا ومباركًا.

تقرير عن الجهود المبذولة

كانت الأيام العشرة أو الخمسة عشرة اللاحقة مشغولة تمامًا دون مصاحبات لسارة، لأنني كنت طوال ذلك الوقت أتحدث معها أو أسعى لإنجاز ما اتفقنا عليه نحن الاثنين أو ثلاثتنا.

أول ما توجب عليّ مجرد أن قبلت استخراج شهادة التعميد لكينان والحديث معه حول ذلك، هو حلّ متاهة ذلك الحمار المشهور الذي مات في المنطقة الفاصلة بين كومتي التبن – إشارة إلى حمار الفلاح بوريدان– هل يكون الحل بداية في البحث عن شهادة التعميد التي لا أعرف إن كان كينان سيقبلها أم لا؟ أم أقترح بداية عليه الخروج من المدينة مع شهادة التعميد التي لا أعرف إن كان كينان سيقبلها بدءا أم لا؟ اعتمدت الخيار الأول؛ لأنّني لا أتوقع أن يرفض أحد الخروج من الحصار مع زوجته. لذا ذهبت لزيارة دون لوكي، أول جار لي. تحدثت معه عما أنتظره منه وألزمت بذلك نفسي أن أستمع لمحاضرة طويلة وغاضبة تقريبًا محورها درس حول أن الخداع والكذب والمراوغة لا يمكن أن تؤدي إلى ما هو أفضل، والذي أطلبه منه هو بدون شك كذب وتزوير وخداع. وأتبع ذلك في النهاية بسؤال استنكاري: «كيف يمكن لرجل في عمري، ولا ينقصه الوقار أن يكون مستعدًا للعمل بمثل هذه

الطرق؟». لكنّي لم أحاول الإجابة عن هذا السؤال، وفكّرت وأنا أغادر جاري العزيز: ليسأل سارة وزوجتي...

لم أخجل من كلامه بالقدر الذي يسمح لي بأخذ العبرة الضرورية، فذهبت إلى صديقي الطيب الراهب ليوبو الذي كان عليّ انتظاره طويلا لأنّه كان في مكان ما في الخارج (من المؤكد أنه في مكان يمكّنه من بذل المساعدة. منذ عشرين عامًا كنت على صداقة معه، وقد أمضى عشر سنين في مساعدة المعوزين كما قال لي).

وعندما حدثته عما أحتاجه تنهد طويلا، وكان طوال الوقت يذرع حجرته الكبيرة جدًّا بخطوات طويلة. ذكّرني بأن التعميد هو سرّ مقدس لا يجوز، ولا يُسمح، أن يكون محل هزل، ثم غضب لأنّني أؤكد عليه بشكل مهين بما لا يخطر على البال ولا تحت أيّ ظرف متصورًا أنني أهين أسراره المقدسة، أو أنني لا أحترمها بما فيه الكفاية (لا تتصنع الجنون! دعك من ذلك يا عزيزي.. دعك من ذلك، ووضح لي كلّ شيء عن أحوالك، وكيف حالك.. كأنني لا أعرفك).. تحدث وأشار بيديه نحوي وكأنه ينفض عني الغمام الذي يجعلني لا أرى كم هو زائد عن اللزوم ما أقوله. ذكّرني أنه ليس من السهل إنزال إنسان مجردٍ من السماء في ثنايا حوض المعمودية لرجل مسلم، ليس من السهل إعطاؤها لمن يطلبها، فكيف بمن يكون ذلك، لأنّه ليس من اللائق في مسائل الدين أن توافق بالقوة. وذكّرني بأن كلّ ذلك ليس بلا مخاطر لأي واحد من المشاركين،

وإلى جانب كلّ شيء آخر هناك أولا المشاكل العملية، إضافة إلى أنه محرّم لأنّه كذب.

ثم تذكر بعد ذلك أن شهادة المعمودية هي وثيقة رسمية تثبت أن شخصًا قبِلَ السرّ المقدس للمعمودية، وهي ليست جزءًا لا يتجزأ من السر المقدس، ثم تذكّر أن الوضع في المجمل يتعلق قبل كلّ شيء وبعده بالحب والحياة لشابين (أنا لا أعتقد أن الرب الرحيم لن يغفر ذنبًا لأجل إنقاذ حب، سألنا نحن الاثنين، ثم شرح لي بأي معنى يكون الحب رديفًا لمعنى خدمة الله). وعدّد لي بعد ذلك المراجع الذين أدانوا حرمة هذا الفعل، وقال إن كلّ ذنوبه رديئة، ولكن هذا الذنب مقارنة بكل الذنوب يُعدّ دناءة. إذا عملت وحاولت وأعطيت وأخطأت قبل ذلك فأنت مجنون ولكنك إنسان بالتأكيد، وإذا تجنبت العمل لكل ما دعيت له فأنت لست خطّاءً فحسب بل شقيًّا... حلّل ذلك صديقي دون توقف وهو يتمشى.

من المؤكد أن ما نقوم به حرام، قال في النهاية، ولكنني أحمّل روحي ذنوبنا جميعًا. أعرف أن عقلي ليس للزهو، لكن عقيدتي راسخة مثل قلعة، وتقول لي عقيدتي هذه بأن الله العزيز لا يمكن أن يكون ضد الحب الصادق. سوف أعطيه ما يطلب، يمكنني أن أرتب ذلك، وعليه أن يتضرّع إلى الله طبقًا لعقيدته.

كان من الضروري الآن الاتفاق مع كينان ودوبرافكو للقيام ببقية الأمور: البحث عن شخص مستعد ومؤهل لإعداد بقية الوثائق لكينان،

وإيجاد المال لدفعه له من أجل استخراجها، والعودة ثانية للراهب ليوبو لكي يستخرج شهادة التعميد مع المعلومات الواردة في الوثائق، وإعلام باريتش أثناء ذلك الوقت للتحضير للخروج.

عثرت على مقر الشركة المعمارية «دوم» بدون صعوبة، لكنني وجدت كينان بعد محاولة ثالثة في ذلك المقر. إنسان هادئ، متوقد الذهن في حوالي الخامسة والثلاثين من العمر، ضعيف البنية، لكنه وكيفما نظرت إليه فائق الأناقة في تلك الظروف التي كنّا نحياها، وترك لدي انطباعًا مزدوجًا ومتناقضًا في ذاته. رغبت بإخلاص تام، كما يمكن لأي إنسان طبيعي أن يفعل، وبسبب أناقته المفرطة أن يقع الرف والمخططات على رأسه، وشعرت في الوقت نفسه بجاذبية صادقة وضرورة خاصة أن أحتك به بمودة كلّما التقت نظراتي بعينيه اللامعتين الصافيتين من وراء نظارته.

اعتقد كينان أنه سيكون هناك عمل بعد الحرب لمعماري قدير مثله، ولكل ما له علاقة بالعمارة كما هو الأمر في كلّ مكان من العالم، وأنه سيكون من الغباء الشديد فعلا الخروج من هنا بشكل دائم. ولكن سيكون من الغباء أن يجلس الإنسان هنا بدون عمل إلى أن يصدأ، ومن ثم، بعد الحرب، عندما يُعاد الإعمار من جديد، يحتل وظيفته أناس قديرون ممن لم ينسوا كيف يعملون لأنّهم لم يتوقفوا عن العمل طوال الوقت.

وعلى أي حال، إذا كان هذا المشوار بين السيد باريتش وكيسيلياك سيمضي بهذه السهولة، فإنه سيذهب برضا، أو بدقة أكثر، سيخرج بشكل مؤقت ليرى كيف تسير الأمور في الخارج إذا كان ذلك ممكنًا بأي حال. الوثائق المزورة ليست مشكلة بأي حال إذا لم تكن أنطونيا أو أيّ اسم آخر هنا، أيّ اسم، إنه بهذا يتوافق مع المثل الشعبي «سمِّني جرّة ولكن لا تكسرني». يمكنه أن يزوّر الوثائق وأن يأخذها من أحد أصدقائه. في النهاية، هو معماري جيد، وهو يعاني منذ عدة سنوات لأنّه لا يجد عملا في مجال اختصاصه. ما الذي يهم كينان من الوثائق التي يمكن أن تتضمن أيّ اسم يعجب السيد باريتش وأصدقاءه، لكنه لن يتمكن من استخدام هذه الوثائق إذا كانت أنطونيا هنا. لم أوفق بالتكهن إذا ما كان التذاكي المتفائل لكينان عن الخروج المؤقت يصبح في سياق الأمور مثيرًا للضحك أو الإزعاج، كما لا يمكنني التكهن قبل ذلك: هل تزعجني أناقته أكثر أم يجذبني صفاؤه الرزين. لكنّ فكرته بأنه لا يمكنه أن يستعمل أمام زوجته وثائق مزورة، ويقدم اسمًا مزورا، بدت منطقية بشكل مطلق، وأنها الفرصة الحقيقية الوحيدة أمامه. هذا ما تصورناه أنا وكينان لكي نحاول ترتيب خروجين منفصلين له ولأنطونيا، لن يشكل ذلك لباريتش مشكلة كبيرة، وأما ما سنحصل عليه من صديقه من وثائق جيدة مع المعلومات التي نرغب بها، فإنها شيء عظيم بلا شك وتشجيع جدي لنا جميعًا.

خرجت من عند كينان وذهبت إلى دوبرافكو لكي نتبادل المعلومات ونتفق على الخطوات اللاحقة. تفاجأت بالغضب الذي اجتاح دوبرافكو وجعله في النهاية بمزاج سيئ بما فيه الكفاية. انفعل من تقريري، وبشكل خاص، أغضبه ما سمعه من حديثي لكينان واقتراحي المتضمن محاولة الخروج على دفعتين. كان ذلك الحديث بالنسبة لي طبيعيًّا، حتى إن ردّة فعل دوبرافكو هذه حذرتني من أن هناك أناسًا يمكنهم التعرف على كلّ ذلك، وأن يكتشفوا شيئا غير طبيعي.

استشاط دوبرافكو غضبا:

- يمكن أن يكون ذلك بالنسبة لأستاذ أدبٍ جيدًا جدًا.. لكن بالنسبة لرؤيتي، فإن هناك المزيد من الضغط النفسي الناجم عن كلّ ذلك. هذه الأشياء بأكملها تفوح منها رائحة كريهة، من نفس بائسة، تصعد إلى السماء.

راح يذرع غرفته الضيقة، وفي الحقيقة كان يقفز مثل المعتوه، ملوِّحا بيديه، معرضًا التركيبات السنيّة الجبسية التي لا عدّ لها التي كانت تزين الغرفة للسقوط والتحطم، وعددّ أمثلة عن الوفرة غير المحتملة للحالة النفسية في الوضع الذي كنا نواجهه، وفرة لدى رجل طبيعي على سبيل المثال على شاكلة دوبرافكو تؤدي إلى فكرة أنه لا يحيا في الواقع، وإنّما يعيش في عرض رديء لدراما كلاسيكية، أي أنه لا علاقة له بالناس، وإنّما بالممثلين المحليين، أو ربما ليس مع الممثلين، إذ إن الممثل المحلي

يصيح من الألم عندما تدقه بإبرة في رقبته، وإنّما مع عرضه للشخصيات التقليدية التي لا جسد لها ولا مشاعر ولا عقل. ما هو موجود هو اختلاف نفسي خفيف وحسب. عدد من الأمثلة فقط، وسيكون كلّ شيء واضحًا لك. العجوز التي لا تريد إنقاذ وليدتها لأنّ ذلك يمكن أن يفضي إلى العديد من الأسئلة حول عظام الصغيرة، والشاب الذي لا يقدر على إنقاذ رأسه إذا كان عليه أمام زوجته أن يحمل بيده وثيقة مزورة، ولكنه يرتضي كلّ شيء تحت رحمة الله إذا لم تكن زوجته هنا، والبروفيسورالذي لا يوضح لزوجته أن الناس الأحياء وحدهم من يمكنهم أن يحبوا أحدا ما، ولذلك يتحلّقون مشتتين حول أناس مجهولين، وكأن فيهم خلاصهم، وفي كلّ ذلك، أنا العبد الفقير دوبرافكو من عليه أن يركض هنا وهناك، ويتوسل سادة متعددين لقبول خدماته، وبناء على ذلك يمكن أن يسمحوا له بأن ينقذهم مما هم فيه.

- ولكن ألا ترى أنت كم هو كريه كلّ ذلك، وبلا ذوق، وغير لائق؟

غضب دوبرافكو، وعندما هدأ قليلا أشار بيده إلى النماذج السنيّة الجصّيّة التي ملأت الغرفة، وأوضح لي:

- منذ الثلاثين، أو الخامسة والثلاثين من العمر، ونحن نتعامل مع الترميمات النفسية. وهذا يُعمل حتى قبل أن نبدأ التعامل مع ما أقوم بعمله من هذه وتلك، مع أنهما ضروريتان في هذا الوقت من الحياة نفسها في أفضل فترة أو في فترة النضج. ولم تفهم سيدتك

تلك ذلك حتى اليوم بحق الله، لماذ لدينا عقل سليم بشكل عام؟ إنه موجود كي يمدنا بالمُرمِّمات الروحية وبهذا يخرجنا من الوضع الأخلاقي الملتوي؟ وأقول لك الحق: كم هو كريه أو دنيء، بالنسبة لي، الشاب الذي يحاول أن يدافع عن نذالته بالعقل، كما أكره الرجل الناضج الذي يزعم أنه بطل، ولا يرضى أن يكون مفهومًا. كلّ شيء في وقته.. إلهي! كلّ حقبة حياتية لها منطقها، وأخلاقها.

التقطت كلمات دوبرافكو الأخيرة، وقلت متفلسفا، على أمل أن القليل من التفلسف يمكن أن يهدئه:

- أعتقد أن لدي عددًا من الأفكار التي تؤكد بطريق غير مباشر نظريتك..

كان الناس في المناطق الحدودية زمن المحن الكبرى يصبحون حساسين من الناحية الأخلاقية أكثر من السابق، ولنقل أكثر أخلاقية بكثير ممن هم في الظروف الطبيعية؛ لأنّه لم يبق لهم شيء آخر. يفهم الناس في الظروف الطبيعية ويستعملون مالديهم- كما يقال - المرمّمات الأخلاقية لأنّ أمامهم خيارين، أو ثلاثة، أو خمسة، يختارون من بينها الأكثر راحة وفائدة بالنسبة لهم. وبسبب نقص الحوادث، نادرًا ما يكونون على أي حال في وضع أن يختاروا أيّ شيء فعليا. وفي مثل هذه الأوضاع

المأساوية لا خيار هناك، لا أحد يسألك، ولذا فإن الحساسية الأخلاقية تقوى.

ماذا ترى في ذلك؟

نظر إليّ دوبرافكو بانشداه وقال:

- أتسألني بشكل جدي؟
- نعم.. بالطبع
- لا شيء يا أخي.. طبعًا ليس لدي ما أقوله بهذا الشأن.. همّي همّ الناس، عزيزي البروفيسور.. همّي حساسيتهم الأخلاقية، وخياراتهم..

تحدث دوبرافكو بصوت أكثر علوًا وعنى هذا أنه يمكن أن يغضب ويلوح بيديه بشكل أسوأ مما كان قبل قليل، وأضاف:

- أنا أصنع تركيبات سنيّة اصطناعية وجسورًا وبقية الأشياء المتزنة، وأترك لكم علم النفس. ما يهمني في مجمل هذه القصة شيء واحد: أن أحصل على الدكتوراه، وأعود إلى هنا كي أحضّر لكم المرمِّمات. ويهمني أيضًا، أن أتوقف عن أن أكون مستعدًا لحل مشاكل الآخرين دوما، منتظرًا من الناس من أصحاب المشاعر الحساسة أن يسمحوا لي بأن أنقذهم. ويهمني أخيرًا: هل هناك أمل لصحتي الروحية بشكل عام إذا وافقت على كلّ ذلك، وها أنا كما ترى أوافق لبعض الوقت، وأنوي أن أوافق لفترة أخرى.

صاح دوبرافكو وغضب لأنّه كان غاضبًا على نفسه، وبشكل أقل على بقية العالم. وتحدثت أنا من هنا وهناك بعض الحكم العامة من قبيل أن من الضروري ترك كلّ شخص أن يذهب في حال سبيله، حتى ذهب إلى الشيطان، متصنعًا إجابته، وفي الحقيقة كنت أساعده فقط لتبديد غضبه بالصراخ. وعندما استنتجت أنني قد ساعدته في ذلك قدر استطاعتي، اعتذرت، وذهبت وأنا متأكد في أنه سيعمل قدر استطاعته، ذلك أن غضبه كان يُعبِّر بوضوح كبير عمّا هو ممكن. وكان قبل ذلك قد أقنع نفسه، على أي حال، بأن ذلك يصب في مصلحته، ولذلك فإنه يقوم به بمقتضى العقل الذي قد يخدم أشخاصًا غير مؤهلين أمثاله.

سوف يتحدث للمقربين منه بقصص عن قدراته العملية المجمّدة، ولكنه سيعمل بقدر استطاعته لكي يكسب باريتش للخيار الذي يمكن أن يناسبنا، أي تقسيم مجموعتنا على مرحلتين لتخرجا منفصلتين الواحدة عن الأخرى، وسيان إن كان ذلك في يوم واحد أو يومين.

سيان إن كنت سوف أردد أمام كينان، أثناء لقائنا اللاحق، بنبرة مؤنِّبة كلّ ملاحظات دوبرافكو وأفكاره عن علم النفس، وأصف له غضب دوبرافكو، وأنقل ملاحظاتي عن تكلّفه، وعن حجم مساعدة الآخرين التي ستقدم له.

صمت دوبرافكو بالطبع لكي تبدو لي تصرفاته منطقية. وبدا تصريحه بأنه لا يستطيع أن ينتحل أمام أنطونيا اسمًا آخر ووثائق مزورة أكثر وداعة،

أكثر من ما هو مضحك مع أناقته وتفاؤله. كان عليّ أن أكتم ذلك، لأنّ مثل هذا الاعتراف سينتقص الكثير من القناعة باتفاقياتي، وسيكون ذلك سببًا حقيقيًّا للشعور بالمرارة وكل ما عدا ذلك لا يعني كينان.

بيّن كينان بهدوء وإصرار أن رفضه المثول بطريقة خاطئة أمام أنطونيا ليس تكلفًا ولا طيشًا وإنّما قرار عملي بالمطلق تكمن أسبابه في حقيقة أنهما يحبّان بعضهما بعضا ويريدان الزواج.

قال كينان:

- لو كانت لديكم معرفة تقنية أكثر، ولو أنكم على سبيل المثال عملتم بالعمارة، لكنتم ستعرفون ما أفكر به...

الشيء الوحيد غير الواضح لدي هو كيف أن دوبرافكو ذاك لا يعرف مثل هذه الأمور البسيطة، على الرغم من أنه فني أسنان، وعليه أن يعرف أنه بهذا سيحدث شرخًا في هويتي - وآخر همي بالهوية كما يفهمها بعض الناس - في صورتها بداخلي ولأنها تبقيني منتعشا. كأن أحدًا غير مرئي، أو لنقل غائبًا علق بيننا، وأصبحنا نعيش في مثلث مثالي. صورتي في عيني زوجتي لا يمكن تجنبها ولا تُمحى، ويمكن أن تعكر الحقبة التي أنا فيها ولها، ليس لبقية العالم فحسب، وإنّما لشخص آخر، وهذا ليس أساسًا جيدًا لزواج سعيد. هل تفهم ذلك أيها البروفيسور؟ أنا أرغب فقط - أقول ذلك مازحًا - أن أبني زواجا رخيًّا، جيدًا، مستقرًا.

أعترف بأنني لم أفهم حججه، ولكنني فهمت أفكاره ومشاعره بشكل كامل. لا يمكنني أنا أيضًا أن أقدم نفسي باسم شخص آخر مهما أعوزتني الحجج العقلية التي سأبرر بها ذلك، ومهما بدا لي شخصيًّا من غير الواضح لماذا لا أستطيع. وعلى الرغم من ذلك لم أستطع الاعتراف بأنني لم أفهمه، ولكنني أتفق معه، ليس بسبب مهنتي التي لا تسمح لي بالموافقة على ما لا أفهمه. على أيّ حال، اتفقنا أن يذهب هذه الأيام إلى دوبرافكو لأنّ من الأسهل أن يتواصلا بشكل مباشر، وليس بواسطتي، ويستطيعان أن يتفقا على اسم مقبول وعلى بقية النقاط الضرورية للوثائق التي ستُستخرج في المدينة. وعندما يتم الاتفاق على كلّ ذلك سوف أقوم بحمل كل الوثائق وأذهب إلى الراهب ليوبو لكي أستخرج الوثيقة الإنقاذية الأساسية، وإلى حين ذلك فليهتموا جميعا بأنفسهم.

كنت طوال ذلك الوقت أنقل إلى سارة بالطبع كل ما يحدث وما يُتّخذ من تدابير وما يُخطط ويُرتّب له (ليغفر لي الله.. أتذكر الآن تلك الأيام بحزن خالص. لكم تجولت مثقلا بمشاكل الآخرين، لدرجة أنني لم أشعر بالحرب ولا بنفسي، منذ أول مرة وعيت بها نفسي كانت لدي مشاكل مع ذاتي).

كنت أخرج مع سارة حيثما يكون من الضروري تدخلي وحضورها، كنت ألتقيها كلّ يوم، إما في بيتها أو في بيتنا، كنت أقضي معها قسطًا جيدًا من النهار، وكان لدي الوقت الكافي لأن أتعرف عليها جيدًا، وأُعزز

الانطباعات الحسنة أو بالأحرى الحب الذي أكنّه لها منذ أول لحظة تعرفت فيها عليها.

زرت «دون لوك» في كنيسة القديس يوسف للمرة الثانية برفقة سارة. تعمدّت سارة في أبرشيته عام 1930، فتأملنا بناء على ذلك، أن يكون مستعدًا لاعطاء شهادة تعميد لأنطونيا. وكنا محقين في أملنا، فقد استقبلنا «دون لوك» بلطف، ووافق على تلبية طلبنا على الفور، مبينًا أن الصغيرة لا يجب أن تخرج إذا كانت تخاف إلى هذا الحدّ، فلتبق هي في مكان آمن فحسب، وسوف يمنحها شهادة تعميد على هذا النحو بناء على استدعاء شرعي من أمها المعمدة وشهادة مزدوجة لرغبتها في التعميد، وكان قبل ذلك عرض علينا أن ندخّن ونشرب مشروبا مركّزا وأن نشعل سيجارة. أثناء خروجنا عرض عليّ بأمانة أن يقوم بالشيء ذاته لزوجتي إذا ما نوينا الخروج من المدينة. شكرته من القلب، وأجبته أن مثل هذه الخدمة لم تعد ضرورية لنا الآن لأنّها ترفض مغادرة المدينة وتركي فيها، وأوضح «دون لوك» ردًا على ذلك أننا لا نستسيغ غرائب الحب، ولأجل ذلك لن نفهمه أبدًا.

كانت سارة عند خروجنا كأنها مسحورة وتدمدم: سعادة ثالثة.. سعادة ثالثة. ونطقت مقولتها بصوت عالٍ جدًّا حتى كان عليّ أن أسمعها وأصغي إليها طويلا، وتوجب عليّ ببساطة أن أسألها:

- ما الأمر.

أوضحت لي ذلك بحزم، قائلة:

- هذه هي المرة الثالثة التي أكون فيها سيرافينا فقط، لا شيء من ذلك في سارة، لكن سيرافينا هنا وهي هنا من أجل مجد أكبر للدولة. سيرافينا تلك مرئية تمامًا كما أنا، ومن خلالها، ومن خلال عدسة، وبعد التكبير، يمكن بوضوح رؤية الدولة، والحزب، والكنيسة. إنها مؤسسة القوة التي قرّرت بأن أكون بكلِّيتي في تلك اللحظة هي وحسب.

سألت مندهشًا: «ما السعادة التي تتحقق من كلّ ذلك؟».

- إنها المرة الثالثة في حياتي التي يحدث لي فيها ذلك، ولذلك آمل وأتمنى، أدعو وأتوسل أن يكون الأمر مفرحًا؛ لأنّني كنت في هذه المرة سيرافينا من أجل أنطونيا.

أوضحت سارة ذلك بتأنٍ، ومن دون شعور بالسعادة، أو بالأحرى من دون مشاعر. أعتقد بأن من أوحى لها بهذه الأفكار هو «دون لوك» الذي خاطبها طوال الوقت بـ«السيدة سيرافينا المحترمة رفيعة المقام». لكن، ومع أن الأمر كان كذلك في الحقيقة، فقد فهمت جزءًا واحدًا من القصة، أما الجزء الثاني والأهم فقد بقي مخفيًّا عني: لماذا كانت سارة حينها جافة؟ حملت بيدها الوثائق التي تخرج ابنتها من سراييفو، وبدا كلّ شيء آمنًا وحسنًا، وأن لديها كلّ أسباب الفرح. لكنها لم تفرح، ولم تكن أيضًا حزينة أوعصبية. كانت، ببساطة، جافة مثل شجرة في فصل الشتاء، تخلو

من أيّ شيء ما خلا القلق. هل حدست بما سيحدث؟ وهل كان ذلك سبب سحرها؟ من ذا الذي يمكنه أن يعرف؟

زرت في تلك الأيام، شقيقتي الممرضة في المركز الصحي في المدينة القديمة، لكي أسألها إن كان بإمكانها إعطائي دواءً يمكن أن يوقف ظهور التهابات متعددة عند زوجتي التي تداهمها الإنفلونزا مثل وحش كاسر.

أخبرتني شقيقتي بعد عمل اضطراري وحديث عائلي متوسط عن ظروف الحرب:

- إنني أعرف صديقتك الجديدة سارة، إنها إحدى مريضاتنا. سيدة جميلة جدًّا، لكنها وحيدة.

ثم أوضحت لي أنهم في المركز الصحي عرفوا عن سارة كلّ ما يمكن معرفته بالاستجوابات الخارجية (أوضحت: إنه مثلما يتم السؤال «عن بعد» لدى آخرين وليس عن من يجري فحصه) لإن سارة كانت بالنسبة للجميع ممتعة ومختلفة بشكل لافت عن كلّ من يأتون إلى المركز. وهي دائمًا لطيفة وصبورة وتحضر دائمًا بعض الأشياء الصغيرة للممرضة، وهي مستعدة دائمًا للتخلي عن دورها في الحالات الطارئة، وتميزت سارة بكل ذلك عن كلّ الجنس البشري الذي يمكن مصادفته في المركز الطبي في المدينة القديمة. أو في الحقيقة ليس ما تقوم به، وإنّما الطريقة التي تؤدي بها ذلك. لم تقدم لك الحلوى من أجل الخدمة الجيدة، وإنّما من أجل سعادتها وسعادتك، ولأنها تحب تقديم الهدايا للآخرين، لا تطلب

منك أن تشكرها إذا ما منحتك دورها، حتى إنها كانت تنزعج، وتبدي بعضًا من عدم الراحة إذا بادرت لشكرها. ذلك الصبر غير المرئي الوادع، النشط القوي، هو من هذا العالم تمامًا، رغم أنه لا يمت بصلة لناس هذه الأيام، وهذا ما يجعل سارة لافتة للأنظار.

ثم روت لي ما عرفوه عنها، وبالأخص تقرير الشرطة عن الشخص الذي كُتب على ملفه لدى الشرطة: موضع اهتمام!

***

ولدت سارة في واحدة من تلك العائلات التي كان يطلق عليها في البوسنة أصحاب حقائب السفر. والكلمة بوصفها مفهوما اجتماعيا أعطاها معناها، ظهرت في البوسنة مع الاحتلال النمساوي – المجري، وأطلقت باختصارعلى فئة عريضة من الناس الذين التحقوا بوظائف الدولة، أو ببعض الشركات الكبرى التي كان يوجد القليل منها تقريبًا في النمسا ذاتها في ذلك الزمن. وكان ينتمي إلى فئة أصحاب الحقائب كلّ الموظفين الحكوميين ممن يعملون في الإدارة، والجيش، والشرطة، والبريد، وسكة الحديد، وكانوا معًا مع عائلاتهم. وكذلك جميع العاملين في الأعمال المهنية في تعبيد الطرق وسكك الحديد وفي التنقيب عن ثروات المناجم، وإعداد دفاتر السجلات العقارية على الطريقة النمساوية، ومعظم العاملين في الصحة، والتعليم، وفي مهن حديثة كالتصوير على سبيل المثال، والمشرفون على بناء المباني الحكومية مثل

الثكنات، ومحطات القطار، وأبنية البريد وجزء كبير من تلك البنايات التي يقطنها أصحاب الحقائب. وكان منهم أيضا النساء والأطفال والعائلات، وأحيانًا خدم هؤلاء، أي كلّ الناس من الذين سخّروا مؤهلاتهم لممارسة بعض الأعمال لدى الدولة أو الشركات، الذين سخّروا أهم ما لديهم أو الشيء الوحيد الذي يملكون، أي أنهم الناس الذين يعيشون من الرواتب ويكونون تحت تصرف أولئك الذين يحصلون عليها منهم، ممن استأجروهم.

قيل عن أصحاب الحقائب إنه ليس لديهم جذور في البوسنة. أن يكون المرء بلا جذور في أحد الأمكنة يعني أن لا أحد سيفرِّق المكان أو يميّزه عن بقية الأمكنة المعروفة أو يراه بأي منظار. أن تكون بلا جذور في البوسنة كان يعني في تلك الأزمنة أنكم لا تملكون عقارًا ثابتًا ولا ذكريات ولا قبور، يعني إذن أنكم لا تفرقون بين البوسنة وبقية أقاليم الإمبراطورية الضخمة التي تخدمون أو ستخدمون فيها. أصحاب الحقائب أناس يمكن أن يضعوا كلّ ممتلكاتهم وكل ذكرياتهم في حقيبة لأنّهم أناس مأجورون، أناس تحت الطلب أو كما ذاع عنهم ذلك. لقد جاءوا من مكان ما إلى البوسنة يحملون معهم في حقائبهم ذكريات ومقتنيات وبقايا من ما يملكون ما خلا أهليتهم العملية، وعندما يريدهم صاحب العمل ليعملوا في مكان آخر أو في محلة ثانية، فإنهم سيضعون كل ما يملكون في الحقائب، ويذهبون إلى الجهة التي يأخذهم إليها عملهم. ولذلك من

المنطقي في الغالب أن تكون إقامتهم في البوسنة جلسة قرفصاء قرب الحقائب، وانتظارا للدعوة التي ستقودهم معًا مع تلك الحقائب إلى مكان آخر.

كان من المحتّم أن يكون هؤلاء الناس ممتعين جدًّا للبوسنيين. أتوا من مكان ما.. العصافير وحدها تعرف من أين أتوا إلى هذه البلاد التي لا يعرفون لغتها ولا عاداتها، أتوا من دون لغة وعادات، بالأحرى يأتون بلغة رسمية، وهي الشيء الوحيد الذي يملكون، مع تلك العادات الهزيلة، أي العادات التي يعرضها عليهم الناس الحديثون: أعياد الدولة، والطقوس العائلية. أو على الأقل الناس الحديثون الذين يملكون الدولة والعائلة، ولنقل إنهم جاءوا إلى سراييفو، واستقروا في البيت المقرر لهم في واحدة من تلك الشقق المتشابهة، في واحدة من بين الكثير من البنايات، في أحد الطوابق السكنية التي أعدتها الدولة لموظفيها (من تلك التي بناها أصحاب الحقائب لأصحاب حقائب آخرين). ثم أفرغوا حقائبهم، وبدأوا الحياة التي كانت تتأسس بشكل رئيس بأن يعمل الأزواج، ويذهب الأطفال إلى المدارس، وتعتني النسوة بأولئك وهؤلاء. لم يقدروا أن يقيموا صداقات هنا ويتعرفوا على المجتمع المحلي لأنّهم لم يعرفوا اللغة، ولم يتمكن الأطفال من الحصول على حق الرعاية في المدارس، لأنّهم لم يتمكنوا من تحقيق تواصل فعلي مع الأطفال الآخرين، والنساء لم يجدن طريقهن إلى النساء المحليات، وإلى الأسواق الشعبية، ولم

يتعلمن الطبخ الشعبي؛ لأنّهن لم يكن يعرفن لا اللغة ولا النباتات ولا تقاليد إعداد الطعام في هذه البلاد. الصداقات الوحيدة لهن كانت من بين أصحاب الحقائب من المناطق التي قدموا منها إذا وجدن أحدا يمكن قضاء وقت قصير معه خلال ما تبقى من وقت بعد العمل. وبالطبع فإن الرفقة بينهم لم تتطور إلى صداقة لأنّهم ظلوا رهن المزاج، ينتظرون إذنا أن تحزم حقائبهم وذكرياتهم المتعاظمة هذه المرة مع ذكرياتهم عن مدينة أخرى وعائلة رائعة أخرى يمكن أن تعقد صداقة معها، أو مع من عائلة لم يتمكنوا بالطبع من عقد صداقة معها.

من المحتم أن هؤلاء الناس كانوا ممتعين جدًّا بالنسبة للبوسنيين؛ لأنّهم كانوا بالنسبة للمجتمع البوسني التقليدي حداثة مطلقة، شيئا غير مألوف وغير مرئي بكل حيثياته، من لباسهم وأحذيتهم، إلى مظاهر الحياة اليومية ونظرتهم إلى العالم. بدأ مع هؤلاء الناس تحديث المجتمع البوسني، إذ كان هؤلاء الناس وحياتهم أول تماسّ للبوسنة مع العالم الحديث وحياته، ومن خلالهم تعرفت الثقافة البوسنية على العصر الحديث. وتعرفت إلى ذلك العصر من خلال الحقائب التي تحتوي على الخصائص الأساسية للعصر الحديث والحياة والحضور الإنساني. تعرفت الثقافة البوسنية على ذلك من خلال مجازية الحقيبة. ووفقًا لمسمى أصحاب الحقائب، يمكن أن يقال إن الحقيبة كانت سمة أساسية

للعالم الحديث ضمن معايشة تلك الفترة من الثقافة البوسنية، وكانت مجازًا تعبّرعن خصائصه الهامة وطريقة الوجود ذاتها فيه.

بدأت شقيقتي تقريرها عن سارة:

ولُدت سارة في إحدى العائلات التي جاءت إلى هنا بوصفها من أصحاب الحقائب، تأقلمت وتجذّرت مع مرور الوقت. تأقلم أهلها بسرعة كبيرة، وجاء جدها مباشرة بعد الاحتلال بصفته صاحب حقيبة، وكان جدها قد أصبح تاجرًا، وأصبح والدها من بعد تاجرًا مرموقًا، انتقل بدكانه من بوفاليتش إلى السوق وإلى بيت من كوفاتيشيتش إلى شارع كولوفيتش. كان الأب ناشطًا سياسيًّا، وكان مشهورًا في الحزب الفلاحي الكرواتي. ولذلك غضت الدولة الكرواتية المستقلة النظرعنه طوال فترة الحرب العالمية الثانية بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة لأنّهم لم يطاردوه ولم يتقبلوه بصفوفهم؛ مما مكنه من أن يواصل حياة هادئة وعملا تجاريا في جمهورية يوغسلافيا الثانية مثل العديد من القادة الهامشيين في مجال التبادل التجاري.

في جيل سارة تم التحفظ على لقب العائلة «كوهيك»؛ لأنّها وشقيقتها أنجلينا كانتا الطفلتين الوحيدتين لوالدهما. كانت أنجلينا تكبر سارة كثيرًا، ذهبت بعد تلك الحرب إلى زغرب لدراسة الاقتصاد، وحققت هناك مهارات رفيعة في التجارة الخارجية، وتزوجت من رجل فاضل،

وهو بصورة عامة من أولئك الناس الذين يمكن القول عنهم دائمًا: «ما داموا أحياء.. فحياتهم على ما يرام حتى الآن».

كانت سارة باعتبارها من أفضل طلاب جيلها قد أنهت دراسة الرياضيات والفيزياء، وفاجأت الجميع بعد ذلك عندما عملت معلمة في مدرسة ابتدائية في هريد.

عمق الصدمة التي أثارها عمل سارة لكل من حولها يمكن أن يفهمها وحده من يعرف كيف طغت الحاجة في تلك السنوات على الناس وشهاداتهم. نمت في تلك الفترة شركة إنيرجو إنفست بجنون، ووظفت كلّ من يعرف جدول الضرب، وعرضت على الناس الأذكياء مراكز عالمية أفضل من ذلك المركز الذي حصلت عليها شقيقتها في زغرب. ولما لم يكن يعنيها المركز، وإنّما العائلة التي بأكثريتها نسوية، فقد وجد هناك في المدارس المتوسطة مكان لأساتذة الرياضيات والفيزياء بقدر ما ترغب حرفيًّا. ويمكن أن يقال هنا إن سارة، وبينما هي تختار بين الجيد والأجود، اختارت هريد حيث لا يمكن للمرء أن يجوع فيها كثيرا، أو لنقل بالقدر الذي يمكن أن يؤدي إلى الموت جراء ذلك. وارتقت لاحقًا إلى معلمة في المدرسة الابتدائية إيليا قربتش في منطقة بسترك، وكان ذلك الارتقاء الوحيد في حياتها.

وبعد أن أصبحت فتاة متقدمة في السن بأعوامها الثلاثين تزوجت من معلم جغرافيا في مدرستها، أحد الأشخاص المنطوين الهادئين، وكان

أيضًا متقدمًا في السن، وربما اقترنت به لأنّه كان رجلا لطيف المعشر ومغمورًا. لم يكن يُعرف عن حياتهما الزوجية أيّ شيء مؤكد؛ لأنّه لم يكن لهما صديق عائلي، وقيل إنهما عاشا بانسجام، أي بدون نزاعات كبيرة. المشكلة الوحيدة، كما قيل، أنه كان سكيرًا من أحط الأنواع، من أولئك الذين يجلسون مساءً ويحتسون بهدوء زجاجة من عرق «الراكيا»، ويبقى يتقلب طوال الليل أثناء النوم متأوها، ومستفرغا أحيانًا. ولم يكن ليُعرَف بشكل مؤكد سبب إدمانه، لأنه لا أحد سمع سارة قط تشتكي من ذلك أو من شيء آخر. ولم يكن من الممكن أن تشتكي منه أو من أي شيء يخصّه. لم يكن ممكنًا الشكوى لديه من شيء آخر، لأنّه لم يكن هناك شيء آخر، كان المسكين مغمورًا تمامًا، لدرجة أنك لا يمكن أن تكون متأكدا أنه على قيد الحياة وأنك لا تراه فحسب، أم أنه قد مات فعلا.

ولدت لهما بعد بداية الزواج مباشرة ابنتهما أنطونيا التي لا تزال حتى اليوم تدرس العمارة، مع أنه كان من الضروري أن يكون لها سنوات دراسية منتظمة. كانت سارة أبًا وأمًا للصغيرة؛ لأنّ زوجها توفي قبل أن تذهب الصغيرة إلى المدرسة، مع أنه لم يكن من الضروري لوفاته أن تكون السبب الوحيد لذلك. ويمكن القول إن سارة كانت مجرد الأم الراعية أثناء وجوده وبغيابه. بعد عدة سنوات من وفاته حصلت سارة وصغيرتها على الشقة التي تقيمان فيها حاليا.

وقصة الشقة تبين- مثلما هي على كلّ حال الكثير من الأشياء الأخرى- أن سارة للأسف ليست في هذا الوارد تمامًا. امتلكت منذ البعيد الحق بشقة أفضل وأوسع، ولا أحد يعرف إذا ما كانت قد اشتكت يومًا ما من ذلك، أو قامت بأي عمل للحصول على شقة أفضل. ولم يكن يتوجب عليها أن تعمل أيّ شيء إذا ماحصل هناك كيت- وكيت، إذ كان بامكانها أن تنتقل إلى بيت والديها اللذين كانت تعتني بهما على أيّ حال، وكان هذا ما يتمنيانه، ويتبع ذلك الحق بشقتهم الجميلة جدًّا والضخمة وسط المدينة. وأرجو أن لا تنطلي علي حكاية التواضع، يمكنها أن تكون متواضعة بقدر ما تشاء، ولكنها أمّ وعليها أن تعمل بقدر كبير لأجل طفلتها، ومن المحرّم اليوم رعاية الطفل باستخفاف وتعليمه أن يحيا باستخفاف. تعتقد إحدى الطبيبات في مركزنا أن الصغيرة ما زالت تدرس طوال هذا الوقت بسبب التربية الخاطئة، إذ إنّ الأم لم تزرع فيها الطموح عن طريق التربية، وضرورة النجاح، وإثبات الذات، والجوع والارادة. عليك أن تزرع ذلك في الطفل اليوم، وإلا فإنك تدعه يصبح انعزاليًّا ويتهاوى في النهاية. وحسنًا – لنقل – إن موضوع الشقة والتربية أوضحا أنها أمّ سيئة، تربي طفلتها بطريق خطأ من أجل راحتها الذاتية، وصفاء حياتها، بدل المثابرة والكدِّ لتحقيق الأهداف والنجاح.

لكن هذا التوضيح- كما ترى- ليس صحيحًا ببساطة، أو ليس صحيحًا بالكامل. يمر علينا في المركز يوميًّا مئات من الناس من هريدا

ومن مناطق قريبة من هريدا وبستريك، ويمكننا أن نعرف من خلالهم الغرائب عن سارة. لا يحصى أولئك الذين احتضنتهم وساعدتهم وسعت جاهدة من أجلهم. في الصليب الأحمر يعرفون سارة ويخشونها أكثر مما يخشون فرق الرقابة؛ لأنّه لم تكن هناك أهلية البتة عند من يلوذون بها. لا يقوم بمثل هذه الأشياء من يريد أن يتفاخر بتسامحه، وهيهات أن يوضح لي أحدهم ذلك. لم تكن هي متساهلة، وليست من أولئك الذين تكون السعادة هي الشيء الرئيس في حياتهم، وهذا ما يلاحظ عليها، وهو ما يتضح من النظرة الأولى. وهي ليست غير مؤهلة، إذ تعرف كيف تبدي التمكن والجدارة عندما يتعلق الأمر بالآخرين. ولماذا لا تكون غير متمكنة وغير جديرة عندما يتعلق الأمر بها؟ كيف يمكن تفسير إخفاقها في كلّ الخطط الحياتية؟

أنهت شقيقتي تقريرها عن سارة. سألت:

- كيف تفسر هي ذلك، أو من هم في المركز؟

الجواب القاطع أن حالتها العامة ليست على ما يرام، وقد قدّم هذا الجواب أنواعًا متنوعة من الحكمة لتفسير كلّ شيء من الخارج وخصوصًا اليوم، إذ تَقدّم علم النفس بقدر كبير، وجميع الناس الأحياء هم مرضى نفسيون ماعدا المشتغلين بعلم النفس. ويمكن تبرير بناء الشقق وإدارة الأعمال وتربية الأطفال، والأطفال أنفسهم بهذا أو ذاك. ولكن كيف يمكن تبرير وفهم وتوضيح واستيعاب زواجها؟ أنا امرأة لا

حاجة لي بأحد أن يتذاكى عليّ. لا توجد حكمة تقنعني بأن امرأة طبيعية تتزوج من رجل هو الأكثر إثارة للملل وانحدارًا من محيطها إذا كان بمقدورها الاختيار. وكان يمكن لسارة أن تختار: ليست هي إحدى الجميلات الفاتنات، ولكنها كانت وبقيت امرأة جذّابة بشكل ظاهر للعيان، من بين أولئك النسوة اللائي بإمكانهن اختيار الزوج، وقد ظلّ الجمال بادٍ عليها حتى يومنا هذا. ولذلك أؤكد بأن الأمر يتعلق بعقلها. إذ إنها شخصية لامعة من كلّ زاويا النظر، ورائعة. لكنَّ هذا.. عقاب تلقائي لها.. أتفهم؟ سمعت عن مثل هؤلاء ممن يحببن الألم، ولكنني فكرت، ولم أكن لأفكر بهذا.

التقيت سارة في اليوم نفسه، ولكنني بالطبع كتمت عنها التقرير، ونقلت لها تحيات شقيقتي فحسب، وقلت إن الجميع في المركز يتحدثون عنها بأعذب الكلام. لم تكن سارة مصدومة، مع أن ذلك كان يسعدها، كانت مندهشة بشكل كبير جدًّا من الأحداث الكبرى التي كنا سنصادفها، والآمال الكبرى التي كانت ستدمّر صغائر الأمور من مثل الأفكار الحسنة عنها. تطورت أمورنا بشكل جيد جدًّا، كنا قد حصلنا على شهادة تعميد لأنطونيا ودوبرافكو، وحصلنا على وعد قاطع وموثوق تمامًا أن نحصل على شهادة لكينان أيضًا، ولدينا شخص يعمل بشكل جيد تمامًا، ولدينا أوراق موثوقة له. كان باريتش يقف بحزم حتى الآن خلف وعوده ويكرّر أن من الضروري أن تكون جميع الأمور قريبًا جاهزة لخروج أول اثنين،

وستكون الأمورعلى ما يرام بالتأكيد بالنسبة للثالث، وربما في اليوم نفسه. كانت أنطونيا قد أكملت حزم أمتعها، وبالأحرى اختارت، وعملت خيارات واسعة بين ما يشق عليها تركه، وقررت أن تعمل الخيار الحقيقي قبل الخروج. وبسبب الدهشة والأمل، وسعادتها بسبب كينان، عاد لوجهها بعض لونه، حمرة عميقة رائعة لا تكاد تُرى، وأصبحت جراء ذلك جميلة، أجمل مما كانته أبدًا، ولا يمكنك النظر إليها.

كانت سارة منيرة بنظراتها الجميلة جدًّا، بخروج أنطونيا الفعلي مع كينان والحب، لم تخش سارة الوحدة التي تبدت بوضوح كمصير قريب لها. فهي قبل الظهر في المدرسة، ولديها التلاميذ وأهاليهم، وتجد دائمًا ما يشغلها لفترة ما بعد الظهر، ويمكنها زيارتنا أحيانًا (وقبل كلّ شيء بدت مميزة أمام زوجتي)، وأن تساعد في المركز الصحي إذا بقي الناس يفكرون بها بشكل حسن، هنالك العديد من الإمكانيات لأن يكون المرء فاعلا وضروريًّا. فرحت وثرثرت وحاكت الخطط، كانت رائعة، وكانت -وأكرر هنا كلماتها- جميلة، جميلة أكثر مما كانت من قبل، وكان من دواعي السرور النظر إليها.

مجيء سيرافينا

كما هي الحال عادة، جاءت الضربة من حيث لا يحتسب، وكانت مؤلمة لأعلى حد. بعد يوم واحد من فترة ما بعد الظهر التي كانت فيها سارة في بيتنا، وأثناء ما كانت سعيدة ومشرقة بشكل ما، عندما زيّنت يومي بأملها، بحث عني كينان في وقت مبكر من فترة ما قبل الظهر، وكان مستثارًا تقريبًا، ومقطب الجبين كثيرًا. داهم بيت صديقه الذي يقوم بتجهيز الوثائق، في الليلة الماضية شباب ينتمون لواحدة من جماعات المتطوعين الذين يدافعون عن المدينة. هل أمسكوه قبل العمل؟ هل جاءوا على أساس وشاية فذهبوا لتفتيش المنزل فوجدوا مادة مشبوهة؟ هل توجهوا بشكل عشوائي لمداهمة البيوت بحثًا عن رفاق محتملين؟ هذا ما لم ينجح كينان في معرفته. وعلى كلّ حال، وجد الشباب أكوامًا من الاستمارات ووثائق السفر اليوغسلافية، الكثير من الوثائق في عدة مراحل من التحضير، وأوضحوا لصديق كينان أن أموره سيئة جدًّا. ليس لأنّه يزوّر وثائق، ومن الممكن أشياء أخرى متنوعة، وإنّما لأنّه يحفر تحت استحكامات دفاع المدينة لإخراج الملتزمين بالخدمة العسكرية، والله يعرف ما يمكن اكتشافه إذا ما تم الحفر من حوله بقليل من الجدية. وسوف يحفرون بالطبع، إلا في حال أن انضم اليهم، حينئذ لن يحفروا لأنّ لا أحد أحمق يحفر ضد رفيقه في الحرب. وهكذا تعرّف صديق كينان

بنفسه على المتطوعين وأبقى كينان من دون وثائق. وما علاقة الوثائق المزورة بحق الله اليوم، وهنا في المدينة التي يقتل فيها الناس كما لو أنهم ورود من ورق؟ هل هو طبيعي بشكل عام؟ كيف كان بإمكانه أن يرتضي مثل هذه التقديرات الظاهرة؟ لا.. مثل هذا الكلام الفارغ يمكن أن يحدث لي فعلا. وثائق دولة ما لم تعد موجودة، ومن أجل ذلك لا يمكنني الخروج، وهذا يدمّرك.

لم أستمع لكل ما كان كينان يود قوله عن مصيره المحزن، وإنّما دعوته أن يتبعني ويسارع إلى دوبرافكو. لا بد من إطلاعه بسرعة على المشكلة التي وقعت، أولا، لأنّه يمكن أن يساعد في حل المشكلة (ألم يعرض عليّ حل مشكلة الوثائق إذا ما قررت الخروج)، وثانيًا، لأنّ ذلك كان من المحتمل أن يعني تدخلا جديدًا لدى عالي المقام باريتش واتفاقًا جديدًا معه، ووحده دوبرافكو بيننا من يمكنه ذلك.

وجدنا دوبرافكو في مكتبه في الكلية مبللا بعرقه ومتوترًا، وكان قد عاد للتو من لقاء سارة ويستعد للقائي. أبلغه باريتش عن طريق أحد الجنود أن الخروج قد تحدد يوم بعد غد دون تأجيل، مع عدم إمكانية إضافة أشخاص جدد، أو إحداث أي تغيير، ودون الحضور في سيارات ثمينة. وإذا لم يتمكن المساعد في أن يكون معه بعد غد فإن الفرص ضعيفة أن يتمكن باريتش من مساعدته؛ لأنّه بعد أيام قليلة سيغادر هذا المكان، وربما ستكون هناك في القريب العاجل تغييرات جدية على الوضع على

خطوط النار. (كان كينان هو المساعد في توصية باريتش. وكان دوبرافكو، بالأحرى، قد كذب على باريتش مدعيا أن الأمر يتعلق بشاب من عائلة كرواتية اختير معيدًا في كلية الطب في زغرب).

ما أن سمع دوبرافكو بتوصية باريتش، حتى قرّر كينان أن يعتذر منا، وأن يذهب إلى أنطونيا لقضاء هذا الوقت القصير معها ومساعدتها إذا أمكنه ذلك. بقيتُ عند دوبرافكو، وحدثته عن حادثة صديق كينان، وأوضح لي أنه لا يوجد لديه أحد يمكنه أن يُعدّ الوثائق بناءً على الطلب، وعندما عرض عليّ مساعدته كان الأمر يتعلق باستعداده أن يحاول جهده حول هذا الأمر. فتحنا أذرعنا وهززنا أكتافنا، واستنتجنا أن الأمر أصبح متأخرًا لعمل أيّ شيء على أيّ حال، وبهذا يكون موضوع كينان قد قضي على الأقل بالنسبة لنا نحن الاثنين. ثم ذهبنا إلى قريبي البروفيسور في كلية طب الأسنان ودخلنا الباب الثالث المجاور لدوبرافكو لنرى إن كان هناك ما يمكن شربه، أو على الأقل تدخين سيجارة.

أثار مثل هذا التطور لجهودنا الكبيرة هانيا بأقل مما كنت أنتظر. قالت: لا يمكنك أنت حماية أحد من طبيعته الذاتية. وكان ذلك هو التعليق الوحيد على تقريري الموسّع. تركتني أتكهن لمن كانت ترسل عبارتها وبمن كانت تتعلق ملاحظتها، أتنصحني بالأحرى أن أرفع يدي عن سارة التي ليس لها من معين، أم أنها توجه سارة أن تترك أنطونيا بحالها وهي التي مثل أيّ شخص آخر لا يمكن مساعدتها ضد طبيعتها. وعلى كلّ حال

ومهما فكرت، لا أوافق، أيّ أن هناك شيئا يمكن ملاحظته. (يحدث لي في كثير من الأحيان أن أرى كيف أن مبدأً صحيحًا يعرض عن طريق الخطأ بعض الحالات الواقعية، ولذلك غالبًا ما أختلف مع هانيا، التي تكون من حيث المبدأ دائمًا على حق). هي على حق مبدئيًّا، ولكن ليس عندما يتعلق الأمر بسارة، وكذلك في حالتي، فإن ذلك المبدأ الصحيح لا يناسب الحقيقة. أردت أن أقول لها ذلك، وأن أرجوها بعد ذلك أن تحاول قليلا توضيح ما تفكر به بشكل أفضل.

لم أتمكن من أن أسأل، ولا أن ألاحظ أو أن أقترح؛ لأنّ الضربات تردد صداها على بوابة المدخل. كانت سارة قد جاءت لتدعوني إلى بيتها في الغد لغداء وداعي أعدته لأنطونيا. وكانت أثناء الدعوة عالية النبرة تحدق بي، وتخاطبني بصيغة المفرد «أنت» عوضا عن صيغة الجمع «أنتم» للمرّة الأولى، وربما لكي لا يكون هناك سوء تفاهم حول المدعوين المحتملين. قبلت هانيا الدعوة باسمي وبسرعة (لأول مرة خلال سنواتنا الاثنتي والعشرين يتحدث أحدنا نيابة عن الآخر)، ثم عرضت على سارة أن تبقى لتناول طعام الغداء. لا أعرف إذا ما كان ذلك قد تطلب منها بعض الجهد الخاص! (بالنسبة لي لقد تطلب الأمر ذلك الجهد بلا شك) لكنه أوحى إليّ بذلك، لأنّ نبرة الصوت قبل ذلك بدت طبيعية تمامًا، كما بدا طبيعي تمامًا أن سارة حتى الآن لم تُلق التحية، أو كأن زوجتي لم تلاحظ ذلك. قبلت سارة الدعوة دون تردد منحيّة حتى

ذلك الحرج الذي يجبر الداعي أن يكرّر دعوته عدة مرات، وذلك التكلف الذي كان لدى سارة، مثلما هو لدى كلّ الكبار في بلادنا الذين يعتقدون بأن التصرف على هذا النحو ليس بذلك القدر من الرقي، بقدر ماهو علامة على حسن التربية، ولم تتوقف هي عن ذلك في أيّ مناسبة.

أوضحت سارة أنها تمنت بالسر مثل هذه الدعوة؛ لأنّها بحاجة إليها، بغياب تام، ومن دون أيّ ترابط فيما تقول (حتى يمكنني القول بدون وعي واضح عن ذلك)، وأنها بحاجة ماسّة أن تبقى عندنا أطول فترة ممكنة. إنها بحاجة في الحقيقة أن تبتعد عن بيتها. ولم يخطر ببالها شيء أكثر ذكاءً من أن تنضم إلينا. كان عليها أن تبتعد حتى يتمكن ذانيك المسكينان من المغادرة كما ينبغي، وهذا يحدث فقط عندما لا يكون أحد أمام أعينهما.

ما أن علم كينان بكل شيء حتى جاء للمساعدة في حزم الأمتعة، وعندها، ومنذ أن حضر جلس على أريكة أنطونيا. جلس هو وأنطونيا هكذا أثناء ما كانت سارة ترثي لحالها وحاله، جلسا على هذا النحو عندما فهمت سارة بأن عليها المغادرة، وعندما قررت أن تترجم ذلك إلى فعل. لم يجيبا عندما أخبرتهما بأنها لن تعود قبل المغيب، لم يردّا على تحيتها، ومن المحتمل ربما أنهما لم يلحظا لا الخروج ولا الخبر ولا السلام. يجلسان ممسكين بأيدي بعضهما البعض، محاطين بما خاطته أنطونيا ورتبته من حولها من أشياء هامة لحملها. ولما لم أكن أرغب في إزعاجهما، فقد ذهبت، لا يمكنني احتمال إلقاء نظرة عليهما، لم يكن

بمستطاع أحد أن ينظر إليهما طويلا باعتبارهما شابين جيدين ضائعين، لا يمكن للغريب أن يحتمل ذلك، فكيف للأم التي تعرف جيدًا ما الذي سيحيط بهما لاحقًا.

جلسنا في غرفة المعيشة التي أقيم فيها فرن ثمين بسبب مدخنته الفاخرة. كان الفرن يجعل الجو حارا حد الجنون، ويزيد في ذلك حرارة الجو في الخارج، إذ كان نصف الجيران يعدون خبزهم فيه. شربنا ما أردنا الاقتناع بأنه قهوة (منذ عشرة أيام ونحن نحتسي القهوة في الصباح فقط عندما تكون ضرورية بوصفتها علاجا، ومن أجل الإبقاء على الاحتياطي المتواضع الذي كان لدينا، ومن أجل الطقس العائلي في فترة ما بعد الظهر الذي نضع له منذ سنوات حدودًا ذهنية بين بيتنا والعالم، ذلك الطقس الذي عند معايشته نفصل إقامتنا في داخل البيت، عن الإقامة في العالم الخارجي، واستعملنا لهذا الطقس الكاكا، بحيث جعلنا من الكاكاو قهوة لضرورات الطقس، وتعاملنا معه على أنه قهوة). وحاولنا أن نمضي للنهاية في فصل جزء من النهار عن ذلك الذي كنا مجبرين على أن نقضيه في الخارج.

أزاحت سارة الكاكاو المقدم إليها وجلست بيننا وصمتت لبعض الوقت، وبدأت من ثَمّ مونولوجها عن المسكينين وحاجتها للأمان. ومن المحتمل أنها ارتبكت، ولم تعرف ماذا تفعل، فسارعت إلى التقاط السيجارة التي كنت قد لففتها لها وأبقتها بين أصابعها دون إشعال،

وكانت تحملها من وقت لآخر بين شفتيها، وتشد نفساً كأنها تدخن. سكبنا أنا وهانيا الكاكاو من ركوة القهوة في الفناجين، احتسينا، ودخّنا، ووفقنا للحظة من التأكد بأن الكاكاو مع السيجارة هو شيء جيد، واستمعنا إلى سارة التي تحدثت كثيرا بجمل مشتتة ومجتزأة، دون حاجة لجواب، ومن المحتمل دون حاجة لمستمع.

عندما فرغنا من شرب الكاكاو سألَتْ هانيا بشكل عملي واضح وربما أقول ببرود تام، هل يمكنها مساعدتها في إعداد الغداء وبقية الأشياء، وكانت تلك رسالة واضحة لي بأن أنطلق لغرفتي. ولاحقًا، وللمرة الثانية، اتيحت لي الفرصة، لوقت قصير، أن أشارك السيدتين الجلسة أثناء الغداء الذي تم تحضيره في أجواء صمّاء شديدة الغباء في بيتنا، وأنا لا أعرف ولا أحتمل (نحن لا نبدّل اللطف الموضوعي غير المجامل، الذي يتحدث به كلّ الناس بالطريقة نفسها، دون الأخذ في الاعتبار من يخاطبون، ويتفاعل ذلك التواصل بشكل رائع، لأنّه لا يكلف جهدًا، ولا يلزم بشيء، ولذلك لا يتم الحديث في بلادنا على هذا النحو)، ولذلك يمكنني القول إنني في الحقيقة لم أتناول الطعام وإنّما تغذّيت. وذهبت بعد ذلك ثانية إلى غرفتي.

وفي تمام الساعة التاسعة عندما أعتمت السماء على نطاق واسع، دعتني هانيا كي نرافق سارة إلى البيت. ذهبنا بهدوء صامتين وبسرعة كبيرة، مع أن الوقت كان متأخرًا، والرؤية ضعيفة، ولم يكن هناك داع كبير

للخوف من القناصة. ربما لم نكن نطيق بعضنا البعض، ربما قالتا الواحدة للأخرى كلّ ما لديها، ولم يكن هناك على أيّ حال ما يمكن أن تتحدثا به معي على الفور بعد حديثهما. وعدا ذلك، فنحن لسنا متساوين لأنّنا أنا و–هانيا– كنا طرفا، وبقيت سارة وحيدة. وسيكون من الغباء والنفاق الزعم أن الأمر على غير ذلك، وسيكون الإفصاح عن ذلك قاسيًّا، وبلا معنى. وحده الصمت ما مكنّا أن نكون معًا بأقصر وقت ممكن.

في شارع توماشا ماساريكا، الذي ينعطف تجاه بنايتها، لفتت سارة انتباهي للمرة الثانية أن نلتقي في بيتها في الساعة الرابعة من بعد ظهر الغد. ثم مدت يدها لزوجتي دون أن تنبس بكلمة، صافحتها لوقت قصير، ثم استدارت ومضت. كانت تخطو إلى حد ما بصعوبة، ولكن بسرعة إلى أن اختفت سريعا في العتمة، وعلى كلّ حال كان من الصعب جدًّا أن نعرف إذا ما كانت قد مضت إلى بيتها أم لا.

ومضينا نحن الاثنين بصمت نحو البيت. ليس لأنّنا لم نجد ما نتحدث به، ولكن تهيأ لنا، ربما، أنه من غير اللائق الحديث عن سارة التي كانت من أقرب المواضيع لدينا في تلك اللحظة. وعدا ذلك بدرت من طرف هانيا إيماءات سلبية، في الحقيقة، بدت سيئة بشكل واضح إلى حد ما، وكان عليّ تقبلها كما لو أن ابنتي تغادر بعد غد، أو كما لو أنني لم أدعها محتفيا على الغداء. وهذا ما قلته لها في ما بعد، فابتسمت لوهلة، ولوحت بيدها، وقالت إن الأمر ليس كذلك، وإنها لم تكن غاضبة من سارة ولو

قليلا، بل على عكس ذلك. ولكنها تراجعت عن الإسهاب في التوضيح، الذي بدا أيضًا غير معتاد بالنسبة لها، فوصلنا البيت صامتين.

وعندما دخلنا شقتنا، وأثناء إغلاقي الباب، صرختْ أن ذلك الكينان بالنسبة لها ليس كما يرام، ثم تحدثتْ بصوت أعلى موضحة: «عليك، إذا كنت متأكدًا تمامًا، أن تخبره بما يتوجب عليه إزاء تلك المرأة.. زوجته، وأن يتمسك بها وأن لا يبعدها عن نفسه»، ثم استنتجت وهي منهكة ومن غير اقتناع خاص: «ينبغي أن تقاتل من أجل ما تعتقده مؤكدًا.. عليك أن تقاتل إذا كنت كامل الرجولة.. وعليك كي تكون كامل الرجولة....» ثم انطلقت إلى غرفتها دون تحية.

***

كنا على غداء الوداع لدى سارة أربعتنا فقط: أنطونيا، ودوبرافكو، وأنا وسارة. غادر كينان عند الظهر معتذرا بأن عليه أن يترك لأنطونيا فسحة من الوقت كي تحزم أمتعتها، ومن المحتمل في الحقيقة بسبب أن الوداع لم يعد يُحتمل، وأنه لا يجوز إطالته من الناحية العملية، إذ إن الوداع حاصل، سواء الأن أو بعد وقت ولن يكون هناك تراجع عن القرار. فكرتي هذه لم أعلنها لأحد بالطبع، لأنّ ذلك سيكون غير لائق تمامًا، ولكنني أفكر الآن أن ما دفعه للخروج هو حالة عملية فنية خالصة، إذ لا يمكن سحبهما الاثنين وتكون عملية الوداع عبر حدودٍ ما. حتى السكرتيرة في مدرسة سارة، وهي أفضل صديقاتها في الآن نفسه، كان من المفترض أن تحضر

مع زوجها، إلا أنها لم تأت؛ لأنّ ابنها جرح قبل ليلة البارحة في منجم الذهب، وهي وزوجها في المستشفى العسكري منذ الصباح الباكر.

أعدت سارة طبقا من الفاصولياء صغيرة الحبة- «البوبا»، ولسبب غير معروف لدي تمامًا يسمى «البوبا» في البوسنة «الفول»، وكان شديد الكثافة مخلوطًا مع المعكرونة التي أخذت بعض كثافته، فأخذا من تلقاء ذاتهما طعمًا جيّدًا جدًّا لا يضاهي، وأفضل من الطعم المعتاد والحيادي للمعكرونة. علما بأن الفاصولياء عند تحضيرها وحدها على الطريقة البوسنية، أو مع التوابل الكثيرة، كانت أفضل فاصولياء أتذوقها في الحياة. وفي المجمل قدّمت لنا سارة إذن تشكيلة من النكهات الاستثنائية ربما بسبب المصيبة (لنقل لأنّها لم تملك فاصولياء كافية لسبعة أشخاص لم تتوقع حضورهم دفعة واحدة)، وربما لأنّها عرفت بطريقة ما كيف تكون خلطة الفاصولياء مع المعكرونة جيدة. وأحضرت بالإضافة لذلك الكعك الذي كان ما زال ساخنًا، وكانت قد حضّرت عجينته في الصباح، وقامت، عندما حان دورها، بخَبزه بعد الظهر في الفرن الواقع في الكراج أسفل البناية، الذي كان سكان العمارة بأكملهم يستعملونه. في النصف الثاني من شهر آب، وعند نهاية الشهر الخامس من الحصار المحكم، فإن وضع الفاصولياء ذات الحبة الصغيرة على الطاولة محاطة ببعض المقبلات القليلة، أعطى ربة المنزل حق أن تكون فخورة إذا ما قدمت لضيوفها مثل هذا الطعام الجيد والشهي، بل لها الحق حتى لو قدّمت

ذلك في أفضل الأوقات. وبقدرٍ ما كنت أنتظر أن ألاحظ الفخر ذاته، إذ إن الناس ممن هم على شاكلتها نادرًا ما يكونون فخورين لأنّ لديهم مقدارًا عاليًا من النقد الذاتي، ولكن، في الوقت نفسه، لديهم القليل من الرضا عن أنفسهم.

لم نستطع، نحن الذين تحلقنا على الطاولة، أن نلاحظ أيّ أثر من اعتزاز ورضا ذاتي على سارة، ولا أيّ إيماءات واعية عن أنها تضع على الطاولة شيئًا خاصًا لم يكن بالطريقة التي حضّرته بها، أو أيّ أثر لامرأة قوية يغشى تعبيراتها وحركاتها، ولا أي شيء يخصها. الإنسان الذي يحبها (وكنت أنا في تلك اللحظة قد عرفتها جيدًا بلا شك وأحببتها لذلك بقوة لأنّه تهيأ لي أنه من المستحيل أن تتعرف إليها ولا تحبها) لابد أن يتملكه الخوف عند النظر إلى المرأة التي قدمت لنا الغداء، والطريقة التي أعدته بها. لا يمكن لأحد أن يقول إن سارة التي حملت الصحون ووزعتها على المائدة، ووزعت الخبز، وسكبت الفاصولياء، وتحركت في أنحاء المطبخ وحول الطاولة، قامت بكل ذلك مثل الآلة، لأنّ للآلة أيضا نوعا من الحضور، لكن سارة بسلوكها أثناء تناول الغداء كانت مجرد غياب. إضافة إلى أنه لم يكن هناك أي أثر لتلك الدقة المخيفة من إحدى الآلات التي يعزى لها السبب في أن العقل الميكانيكي يتفوق بشكل واضح على البشر .

بعد تفكير طويل، وتأمّل عند دولاب صيانة المطبخ أحضرت سارة إلى الطاولة أربعة صحون، وأثناء التوزيع وضعت أمام دوبرافكو صحنين بشكل لافت، أو كانت بالأحرى تتسلى، وعندها اكتشفت أنه لم يعد لها صحن. عرض دوبرافكو بلطف أن يساعدها، لكنها رفضت بحركة من رأسها، وعندما عرضت أنا المساعدة صرخت في وجهي أيضًا، وكأنني ابن زوجها، مع تعليق بأنها لا تسمح لي بذلك، ولا لزوجتي، ولماذا لا تكون هي. وبعد تلك البداية، وعندما بدت سارة غريبة الأطوار بدون روح، مذكّرة كثيرًا بالآلة، انخفضت المشاكل والأخطاء والجمود التي ميزت إنسانيتها المثيرة. وهكذا على سبيل المثال ذهبت سارة إلى الجيران الذين لديهم الغاز بوعاء من الفاصولياء، وبعد ذلك في منتصف الطريق بين باب المطبخ والطاولة وقفت تحمل وعاء مملوءا بيديها، وقفت على هذا النحو وكأنها تسأل ما الأمر، وإلى أين أتوجه، وأين أنا الآن بشكل عام. أو تبدأ بالسكب من الوعاء في صحوننا (أرادت إلزاميًّا أن تخدم كلّ واحد منا بشكل خاص، لم ترض الحديث عن أن يقوم كلّ واحد بالسكب لنفسه). ثم تنظر إلى القليل الذي لدي، مع أنها كانت قد زادته. وهكذا دواليك، ارتكبت العديد من الأخطاء الصغيرة والغبية، وكانت تتوقف لتتذكر ما بدأت بعمله. إلا أن كلّ ذلك، ومارافقه من الكثير من النرفزة ونفاد الصبر، مع عدوانية مضمرة تجاه الجميع،

وبالأخص تجاه دوبرافكو، دعاني أن أسأل نفسي عدة مرات إن كنا هنا مدعوين أم أننا اقتحمنا هذا البيت الطاهر عنوة.

كانت هناك مبالغة كبيرة في إهانتي بالطبع، وعنت الكثير والمزيد من ردة فعلي على حالة سارة وتصرفاتها. ولم يكن هناك شيء شخصي في كل ما فعلته سارة، ولم يكن كذلك أيّ أثر حتى لما يخصها، ولا حتى في عدوانيتها، لذلك ربما كان الأمر بالفعل مِضًّا ومنفرًا. ويمكنني أن أقول بشكل تام إنه لم يكن هناك شيء إنساني في الأمر كله. كأن كلّ ذلك جرى لمصلحة شخص آخر. هكذا تفاعلت سارة مع الأمر، وكأن شخصا بعيدا غير مكترث، مستمتعًا بأعماله يدير جسد سارة الأجوف عندما يكون هناك وقت ليفكر بها، وهو على سبيل المثال يتذكر سارة، ويطلب منها إحضار حلّة من الفاصولياء من عند الجيران الذين طبختها لديهم، ثم يجلس ليتسلى بعد ذلك بالحديث حول أعماله وينسى سارة عندما كانت على بعد خطوتين من الطاولة في مطبخها، فتجمد في منتصف الخطوة، وتقف هكذا متخشبة مثل دمية إلى أن يتذكرها ثانية وهو بعيد وغير مكترث كما هو في حقيقة أمره. وعندما يتذكرها ثانية يمضي، وتمضي سارة بسكب الفصولياء في صحوننا. هناك مقطع في القرآن يقول إن كلّ شيء موجود بفضل مشيئة الله، أو، بالأحرى، لأنّ نظراته تحيط بكل شيء، فعندما يلقي نظرته ولو على آلاف الأجزاء من لحظة ما، فإن ذلك الشيء يتلاشى. تذكرت ذلك المقطع وأنا أنظر إلى سارة، لكن ما تلاشى

لديها هو جوّانيتها. هكذا بدا الأمر تقريبًا، وعلى أيّ حال فإن هذا النوع من البشاعة المقززة هو ما غشى تصرفات سارة، تلك التصرفات التي جعلت غداءنا غير مريح رغم أننا بدأناه بمزاج آخر.

وعندما أصبح أمام كل واحد منّا صحن مليء وقطعة خبز إلى جانبه، أخذت سارة مكانها قبالة النافذة، وكان علينا أن نبدأ بتناول الطعام. وفي الحقيقة، كان من الممكن القول إن الغداء قد بدأ، ما خلا أننا لم نتمكن من تناول الطعام؛ لأنه لا سارة ولا أنطونيا، مددن أيديهن له، ولم نقدر، لا أنا ولا دوبرافكو، أن نقبل أن نكون أول من يأكل في بيت غريب. حدقت أنطونيا ببلادة في الجدار المقابل على بعد متر ونصف من رأس دوبرافكو، ومسحت بإصرار بالمنديل الذي كانت تحمله بيدها اليمنى، وجهها الأبيض، بعينيه الواسعتين الحمراوين والدوائر الغامقة حولهما، غير آبهة بالعالم من حولها، إلى أن جلست والدتها في مكانها، فأخذت الملعقة، وبعد ذلك أدركت وهي ذاهلة عن المكان الذي هي فيه وعن ما كانت تنويه (وكأن ذلك البعيد اللامبالي الذي يديرها في تلك اللحظة قد غفل عنها). وعندما عادت إلى رشدها، دعتنا سارة لتناول الطعام وغرفت الغرفة الأولى. أعتقد أنها حاولت جهدها، وأعتقد أنه كان من الممكن ملاحظة عنتها بوضوح، وبعض الرجع في حماسها وفي حركات يديها. لكن ذلك الرجع لم يكن في الصوت ولا في الحركة. هكذا بدأ الغداء الذي دعته سارة البارحة بغداء الوداع.

قالت أنطونيا بعد لقمتين أو ثلاث إن سارة كانت قد نوت أن تعد هذا الطعام عند نهاية الحرب، ولذلك احتفظت بهذه الفاصولياء حتى الآن. وهكذا كان لنا نحن الاثنتين أن نحتفل، ربما ما قالته أنطونيا شيء قريب من هذا تمامًا بصوت هادئ سليم، وواصلت تناول الطعام ببطء، ودون رغبة، مثلما كانت تفعل حتى ذلك الوقت. كنا أنا ودوبرافكو ننظر باندهاش متسائلين، وكأن أحدنا يريد أن يتأكد من الآخر ما الذي تعنيه هذه الإيماءات، هل هي موجهة لنا نحن الاثنين؟ وهل قدّمت لنا السلطة كي ننهض ونغادر؟ هل زاغت البنت المسكينة ببساطة فتحدثت دون وعي واتزان؟ على كلّ حال، فإن الأكثر احتمالا كان هو هذا الأخير. بدت أنطونيا في حال سيئة فعلا، وبدا من الظاهر تمامًا أنها تلفظ ما يدرج على لسانها بدون وعي حقيقي لما تقول، لدرجة أنها لم تعد ترانا نحن الاثنين على حقيقتنا، فكيف بها تمرر لنا بمكر رسائل سرية بتصريحاتها. وعلى الرغم من تصريحات أنطونيا البئيسة هذه بقي في الهواء شيء ممض، وأصبحت الأجواء السيئة على كلّ حال مقززة جدًّا. ورأيت أن ذلك يفرض على دوبرافكو النهوض، فتململت، ولوحت برأسي معتقدًا أنني بذلك أحضّه على الصبر، ومعتقدًا بأن هذا يساعدنا على الاحتمال.

وعندها ثارت ثائرة دوبرافكو فجأة بدون أي مقدمات، ومن دون توقع ربما منه هو شخصيًّا. بدأ الحديث بسرعة، واستطرد في مونولوج يشبه حال من هو سكران، وبقي لساعات يقاوم الذهاب للشرب حتى رضخ.

وأؤمن بأن هذه الاندفاعة كانت مفاجأة له، أما بالنسبة لي فقد كانت صدمة تامة. رأيت أن الأمر كان بالنسبة له كما هو لي، ومرّ كلّ ذلك من فوق رأسي. ولذلك توقعت أن دوبرافكو ربما قد يتصرف مثلي، وكنت قد كززت أسناني وتنفست الصعداء من تلقاء ذاتي بسبب استعدادي العاثر لأن أضحي من أجل قريبي، وبدأت أدفع نفسي للأكل بقدر ما تحتمل اللقمة، وبقدر ما كنت لا أرغب بإصرار أن أكون في وضع أدنى. عنّ لي في وقت متأخر جدًّا أن دوبرافكو ربما عمل مثلي ما خلا أن الأسنان الصّارّة بالنسبة له عنت الاستغراق في مونولوج والحديث.. الحديث بسرعة، وفي الظاهر بلا توقف وبانزعاج شديد وبنشاط إلى حد ما، ولكن قبل وفوق كلّ ذلك بصوتٍ عالٍ. عبّر قبل كلّ شيء عن الدهشة والإعجاب بما يتعلق بمثل هذا الطعام الفاخر وشكر بعد ذلك بشكل معبر النكهة الأصلية لهذه الخلطة، وأوضح أنه بقدر ما هو معروف لديه أن الفاصولياء لا تحضّر هكذا في البوسنة، وهذا يعني على كلّ حال أنه لم يذق البتة فاصولياء معدّة بهذه الطريقة، سواء كان من الفاصولياء القديمة، أو ذات الحبة الصغيرة. وأكل مثل طفل، تناول عدة مرات الفاصولياء الممزوجة مع البهارات، إلا أن مثل هذه الفاصولياء مع المعكرونة هي حرفيًّا جيدة للاستعراض.

أبدى دوبرافكو مديحًا طويلا للفاصولياء، وأوضح أن اعتقاده كان حتى الآن بأن الفاصولياء تمزج مع شيء آخر من أجل التوفير، وهو متأكد

الآن من كيفية تحضير ذلك ليجعل الطعام لذيذًا، ومن ثَم فجأة، وربما عندما نطق بكل ما جال في خاطره في ما يتعلق بالفاصولياء، عاد ثانية من دون مقدمة أو مدخل، يتحدث عن رسالته للدكتوراه. روى لنا بشكل موسع كلّ شيء عن الصعوبات التي كان عليه مواجهتها لكي يعثر على عدد كاف من فكوك الكلاب (من المؤكد أنني لا أبالغ إن أثبت أن هناك شيئا جنونيا من الإنهاك والدقة التي وصف بها المشاكل والحلول التي وجدها لها، والوسائل التي اعتمدها للوصول إلى فكوك الكلاب الثمينة.)

لا أعرف إذا ما كان غفل عن التوضيح، أو أنني لم أوفق في فهم ما حاجة فكوك الكلاب في التحضير للدكتوراه، وهل لا يزال لها دائمًا بعض الغرض، لكنني أدركت أن هذا الرجل المسكين يحتاج حرفيًّا إلى كمية هائلة من تلك الفكوك، وأدركت أنه من الصعوبة بمكان الحصول عليها، وأدركت أنه كان من الصعوبة بمكان على دوبرافكو أن يحصل على الكمية الضرورية من فكوك الكلاب من أن يعمل بقية الأشياء المتعلقة برسالة الدكتوراه. وتذكرت تفصيلا سارّا آخر في كلّ ذلك، إذ إن لدى دوبرافكو بوادر جيدة لنشر مختصر لرسالة الدكتوراه في مجلة مشهورة تصدر في أمريكا. وارتجل بعد ذلك الملخص الذي توجب أن يكون باللغة الإنجليزية، والذي كان علية أن يبين فيه بأعلى درجات المهنية ما الجديد تمامًا الذي جاءت به الرسالة، الجديد بالقياسات العالمية، وهذا

بحد ذاته يبين بما فيه الكفاية قيمة أحد الأبحاث الأكاديمية. حزن لأنّنا لم نقدر أن نفهم من ملخصه ما المحور الذي تدور حوله رسالة الدكتوراه بشكل عام، ولو أنه امتلك بعض الفكوك لكان بيّن لنا ذلك، ولكان الأمر اتضح خلال دقائق. وهذه في الحقيقة قيمة ما عمله، وكان مثيرًا ببساطة، وواضح تماما لكل شخص، وعلى الرغم من ذلك غير ملحوظ حتى أكمل عمله.

تحدث دوبرافكو وتحدث مثل المشجعين. وعدت في بعض الأوقات من الصدمة التي يثيرها استغراقه في المونولوج، ولكنني لم أتخذ أيّ شيء، لأنّ رأسي على الفور بعد ذلك بدأ يدوي بسبب صوته العالي جدًّا، الذي كان في الحقيقة قد بدأ صراخًا وليس حديثًا، ومن الصوت المدوي والصاخب تمامًا الذي دوى في الهدوء الصلد الذي ساد خلف المائدة. وفكرت أنه من الحسن أن يتحدث، فهذا من الممكن احتماله بطريقة ما، ويمكن احتمال هذا الذي يقوله من الكلام الفارغ، وربما يكون هذا أفضل من أن يتحدث بشيء ذكي، ولكن لماذا يتحدث بصوت عالٍ لا يطاق على هذا النحو، فكرت وحدثتني به نفسي بيأس. ثم لاحظت أنه كان طوال الوقت يحدّث سارة، وينظر إليها بإصرار، ويخاطبها بشكل مباشر وكأنه يحتمي من تلك العدوانية، ومن نفاد الصبر الذي لم تحاول سارة أن تخفيه من لحظة قدومنا، وكأنها تسعى لإخفاء كلمات تساورها. أو أنها تحاول من خلال هذه الشعيرة الحزينة أن تقدم تمويهًا، أو على

الأقل إحدى خاصِّيّات غداء سليم وطبيعي يتوجب خلاله سماع الصوت الإنساني عما يقال عن الغداء المذكور بأنه غذاء إنساني كامل؟ أو أنها تسعى لمساعدة سارة ذاتها أن تهرب من أفكارها ومشاعرها الخاصة وحماية ذاتها من الثرثرة الملحاحة، مما يثنيها عن الاهتمام بما يمور بداخلها؟ ويمكنني على أيّ حال أن أكون واثقًا أن هذه ليست طريقته لكي يكز أسنانه، كما اعتقدت في لحظة ما، هذه محاولة أن يضع حدًّا لبعض المشاكل. هذا بخصوص مشكلته مع سارة. أعرف دوبرافكو بما فيه الكفاية مما يجعلني أن أكون متأكدًا تمامًا من ذلك.

هل شعرت فعلا بالابتذال في صوت دوبرافكو، أم أنني أضفت ذلك لاحقًا كي أجعل من الوضع بأكمله مفهومًا إلى حدّ ما؟ هل كان ذلك الابتذال موجودًا بالفعل، أم أنني تبينت في صوته مشاعري الخاصة؟ أم أنني استنتجت أن دناءته يمكنها أن توضح الكثير من ذلك، وبطبيعة الأمور، شعرت بصوته، لأنّه كان ضروريًّا لي ليكون جزءا من كلّ كنت قد ركبّته في رأسي؟ لا أعرف، ولا حتى عندما كان من المستحيل الجواب عن ذلك السؤال. لم يكن من الممكن، حتى لو كانت الظروف المحيطة من نوع آخر تمامًا، فكيف تكون لو أنها الآن. من حسن الحظ أنه لم يكن مهمًّا أن يكون هناك جواب، وليست المسألة بحد ذاتها هامة بشكل خاص. كان الأمر لدي حينئذ، وأثناء ذلك الغداء المضني، أنني في لحظة ما خطر لي فجأة بأن دوبرافكو بسبب شعوره بالذنب يتصرف هكذا

بجنون، والشيء الوحيد بالنسبة لذلك، هل كانت هناك دناءة في صوت دوبرافكو، أم لم تكن؟ إنه يشعر بالذنب إزاء سارة؛ لأنّه على الرغم من كلّ ذلك سيرحّل ابنتها. ولذلك فهو يضغط عليها، ويتحدث حرفيًّا بأي شيء حتى يخفي بطريقة ما هذه الحقيقة، وحتى لا يثقل على وعينا جميعًا بذلك، ولربما ليحرف الانتباه عن تلك الحقيقة التي تنتصب أمامنا وسط الطاولة غير المرئية والحاضرة بعدوانية لدرجة أنه لا يمكن نسيانها للحظة. وعدا ذلك إذا تحدث هو، أو تحدث أيّ شخص آخر، إذا سُمع صوت إنساني، فإن كلّ ذلك سيشبه إلى حد ما الغداء، وقد قدم هو لسارة خدمة صغيرة لا يمكنها بالأحرى أن تكون معادلا لأنطونيا المُرَحّلة، ولكن... إنه لغباء أن أتذاكى وأوضح وكأن الشعور بالذنب يمنح العقلانية. لقد شعر بالذنب لأنّه سينقل أنطونيا، هذا مؤكد، ولذلك تحدث هكذا كثيرا وببلاهة، وهذا مؤكد. ومن المؤكد أنني غضبت عندما فهمت ذلك. كان ذلك في الحقيقة اضطراب في المشاعر، كان فيه كلّ شيء وكل ما يخطرعلى بال من الغضب الفعلي إلى الحنان الحقيقي. فكّرت أنه من الحماقة لدى دوبرافكو أن يشعر بالذنب، وفكرت أنه من الرائع أن يشعر على هذا النحو، فكّرت أن ذلك يبين بصمت أنه حالة مفقودة، وفكّرت أنه ها هو يبين أن كلّ حالة مفقودة حقيقية تكون شابًا رائعًا. وهكذا لكزته بقدمي من تحت الطاولة لحظة انفجار مشاعري.

فهم دوبرافكو لكزة قدمي من تحت الطاولة خطأً، ليس تعبيرا عن غضبي لأنّه يشعر بالندم بل تحذيرا، أو بالأحرى، تذكيرا بأنه من غير الملائم في مثل هذه الأجواء تكذيب أسرار الوقاية الحديثة، ولذا صمت فجأة في منتصف كلامه عن أستاذه الذي كان إنسانًا رائعًا ومهنيًّا كبيرًا. لكن صمته استمر لوقت قصير جدًّا، كان كافيا ليلتقط فيه أنفاسه، وليكتشف موضوعًا جديدًا من ما وقع عليه نظره. وكان أول ما وقع عليه نظره قطعة خبز صغيرة قرب صحن أحدهم، وبدأ بنبرة منتظمة يتحدث كما تحدث عن فكوك الكلاب. تحدث عن خبز سارة، وعن الخبز بشكل عام. بدأ الحديث عن الفاصولياء المقدمة لنا، وأنها رائعة، مثل هذا الخبز الفاخر، الذي ببساطة لا يمكن مقارنته بأي خبر آخر.

- لدينا غيره.

أعلنت سارة ذلك بغتة، ووقفت وأخرجت من درج في خزانة المطبخ قطعة صغيرة من الخبز، ووضعته على الطاولة أمام دوبرافكو وقالت له: خذه! مع أن الخبز الذي كان قرب صحنه لم يمسّه أحد. ثم عادت وجلست ثانية في مكانها.

كان ذلك صدمة لنا جميعًا، حتى لأنطونيا التي بدت وكأنها لا تلاحظ العالم من حولها، ولم تكن واعية حتى لذاتها. توقفت انطونيا عن تناول الطعام، وحدّقت بسارة، التي راحت تتحدث فجأة حول ذاتها، رابطة بالطبع اهتمام أنطونيا بها. وتوقف دوبرافكو أيضًا عن تناول الطعام،

صمت ونظر نحو سارة أولا، ثم أدار نظراته نحوي، وكأنه يتأكد مني إن كان ما ظن أنه قد حدث، حدث بالفعل، ثم عاد ثانية إلى سارة التي كان ينتظر منها بعض التوضيح. وأنا حيث تقطعت أنفاسي، وضعت الملعقة قرب الصحن، وقررت أن أغادر من تلك النقطة، لأنّه سيكون من الغباء ببساطة احتمال ما سيأتي، ثم تراجعت عن قراري ونهضت، وأعتقد أن ذلك كان مجرد فضول. لم تحاول سارة طوال الوقت أن تخفي أو تسيطر على نفاد صبرها من دوبرافكو، وبقدر ما كان الاعتقاد بأن تصرفها مع الخبز كان استكمالا، أو لنقل إنه الذروة، أو أكثر التعابير وضوحًا عن نفاد الصبر الساخط الذي كان في الحقيقة ينبعث منها طوال الوقت. منذ البداية، منذ تلك اللحظة التي ظهر فيها دوبرافكو عند الباب، كان من الواضح من كلّ حركة ونظرة وكل كلمة أن سارة لا يمكن أن تغفر له، وأنها لا تنوي أن لا تجهد نفسها حول ذلك، لكن ما جرى مع الخبز كان زائدًا جدًّا عن الحد، أكثر بكثير مما كان دوبرافكو يستحقه، وأكثر بشكل خاص مما كان يُنتظر من سارة. ربما كان ذلك لهذا السبب معيارًا هزيلا عن استعدادي لتحمل أقربائي. لنقل إنه يمكنني أن أتحمل أن أعلن عن شخص مخطىء بأنه إنسان أراد أن ينقذ امرأتين فحسب، ولنقل أن أتوقف عند هذا بأنه مذنب في الحقيقة أمام الوالدة التي يريد إنقاذ ابنتها (دوبرافكو بشكل ما مذنب لأنّه كان لديه نوايا طيبة، ومثل أيّ إنسان نشيط لديه نوايا طيبة أحدث مشكلة هائلة لنفسه وللآخرين، وشتت عائلة في

الطريق). ولنقل إنني قد أحتمل القول إن الأمور حسنة، وذلك لأنّ ذلك الرجل يشعر في قرارة نفسه بالذنب، ولنقل بأنه لابد من معاقبة ذلك الرجل وإهانته وفقًا لأي نظام, ولكن لا يمكنني أن أحتمل، ولا أقبل أن أعاقب عمل الخير، وقناعة هذه المرأة بأنه من الممكن معاقبة الأقرباء على الخير، ولا يمكنني أن أقبل العالم الذي يمكن فيه لسارة أن تحكم وتعاقب وتهب الخبز. بالنسبة لي فإن الأنانية اللاعقلانية البوسنية تكفي، لكن هذه الأنانية واللاعقلانية تتمظهر بـ: شكرًا جزيلًا!

على الرغم من ذلك نهضت انطلاقًا من فضول مجرد سيئ تكثف في السؤال: ما الذي سيؤول إليه كلّ ذلك؟ كيف لسارة أن تفعل ذلك؟ ما هو مقدار المشترك الذي تملكه سيدة البيت هذه مع سارة التي تعرفت إليها في هذا المطبخ ذاته؟ كيف سمح دوبرافكو لنفسه وللآخرين بكل ما جرى؟ لماذا أعدّت سارة هذا العذاب؟ ممن تثأر؟ كيف يمكن لثأرها أن يبدو في النهاية؟ كان لا بد لمثل هذه الأشياء أن تُوضّح في وقت ما، وأرغب بأن أكون حاضرًا عندما يحين التوضيح.

وعلى كلّ حال يسرني فعلا حضور اثنين من الناس الحاضرين، فأنا أحب سارة حقيقة، وبدأ كلّ ما يجري بالنسبة لي يشبه تصفية حساب بينهما. من الضروري أن يكون المرء حاضرًا عندما يبدأ تفكيك كلّ ذلك، لا أعتقد بأنني سأكون أكثر ذكاءً، ولكن يمكنني ربما على الرغم من ذلك أن أكون نافعًا.

ويبدو أن دوبرافكو استنتج أن الأمر يتعلق بتصفية حساب، وأن كلامه هو أقوى سلاح، فقرّر أن يتحدث ويتحدث ويتحدث إلى أن يموت، أو على الأقل إلى أن يصيبه الصمم. مجرد أن عاد من الصدمة بما يكفي لكي تعود إليه أهلية الكلام، فأكمل ثرثرته مواصلا حديثه عن الخبز، لكن هذه المرة عن الوضع الخاص للخبز في طعام الإنسان، وعن علاقته الخاصة إزاء الخبز، الذي كان بالنسبة له منذ البعيد أكثر من طعام، أو أنه رديف الطعام الكامل.

تحدث كيف أنه يحب الأكل كثيرًا (مع أن ذلك لا يمكن استنتاجه من النظرة الأولى وفقًا لبنيته النحيلة) وأن هناك الكثير من الطعام الذي يحبّه فعلا مع وجود مختص تمامًا يمكنه أن يصنعه بطريقة لا يكون فيها من الضروري وفقًا للقواعد تناول الخبز، ولكنه مرغم على تناول الخبز لأنه ببساطة لا يستطيع أن يشعر بالشبع من دونه. يمكنه الأكل إذا كان أمامه شيء جيد أو شيء يحبه، يمكنه أن يأكل بقدر ما يستطيع، أما الشبع فهو غير ممكن من دون الخبز. أثبت بذلك أنه بوسنوي أصيل، إذ يرتبط الشبع بالخبز بلا انفكاكّ في حساب كلّ بوسنوي

الخبز ببساطة هو مبدأ في الحياة وأساس وجود الإنسان في هذا العالم، وما تبقى إضافات تزين الطعام، وتجعله أكثر قبولا بهذه الدرجة أو تلك. الخبز يؤكل، وكل شيء آخر يؤكل يضاف إليه الخبز ليصبح أفضل مذاقًا. حدث له مرارًا أن أكل كثيرًا، عرف كيف يأكل كيلوغرامًا كاملا من

اللحم، لكنه لم يشعر أبدًا أنه شبع، إذا لم يكن هناك خبز. كان ذلك مضحكا، ولكنه تصوير لما يتحدث به عن تجربته في جيسينا في ألمانيا، حيث قضى ثلاثة شهور للتخصص. كانت لديه هناك مشاكل كثيرة، وجاع حقيقةً لبعض الوقت لأنّهم لا يقدّمون الخبز مع الطعام، وكثيرا ما كان يُفتقد الخبز. تذكر، لحسن الحظ، في إحدى الفترات أن يشتري الخبز من محلات البيع، وأن يحمله معه بقدر حاجته عندما يذهب إلى المطعم للغداء. «تخيل هذا الجمال، وكل تلك الثروة، وكل تلك الفانتازيا من حولي، بينما كنت أتضور جوعًا مثل الأحمق»، وأنهى دوبرافكو خطبته عن الخبز، ضحك لفترة وجيزة بصوت جهوري جعل قشعريرة تعتريني وتنحدر إلى أسفل ظهري، ثم تنقشع.

السكون الذي ساد بعد ضحك دوبرافكو كان له بحد ذاته شيء ممض مثل مجريات غدائنا، لكنه في الوقت نفسه شيء مفزع. تساءلت عدة مرات بعد ذلك الغداء العاثر، أو بالأحرى في كلّ مرة سعيت إلى الفهم لماذا جرى كلّ ذلك على هذا النحو، وعاينت ذلك في ذاكرتي، هل ظهرت القشعريرة لدي كردة فعل على صوت دوبرافكو الجهوري الذي لم أسمع مثله قط من فم بشري؟ أم أن البقية شعروا بذلك الشيء المفزع؟ وكنت في كل مرة أختم كلامي بالتذكير بالتعابير التي تلوح على قسمات جميع الحاضرين، واستعادة تلك الحركات القليلة التي قام بها كل واحد منا ، وتذكر السكون الذي يعقب ذلك.

وكنت في كلّ مرة وحدي، ناظرًا لذلك بعين روحي، متأكدًا أن وقع الأمور على البقية هو مثلما لدي، وحتى مع دوبرافكو ذاته. لا أستطيع أن أقول إن صوته الشخصي كان مفزعًا له، لكنه بالتأكيد شعر بالقشعريرة؛ لذلك توقف عن الكلام بشكل مفاجئ إلى حد ما، بدون إعلان مثلما بدأ.

أصبح كل شيء واضحًا بالنسبة لي بمجرد أن ضحك دوبرافكو. استدعت تلك النبرة الجهورية، التي قادت خلال لحظة إلى ضحكة، من أعماق ذاكرتي ذلك الصوت الذي يأتي مع القشعريرة. وهو ذلك الشعور البارد الذي يسبب الحُمّى على طول العمود الفقري، وهو شعور متصل بلا فكاك. الصوت – وأُشهد الله على ذلك – الذي كنت سأنساه بمنتهى السعادة.

عندما كنت صغيرًا كنا نحن الفتيان مع البالغين من أبناء الجيران نصطدم مع أؤلئك الجيران الذين كانوا يمسكون بنا ويضربوننا عندما نسرق، ويخبرون أهلنا أو يؤذوننا بدون سبب ظاهر، وكذلك كان الأمر مع البقية ممن يوقعون علينا الأذى.

وكنا نهاجم حديقة الجار الذي نريد أن نصفّي حسابنا معه، في وقت متأخر من الليل، ونخنق إوزاته. تكون الأوزة أثناء الليل عاجزة، لا تستطيع الهرب ولا الدفاع عن نفسها، في حين يكون الجار صاحبها وحاميها غارقا في النوم. كنا نمسك الإوزة من رقبتها باليد اليسرى،

ونمسك الرأس باليمنى، ثم نـدير الـرأس بحركـة مفاجئـة ونرجـه للأمـام، وبهـذا يكـون عملنـا قـد أُنجـز. وإلـى أن يـوقظ صيـاحها رب البيـت يكـون الشاب الحاذق قد قضى على عشرة منها. لم أفلح أنا قط في أن أقضي ولو على خمسة منها، وكنـت في كـلّ مـرة أعـاني مـن أجـل الوصـول إلـى ذلـك الرقم بعد تصفية الحساب مع أحد الجيران. وكنت أعاني في كلّ مرة جراء ذلـك الصـياح الـذي يصـدر عـن الإوزة عنـدما ينكسـر العمـود الفقـري وتتحطم الإوزة. وهذا أيضًا مؤكد، لأنّ ذلك الصوت بالنسبة لي، ولسبب ما، استقر في تجويف رأسي، أو عاد الصـوت إليـه في الليـل، ثـم انتقـل منـه بعد ذلك إلـى الـوعي، إلـى الـروح، إلـى آخـر زاويـة مـن الجسـد والـروح، وبشكل ملحاح من ليلة لأخرى وتباعا عند الساعتين السـابعة والثامنـة. لا شيء آخر، ذلك الصوت فحسب، إذ كان فيه شيء يبعث فيّ القشعريرة. لـم تكن راحتاي، بعد جهود الليل، تستعيدان الإحساس بملامسة الريش، ولا تسـتعيد يـدي اليمنـى الحركـة إلـى اليمـين والرجفـة، ولـم تطـاردني بعـض الصور قبل النوم أو أثناءه، لا شيء.. لا شيء حقًـا، وحـده الصـوت الـذي يستقر في إذني بإصرار، كلّ ليلـة، مـن تلـك اللحظـة التـي أضـطجع فيهـا في الفراش لأرتاح. لقد حرّرني نمو جسدي مـن ذلـك الصـوت، ربمـا بسـبب أننـي توقفـت عـن الانقضـاض في وقـت متـأخر مـن الليـل علـى حـدائق الآخرين، ولـم أعد أسمعه أثناء سنوات المراهقة. لقد نسيت تمامًا الوقـت الذي طاردني فيه بعض الزعيق وغمرني بالقشعريرة، وبدا كلّ شـيء كـأنني

تحرّرت من ذكريات تلك المصيبة، والآن استدعى دوبرافكو الصوت والخوف من أعماق معتمة من ذاكرتي والقشعريرة المرتبطة به بلا فكاك. كان في ضحك دوبرافكو شيء من أصوات الإوزات المخنوقة، وأثار ذلك قشعريرتي. ولكن ما الذي كان مفزعًا لمضيفتنا؟ ما الذي كان موضوعيًّا مفزعًا في الهدوء الذي ساد بعد ضحك دوبرافكو؟ هل كان هناك شيء، أم أن تلك إضافاتي التي كان من الضروري أن توضح تصرفاتي اللاعقلانية؟ وهل كانت تصرفاتي وحدها؟

أزحنا ملاعقنا، وابتلعنا لقمنا، وصمتنا، وكنا ننظر إلى المائدة أمامنا على طريقة أنطونيا التي كانت حتى اللحظة تحدق بشكل رئيس في صحنها، أو تجيل النظر بحدة مثل سارة، أو تتتبّع التغيرات على الوجوه من حولها كما كنت أفعل. استمر الهدوء على هذا النحو طويلا، لدرجة أنني رغبت كثيرًا في لحظة ما أن يسعل أحدهم، وفتحت فمي لأقترح بصوت عالٍ، ولكن الصوت لم يواتيني ثم حاولت أن أسعل ولكن لم يكن هناك للمرة الثانية صوت. تطلعت إلى دوبرافكو لأسأله لماذا يصمت، آملا أن تشجعه نظرتي على أن يعلن عن نفسه ثانية، لكن دوبرافكو نظر باحتراس إلى المائدة على مدى نظره. واستمر الهدوء، وأصبح أكثر إرهاقًا، وخيم علينا جميعا كما تخيم الرطوبة أو الخوف، وشدّ رقابنا. وبهذا لم يعد بإمكاننا الاحتمال، حتى إن الهدوء كاد يقطع أنفاسي، وبعدها اندفع النفس فجأة من أعماقي.

سارعت إلى مونولوج من دون سبب، أو إخطار، أو دافع، تماما مثل ما فعل دوبرافكو قبل قليل. تصنعت الرد على ثرثرة دوبرافكو عن الخبز، زاعمًا أنه هو من دفع بي إلى الأفكار التي أُصرّح بها. تحدثت طويلا عن القمح، وفي الحقيقة ألقيت محاضرة فعلية– ليسامحني الله– احتوت بلا شك على الكثير من عدم الاتساق، ولكن كان فيها العديد من أفكاري ومعتقداتي، ومقتطفات وتعليقات من كتب قرأتها، أو كنت ألّفتها في مراحل متعددة من حياتي الطويلة.

أؤكد أن ما يفكر به دوبرافكو عن الخبز هو حالة بوسنية عامة، وهي ليست استثناءً بأي شكل، لأنّ للخبز موضعًا خاصًّا في كلّ مكان في مجريات الحياة اليومية، ولم يمح من الذاكرة. لكن هذا الموضع الاستثنائي للخبز بين المواد الغذائية (لنقل في النظام الغذائي لإحدى الحضارات) إنّما هو انعكاس فحسب، أو بالأحرى نتيجة الوضع الاستثنائي للقمح بين النباتات. وموقع القمح في النظام الغذائي النباتي استثنائي من كافة النواحي، وفي كلّ الحضارات التي نشأت في العالم القديم، أو على الأقل في حوض المتوسط وأطرافه. تبدأ الحضارة باستصلاح الأرض (استصلاح الأرض هو في الحقيقة شيء رئيس في الحضارة وكل ما يتشكل حوله) وزراعة النباتات الغذائية، ويُعدّ القمح الغذاء الرئيس في حضارات البحر المتوسط. إن خصوبة قطعة من الأرض كانت تقدر بنمو القمح فيها، وعطاء السنة ونماؤها يقاس بنمو القمح في

العام موضع الحديث، وثروة إحدى النواحي كان يعبر عنها في قياس وحدات القمح التي يمكن للناحية المذكورة أن تنمّيها. ومن خلال احتياطي القمح كان يُقدَّر هل سيهدد الجوع في وقت ما منطقة ما؟ (أينما وحيثما وجد القمح فلا جوع هناك). وكان الحكام يوزعون القمح عندما كانوا يريدون كسب العامة.

إذا كان من الممكن بشكل عام التفوق على القيمة الغذائية والاقتصادية للقمح في حضارات حوض المتوسط، فقد نهضت به القيمة الرمزية للقمح ذاته في تلك الحضارات، والتي لا تزال أكبر من الاقتصاد. اكتشفت حضارات المتوسط من خلال القمح الإله الرحيم (بعد العديد من الآلهة الأشداء الذين كانوا يعاقبون وحسب)، واكتشفوا المراسلات بين ذلك العالم وعالمنا، ومن خلاله تعرفوا على الموت والخصوبة، ومنه استمدوا الأمل بالبعث. وعلى كلّ حال، تبين للناس من خلال القمح البعث وحده، بدون القمح لا يكاد التخيل الإنساني عن القيامة يكون ممكنًا. تبدأ مرحلة النضج في حضارات المتوسط عندما يأخذ القمح مكانه الخاص بين النباتات، وعندما يصبح كما يقال نباتًا ببساطة، وعندما تنفذ قيمه الرمزية إلى صورة العالم للحضارة المذكورة. لاتوجد حضارة بالشكل الذي نعرفه بدون سؤال الموت، ولا توجد طريقة كي يربط سؤال الموت بالأمل، بدون القمح. ولذلك فإن حضارات: ما بين النهرين، والمصرية، والهلينية، والمسيحية عرفت الأسرار الأساسية

لتقديس القمح، أو أنهم عرفوه من خلال المقارنة المثيرة في كتبهم المقدسة. ويمكن القول بشكل دقيق إن كلّ هذه الحضارات قد نمت في نهاية الأمر من الصورة الروحية للقمح، وإنها كانت ممكنة لارتباطها بزراعة القمح. هل تعرفت الحضارة الإسلامية على القيم الرمزية للقمح من خلال التمر؟ أي في ساق النخيل الذي تحمل أوراقه موته الذاتي. أوليست، على كلّ حال، تلك الحضارة، بحدود ما، مرتبطة بالفاكهة وطزاجة الفاكهة، التي تشكل صورة أساسية من صور الجنة؟ تعرّفت، وعبّرت في الكثير من الأمكنة عن العطاء الرمزي للنخلة التي تنشأ من موتها الذاتي، والعطاء الرمزي الذي يساوي تمامًا بين النخلة والقمح؟ أليس أصل الرعاة «الزارثوسترا» انحدر من كونهم لا يعرفون ولا يحترمون القمح، ولذلك هم غير مؤهلين للشعور وفهم الرابطة التوأميّة بين الموت والولادة، وعليه فهم غير مؤهلين لتقبل الحضارة بالشكل الذي يعرفه حوض المتوسط؟ أوليس رعاة الماشية ملعونين لأنّ الصورة الروحية للبقاء قد رُفضت لديهم؟

وهكذا دواليك.. وهكذا دواليك.

تحدثتُ، وتحدثتُ وتحدثتُ، على النحو الذي كنت أتحدث به للطلاب أحيانًا عندما كنا نبتعد عن البرنامج ونتناول إحدى المشكلات، لأنّنا تعرفنا فيها على قضيتنا، وليس لأنّها من المقرر. كنت أتحدث دون أن أهتم إذا ما كان أحدهم لا يصغي إليّ، وكنت في الحقيقة غير واعٍ تمامًا

لما أقول. كأن ذلك الكلام ينطلق مني، كأنه، ودون اعتماد كامل علي، تجمعت فيّ الأفكار والأسئلة والصور التي كانت خلال سنوات طويلة من القراءة قد وضعت على حواشي الكتب العزيزة، ثم توجهت نحو الخارج.

كنت أعرف أحد أجزاء المنطوق، ويمكنني أن أُثبت بهدوء أن تلك الأجزاء كانت في الحقيقة من تعليقاتي على هوامش بعض الكتب ذات الأهمية الخاصة بالنسبة لي، لكن جزءًا جيدًا مما تحدثت به لم يكن من أفكاري على الإطلاق، أو هي أشياء لا أعرفها، أي أنني لم أكن أعرف أنني أعرفها. إذا عرفتها، إذا لم أتحدث بكلام فارغ، إذا لم أكن قد اختلقت في تلك اللحظة ما أقوم بإثباته دون أن أعرف أنني أختلق، وعدا ذلك، وما تعرفت عليه من أفكار خاصة كانت موجودة في روحي حتى تلك اللحظة، بقي مفصولا بعضه عن بعض وليس كتلة واحدة أبدًا. لم أفكر على الإطلاق في ربط الواحد بالآخر، وقد نشأت انطباعاتي في مناسبات متعددة جدًّا، وفي مراحل متعددة من حياتي. كيف تآلف كلّ ذلك الآن في هذه المحاضرة؟ ومن جمعه، ولماذا؟ ولماذا الآن على هذا الغداء؟

الله وحده يعلم كيف استمر ذلك على هذا النحو، أن أتحدث والبقية يجلسون من دون حراك، ينظرون إلى الأمام لدرجة أنني في لحظة من اللحظات لم أسمع نفسي كيف أتحدث، سمعت بأذنيّ كما يمكن لأي

شخص أن يسمع لآخر. سمعت نفسي وانزعجت لأنّني لاحظت أنني أتحدث بلا تحيّز تقريبًا، تحدثت بصوتي، ولكن بالتأكيد ليس بطريقتي، هكذا، كما كنت أنتظر – لنقل – من سياسي محلي متمرس بحيل التملق في علم البلاغة المدرسية من دون فهم عملي للنص الذي يتحدث به. لقد أثارني ذلك بقدر كبير لأن جزءًا جيدًا من الحديث كان يخصني بالفعل، أسئلتي، وصوري، وردودي في الأحاديث مع الكتب التي قرأتها، ودهشتي من الأجوبة الممكنة. لم يكن من الممكن التنبؤ بأي شيء من هذا الذي سمعته. دفعتني هذه الاستثارة إلى سؤال: لماذا أنا في الحقيقة أتحدث بكل ذلك؟ هل أنا فعلا من يتحدث بكل ذلك؟ ومن يكون المتحدث إذا لم أكن أنا؟ ومن أنا إذا كنت حقًّا أنا؟

شعرت بخجل عميق بسبب هذا السقوط غير المتوقع الذي تسببت به، وما تسببت به هذه المحاضرة. اسمع أيها القمح، إن الحضارة، والمنعطفات أمام ثلاثة من الناس الأبرياء تمامًا في البيت الذي ستغادره غدًا الفتاة ويغادر معها المستقبل والشباب! لا يمكنني بكل ما هو خيّر فيّ الحديث، إذا ما أردت الحديث باحترام، ولكن مثل هذه السقطات على الرغم من كلّ ذلك ليست من طريقتي، إنها حقًّا ليست كذلك.

لقد بدوت أمام نفسي، وأنا بتلك الحال المزعزعة من أصوات الأوزات المخنوقة في طفولتي الباكرة، مرتعدًا من الخجل الذي خطف صوتي تمامًا، وشفافًا مثل الماء الزلال (إلهي العزيز! كم كنت واضحًا، كم

كنت بحد ذاتي مفهومًا وواضحًا لأول مرة في حياتي، كيف للحياة أن تكون بسيطة ومملة إذا كنت قد فهمت نفسي جيدًا دومًا، أو على الأقل بشكل رئيس)، لقد رأيت بوضوح ما الذي أثاره فيّ دوبرافكو بصوت الأوز المخنوق، وتعرفت بوضوح وفهمت عدم الراحة والقشعريرة، والتوتر والخوف، وفوق كلّ ذلك الخجل، وهو خجل مضاعف، أرى جانبيه، وأشعر في الوقت نفسه وللتو، أن الخجل، الذي اعتراني يومًا ما، هو هذا الذي ألمّ بي الآن، وبالتوازي معه. الخجل الذي لا أنجح في الوصول إلى حدوده الدنيا من الشباب الأصغر مني الذين تمكنوا من خنق خمس إوزات. كان ذلك في البعيد الذي نهض فيّ فجأة، وكان شفافا مثل البلور، وكأنني أنظر إليه من خلال عدسة مكبرة، وشعرت بكل ذلك في الوقت نفسه فعلا وبشكل محدّد.

كان شعوري بالذنب واضحًا أمام سارة (الذي بسببه كانت ردة فعلي غاضبة على دوبرافكو) لأنّ ابنتها ستغادر وهي ستبقى لي. واتضح لي أيضًا كيف أنها ترفض سماتي وأهليتي للشعور بهذا النوع من الذنب. وليس في الشعور بالذنب طيبة وتضامن، لأنّ هناك، في هذه اللحظة، من هو أسوأ منك. إنه عدم إيمان مجرد في الخير، وشك بالله العزيز. أو شيء بمنتهى البساطة وأسوأ كثيرًا. وكان ارتباكي واضحًا أيضًا وضيقي وخجلي لأنني حوصرت في منتصف المحاضرة أثناء الغداء ومع أناس لا يحتاجون الكلمات ولم يعودوا يأبهون بها.

كان كلّ ذلك واضحًا بشكل رائع، كنت بالنسبة لنفسي بمنتهى الشفافية والوضوح وفهمت لأول مرة في حياتي ما الذي يمور بداخلي، وحدها تلك المحاضرة عن القمح بقيت غير واضحة. من أين لي هذا، ولماذا؟ لمن تحدثت بكل ذلك؟ هل قصدت الثأر من سارة بسبب قسوتها ذلك النهار؟

نهضت واتجهت نحو الباب دون تحية، واثقًا من أن ذلك هو الأفضل، وأنه في الحقيقة الشيء الوحيد الذي يمكنني عمله من أجلنا جميعًا. وفهم الرجل الذكي دوبرافكو على الفور ما المقصود، فصاح: وأنا سأذهب. ثم نهض ومضى معي، لكنه توقف، على الرغم من ذلك، عند الباب، واستدار نحو المرأتين وقال: سنلتقي غدًا، وبعد ذلك دفعني تمامًا لكي نمضي إلى الخارج بأسرع ما يمكن.

نزلنا الدرج بهدوء تام محاولين تنسيق خطانا، وبهذا أبطأنا النزول كثيرًا وجعلناه صعبًا. وبهذه الخطوات المنسقة جعلنا من نزولنا من الطابق السابع في الوقت نفسه نزولا احتفاليًّا وغير حاذق، كنا في كلّ مرة نجد فيها أنفسنا على حافة الدرج يكون الذي على الناحية اليسرى- وكنت أنا- مجبرًا على رفع رجلي في الهواء مثل راقصة الباليه لكي أنزل الدرج عندما تحل رجل دوبرافكو على الدرجة نفسها. لا أعرف لماذا نزلنا على هذا النحو الذي يبدو لنا الآن مضحكًا جدًّا وغريبًا، ولكن لم يلاحظ أيّ منا

كـم يبـدو ذلـك جنونًـا. ربمـا كنـا نحتـاج إلـى أن نخطـو بهـذه الطريقـة الاحتفالية.

قال دوبرافكو عندما وصلنا إلى شارع توماشا مساريكا:

- في كلّ مرّة كان يغادر فيها المدينة أحد من أعزائي، كنت أشعر، وكأن أحد معارفي يموت..
- أعرف إذن كيف هو وضعك الآن، ولذلك لن أحدّثك بأي شيء، وآمل أن تفعل أنت ذلك. بقي لي أمل بأننا سنتقابل ثانية يومًا ما على الرغم من كلّ ذلك. وسوف يسعدني ذلك فعلا.
- منتهى الذكاء! أهنئك. لقد سرني ذلك، من دون كلام، وحتى من دون وداع. إن ذلك ضروري. لقد بدّدنا كلانا اليوم بما يكفي من الغباء.

حاول دوبرافكو المزاح:

- أتعتقد، وفقًا لذلك، أنه يكفي لكل يوم ما فيه من شرور؟ أنت بروفيسور حقيقي، الغباء لديك يتساوى مع الشر.

اقترحت عليه قائلا:

- ستتوجه أنت إلى جسر تشوبانيا وأنا للجسر الخشبي.

وكنت أشعر بأن بامكاني أن أبكي كلّ ساعة ولذلك سارعت برعب لأن أبقى وحيدًا قبل أن يحدث ذلك.

قال دوبرافكو:

- لا ينقصني سوى ذلك، أن يبدأ أحدهم بمواساتي! حسنًا.
- حسنًا، كلّ شيء جيد.
- وأنت؟

تصافحنا ومضينا نحو النهر كلّ واحد منا على ضفته من الشارع.

عودة سارة

بدا لي اليوم غير معقول تمامًا، إذ إنني لم أر سارة ولو لمرة واحدة طوال نصف عام، منذ آب عام 1992 ومنذ ذلك الغداء الوداعي سيء الذكر الذي قاطعته. في العالم الضيق الذي حُكم علينا فيه، المؤدي بعد عدة كيلومترات لوادي النهرالضيق، أو لعدة شوارع في مركز المدينة، كان من المستحيل التام تقنيًّا أن لا ترى أحدًا يقيم في هذا العالم الضيق، على الأقل مرة واحدة كل عشرة أيام، ومن المؤكد تمامًا أنني لم أر سارة ولو لمرة واحدة في الفترة ما بين ذلك الغداء وزيارة ديرفو.

عاد ديرفو نهاية شهر شباط عام 1993 من تريسكافيتسا، وجاء إليّ على الفور، وكان ذلك الغداء لدى سارة في 17 من شهر آب 1992 (لا أستطيع أن أتكهن لماذا تذكرت التاريخ، من المؤكد أنني وهانيا قد ثرثرنا بذلك، واكتشفنا بعض المعاني الخبيئة في التاريخ، ولكنني لا أتذكر تلك المعاني. من الممتع كيف، ومنذ تجاوزت حدود التقدم بالعمر، أن العديد من المشكلات تحصل بسبب ما أتذكره أكثر مما بسبب ما نسيته)، مما يعني أنه بين هذين اليومين مضى نصف عام بأكمله، شاهدت في تلك الفترة ما لا يقل عن خمس عشرة مرّة وجه كلّ واحد من قاطني سراييفو الذين يتجولون طوال الوقت، وكان يحدث لي أن أسعد لرؤية وجه شخص غير معروف تمامًا كأنه من أقرب الناس إليّ، ثم أدرك لاحقًا أنني

لم أر ذلك الوجه منذ عشرين يومًا، وأسعد به الآن كأنه أحد معارفي القدماء ممن لا يزالون على قيد الحياة. ولم أر سارة ولو لمرة واحدة في تلك الأيام.

لا أقول إنني عانيت كثيرًا لإنني لم أرها، خصوصًا في الفترة الأولى بعد ذلك الغداء المضني. كان عدم الارتياح عميقًا جدًّا في داخلي، خجل تام بسبب محاضرتي تلك عن القمح، وبسبب خروجي غير المهذب والنزق من بيت سارة حتى أتمكن من أن أسرّ في الالتقاء بها. وكل ما حصل حينها في ذلك الغداء العاثر، بما في ذلك سارة ذاتها وتصرفاتها، كان غيرمريح ومقلق وغير متزن، ومن الضروري بالطبع أن يمضي بعض الوقت حتى أتمكن من إسعاد سارة ثانية.

من المثير أنها قد اختفت في الوقت نفسه عني وعن أحاديثي. وفي كلّ مرة كنت أحاول فيها الحديث عن سارة، كانت هانيا تتحدث بعدد من الجمل القصيرة والعامة التي تسلب من أيّ كائن حتى الرغبة في الحديث (وهذا ما عملته هانيا نفسها، وهي التي كانت مثل أيّ معلم أصيل آخر تتحدث بكل شيء تحت القبة السماوية لمدة خمسٍ وأربعين دقيقة). ولم أستطع التحدث مع أيّ شخص آخرعنها؛ لأنّه لم يكن لدينا أنا وسارة أصدقاء مشتركون آخرون ما عدا شقيقتي، وهي التي كان من غير الممكن الحديث معها عن الناس على أيّ حال، لأنّها تصنف الناس إلى مرضى أو مثيرين للملل. هكذا كنت أتعامل مع سارة ذهنيًّا بشكل رئيس في بعض

الأوقات، أتناول – لنقل – ما حصل أثناء الغداء الوداعي، أو أسأل عن كيفية تعاملها مع خوفها من الوحدة، أو أسعى للتكهن بما حدث بالفعل بينها وبين هانيا، وكيف تبدو علاقتهما الآن إذا كان هناك من علاقة.

هكذا وصلت سارة إلى حافة اهتماماتي، إلى ذلك المكان الروحي الذي يقيم فيه الناس الذين لا أراهم ولكنني أعرفهم، ولم أكن لأفاجأ بأن أراهم، الناس الذين يحتلون مكانهم في روحي بين الذكريات والحضور؛ لأنّ أيّ واحد من الاثنين لا ينتمي لهما بشكل كامل، والطريقة التي أحياها معهما لها خصوصية لكليهما. إنه ذلك المكان الروحي الذي يمتلئ بسرعة رهيبة في أوقات الحرب، وهو ذلك المكان الذي يرحل إليه الأعزاء والأقرباء، وهوما عرفتموه موتًا، ولكنكم لم تروا فيه لا جثة ولا جنازة. وهكذا لم تتجرعوا طعم موتهم، عرفتموه معلومة مجرّدة، ولكنكم لم تتعرفوه حقيقة وحسًّا. ولهذا يبقى هذا الموت بالنسبة لكم مجردًا ومجهولًا بدون جسد أو ملامح وجه، بدون رابط بشخص محدد، بدون ملامسة لمن تحبون ومن يمكن أن تحبوا بشكل عام، ويبقى الموت معلومة عارية مثل خبر جريدة عن الحيتان في أستراليا، أو أسعار النفط في السوق العالمي. لو كنتَ رجل أعمال لمئة مرة، فلن تكون في موضع من يحب أسعار النفط، على الأقل على النحو الذي أعرف فيه الحب وأفهمه. ولذلك فإن الميت القريب الذي علمتم عن موته، لكنكم لم تُلقوا نظرة على جثته أوعلى جنازته، أو ذقتم طعم موته بطريقة ما، لا

يرحل إلى مستودع الذكريات، حيث يكون كلّ الأحبة غير ملموسين ونظيفين، إنه لا يرحل إلى هناك، ولا يصبح ذكرى لكم. ولكنكم لا ترونه ولا تسمعونه ولا تتحدثون معه أو عنه، قليلًا ما تذكرونه أمام الآخرين أو في أحاديثكم مع أنفسكم، وهكذا يتوقف عن الحضور، يتلاشى تمامًا من واقعكم، ويصبح بعيدًا عنكم.. إلى هذا المكان في روحي رحلت سارة منذ منتصف عام 1992.

أحاط بي كلّ ذلك من خلال الوعي، واتضح لي كلّ ذلك تمامًا في لحظة واحدة بينما كنت أستعد للذهاب مع ديرفو بيرين إلى مركز الشرطة في ذلك اليوم الجنوني نهاية عام 1993. وفهمت كلّ ذلك لأنّني سعيت لفهم ما يسعدني، أو في الحقيقة سعيت لأن أتكهن من أين لي، عمومًا، بالسعادة التي أتاحتها لي قصة ديرفو عن سارة. غشيتني تلك السعادة تقريبًا بجنون، ولذا كنت مرغمًا ببساطة أن أنزعج وأسأل ما الذي يسعدني؟ يخبرني الرجل بأن صديقتي تريد أن تنتحر، وأن أشعر بسعادة مثل المجنون، أسعد كثيرًا لدرجة أن أقفز وأغني أثناء تغيير ملابسي. وأفهم، بتعاملي مع تلك السعادة، سائلا عن طبيعتها ومصدرها، أن سارة قد رحلت إلى ذلك المكان من روحي الذي يقيم فيه الراحلون الأعزاء، الذين لم أعرف عن موتهم بالفعل وبالتجربة، لذلك فإن الإبلاغ بأن سارة تريد أن تنتحر يعني في الحقيقة أنها لا تزال على قيد الحياة، لذا فقد سعدت بجنون بمثل تلك الأخبار.

استغرقني تغيير ملابسي وقتًا قصيرًا، وكان لباسي في الحقيقة صديريًّا وبلوفرا كنت أرتديهما، غيرت البلوفر(البلوفر الذي خلعته لم يكن مناسبًا للخروج، والصديري مبطن بفراء، كانت هانيا قد صنعته لي قبل وقت قصير من الحرب، وكان سميكًا لا يمكن أن أرتدي فوقه المعطف). ومضى وقت كاف إلى أن عثرت على ما أريد في الممر المعتم، واحتذيت الجزمة بسرعة؛ لأنّه لم يكن بمقدوري استهلاك البطارية وما زال الوقت نهارا، ولم يكن لدى ديرفو لمبة تعمل بالبطارية، ولكننا في لحظة ما تغلبنا على ذلك، إذ كنا- بأقل من عشرة دقائق بعد أن دعاني ديرفو كي أذهب معه، وأن أتحدث مع سارة- قد أصبحنا في الشارع معًا أمام البيت.

سقط الثلج، وكأن الناس قد استعدوا بعد الطوفان الكبير لتراكم كبير للثلوج، ولم يكن يُرى من خلال ستارة الثلج الحقيقية أبعد من مسافة متر حرفيًّا. تذكّرت مقارنة ديرفو للمشهد أمام مدخل نفق سراييفو مع حمل المخلوقات على سفينة نوح، فأردت أن أعلق بأن الثلج يسقط بجنون على هذا النحو لأنّه دعا نوحا بذكره له. لكنني تراجعت، مقدرًا بأنه يمكن أن يفهم ملاحظتي، وعليه أن يفهمها بوصفها مزحة، مع أنني لم أكن لأدلي بها بوصفها كذلك. لم يكن ذلك بمقدوري، ولم أكن لأمزح، فمن اللحظة التي خطوت بها للخارج بدأ الحزن يغمرني. بالتقادم، كنت أتمسك بالعادات، وأحتاج بشكل مضاعف لأنّ أكرر تصرفات معينة في ظروف محددة. ربما كان ذلك طقسنة للحياة، كما أسميناها أنا وهانيا

لأنفسنا «الإخلاص للعادات والتكرار الدوري لسلوكيات محددة»، وربما يمكنني القول إن هذه الاستمرارية تحفظ الاستقامة وتساعدني لكي أغفل، أو أنسى، وكأنني لم ألاحظ كيف يغربون عني، وكيف يقلّلون لدي الطاقة الحيوية بإصرار. ومنذ أن بدأت الحرب، ومنذ أن تزعزع العالم وبدأ يتهاوى على كياني، أصبح الكثير من عاداتي ضرورة حيوية مثل الماء والهواء تمامًا.

إن إخلاصي هذا للعادات، واحتياجي لتكرار تصرفات محددة، أصبحا في أيام الحرب هذه قوية لدرجة أن أيّ تخلٍ عنهما، أو بالأحرى عما هو قائم، يمكن أن يثير بشكل حرفي عواقب هزلية مبالغ بها. فأنا، على سبيل المثال، منذ صغري الباكر أحلق ذقني يوميًّا، لأنّه لم يكن يواتيني الشعور بأنني قد استيقظت حتى أحلق ذقني. وعلى الرغم من ذلك كان يحدث، وبالأخص عندما كنت أصغر عمرا أن أخرج أمام التلاميذ غير حليق الذقن. ومنذ أن بدأت الحرب ازدادت حاجتي للحلاقة اليومية حد المرض إلى حد التعلق الخصوصي بالحلاقة، وأصبحت الحاجة كبيرة إلى درجة أنه في أشد هجوم على المدينة كنت أنجح في السيطرة على الخوف، وأحلق ذقني إذا بدأ الهجوم في الصباح. المرة الوحيدة في الشهر الثالث للحرب تغلّب علي الخوف فهرعت إلى الملجأ من دون حلاقة. لذلك تصدع رأسي حرفيًّا من الألم طوال فترة ما بعد الظهر، وقدّم لي درسًا لا ينسى.

كان الوقت ذلك اليوم مثاليًّا حقيقة لأداءالطقوس الجميلة التي شكلت منذ البداية حبي لهانيا. كنا نخرج دائمًا للتمشي عندما يسقط الثلج ودائمًا عبر طريق تسارسكي إلى جسر كوزيا ذهابًا وإيابًا، كلّ مرة، ولكن فعليًّا كلّ مرة عندما يسقط الثلج جديًّا من أول شتاء وأول ثلج. كنت سأذهب لاصطحابها من مكان عملها منتظرًا هروبها، وكنا سنذهب الى محل حلويات أو سحلب ساخن، ومن ثَم إلى حديقة بابيتش، ونواصل من ثَم إلى أليفاكوفاتس أولا، والعودة من ثَمّ إلى بودتسارينا، وبعدها باتجاه جسر كوزيا، ويحدث ذلك دائمًا عند هطول الثلج كثيفًا وهو مرتبط بالثلج ببياضه وبرودته. واليوم يتساقط الثلج بغزارة، يتساقط حقيقة من أجلنا. ربما لأنّ اليوم بارد بشكل مفزع ولا مشوار لدينا، ولا يمكن أن يكون. ولذلك فإن من المؤكد أنه كان جرّاء الحزن الذي اعتراني عند أول خطوة خارج البيت. وربما الأمر ليس موضوعيًّا، وربما لأنّني أشعر بالبرد فحسب على هذا النحو تمامًا. وفي الحقيقة، أعتقد أنه يشملنا نحن الاثنين.

لم أستطع لحسن الطالع أن أترك المدى لهذا الفيض من الحزن والمرارة، التي تلبستني لأنّنا بعد خمسين خطوة وصلنا إلى مركز الشرطة الذي يعمل به ديرفو، وكان ينبغي أن نقابل سارة هنا، ومشكلتها التي هي أصعب كثيرًا من العادات المشوشة، والمشاوير الضائعة، وحتى من البرودة مهما كانت قارصة.

لم نكن نتقابل خلال نصف السنة، إذ فقدت سارة على الأقل عشرة كيلوغرام، ولم يكن هذا ظاهرًا لأنّها كانت ترتدي ملابس شتوية تخفي هذا.

بدت سارة في المعطف الخريفي مفتوح الأزرار، ومن تحته البلوز وفوقها البلوفر الخفيف، هزيلة بشكل جلي تمامًا مثل حطام امرأة مخلصة قوية كنت قد تعرّفت عليها في الصيف. دوائر زرقاء غامقة حول العينين أشارتا بأن وراءهما العديد من الليالي التي لم تذق فيهما طعم النوم، وكان هذا هو الشيء الوحيد على صفحة وجهها، الأمر الذي أتاح التكهن بأنها ليست على ما يرام. وأؤمن بأنني كنت لأسعد بالنظر إلى سارة هذه، على الرغم من الدوائر الغامقة واللباس الخريفي، لو لم أسمع من ديرفو أنها عرّضت نفسها للقناصة. كان الكثير من الهدوء ظاهرًا على وجهها، والكثير من التركيز، أيّ علاقة يمكن أن تكون لهذه المرأة بالانتحار الذي تحدث ديرفو عنه؟

- جميل أن أراك للمرة الثانية، يا سارة. كيف حالك؟ تبدين بحال جيدة.. بالفعل..

ثرثرت بمرح، سعيت إلى أن أثرثر بمرح ضاغطًا على مشاعري الشخصية، التي كانت تخنقني حرفيًّا قبل كلّ مشاعر النفي. كنت آمل بأنني من خلال نبرتي المرحة، وبحراسة رجل كان ببساطة يثرثر بمرح وبطريقة عرضية، سأتمكن بسهولة من التواصل مع سارة، ذلك التواصل

الذي توقف منذ الصيف الماضي رغمًا عني أو على الأقل خارج إرادتي. من الحسن والطبيعي تمامًا أن نلتقي الآن، كما أنه من الحسن والطبيعي تمامًا أننا لم نلتق خلال نصف عام. كلّ شيء حسن، وهو تمامًا ما كان يجب أن يكون. لم أكن بالطبع واعيًا لكل ذلك لم أفكر بكل ذلك ولم أختلقه. لا، إنني أفهم الآن أنني تصرفت على هذا النحو لأنّني اعتقدت ذلك بدون وعي. إذا وفقت بإعطاء انطباع بأن كلّ شيء طبيعي يمكننا أنا وسارة أن لا نلاحظ أننا نلتقي في مركز الشرطة، وأن الفضل في عقد هذا اللقاء يعود إلى الشرطي الذي حقق معها ودعاني لكي أنقذها، أو لأكون مسؤولا عنها. بإمكاننا إذن أن نغض الطرف عن الجانب المحزن للقائنا المكرّر. وعن طريق غض الطرف عن ذلك وحده يمكننا أن نتحدث مثل بقية الناس وبصفتنا أصدقاء. تمنيت أن نتحدث على هذا النحو، وتمنيت أن تشعر سارة بأنني لا أزال معها بقدر ما أنا لا أزال صديقًا مخلصًا وفيًّا.

سألت سارة وهي تتراجع وتصافحني:

- أوه! من أين أتيت أيها البروفيسور؟ هل أنت مسؤول عني في منطقة مارين دفور؟

كانت تلك المصافحة ودودة بشكل جلي بضغطة قوية ودافئة لليدين كما كنت أنتظر منها، وكما خبرتها، وليس فيها أي أثر من آثار الجفاء.. أو جواب ساخر تمامًا على تحيتي.

أجبت بغية المهادنة، متقبلا دون تعليق أنني وسارة قد عدنا لضرورة التخاطب ثانية بصيغة التفخيم: «أنتم»:

- أنتم– والحمد لله– مسؤولون عن أنفسكم في منطقة مارين دفور، وعلى مستوى العالم بأكمله.

راحت سارة توضح وهي تنظر إلى ديرفو، وكأنها ربما تسأل: لماذا دعاني؟ قالت:

- وأنا فكرت طويلا على هذا النحو، إلا أنني متوترة قليلا. ولكنني أسعد معك.. أسعد بك على كلّ حال.

أجاب ديرفو كمن يصنع معروفًا، متفهمًا لنظرة سارة:

- أنت، أيتها السيدة، ربما تكونين قد فكرت بشيء ما، ولكنك تصرفت وكأنك لم تفكري. ولذلك دعوتِ صديقك، ربما كما حسبت أن يكون مسؤولا عنك بدون اتفاق مسبق. وبالفعل، لماذا لا تقبلين إذا ما كان صديقًا حقيقيًّا؟
- دعك من مزاحك البوليسي، يا ديرفو، أرجوك. صرخت ثم استدرت نحو سارة.
- من الواضح لك ياعزيزتي سارة أن الأمور ليست على هذا النحو الذي يتحدث به. لو كنت أعرف أنك هنا لكنت أتيت بدون دعوة منه، أو من أيّ شخص آخر، لكنت أتيت إلى أيّ مكان في العالم ما

دمت سأساعدك أو أجلب لك ولو مقدارا قليلا من السعادة، كنت سآتي من أجلك ومن أجل السعادة التي سيجلبها اللقاء معك.

وهكذا دواليك.. وهكذا دواليك. تحدثتُ، ورطّبتُ الكلام قدر استطاعتي، تحدثت كثيرا، ثم التقطت أنفاسي وواصلت الكلام، رطّبته حقًا، لكنني تحدثت بصدق، بصدق تام، لأنّني كنت أحب سارة، وسعيت بصدق لمساعدتها. رطّبت الكلام كي أهدّئها وأشجعها، وكي أؤكد لها صداقتي الصادقة الخالصة. وذكرتها به، في الحقيقة لم يكن ذلك منذ أمد بعيد عندما لم تكن تشكّ به. وربما لن تشكَّ به الآن لو لم تكن الظروف الموضوعية للقائنا تنطق بمثل هذا الجلاء ضد الثقة والصداقة وبقية الأشياء من هذا النمط. وإذا ما تحدثنا بجدية فقد كان واضحًا لي، منذ اللحظة الأولى، كم كان من الصعب إغفال أنها سجينة فعليًّا، وأن صديقي الشرطي، هو ذلك الذي استجوبها وأحضرها إلى هنا بأمل أن يساعدها ربما بوصفها سجينة. وربما بأمل كي تساعده، بأن يحصل منها على ما يريد. لا يمكن إغفال هذا الفرق الأساسي في مواقعنا ببساطة، ولذلك حاولت منذ اللحظة الأولى أن أحرف انتباه سارة إلى الجانب الخارجي الموضوعي غير المناسب للقائنا. عرفت أنه من دون ذلك لن يكون هناك حوار حقيقي، ولن أتمكن بطريقة أخرى أن أكون راغبًا في الحديث معها. وعرفت أن مكتب ديرفو المتجمد بطاولته الكبيرة، وبالعدد المحدود من المقاعد الخشبية، ونصف المعتم بسبب القاصة المعدنية الضخمة

المسندة إلى النافذة حماية لها، لايمكنه أن يسهل خلق أجواء رفاقية وتجديد الثقة بين الناس. ولذلك كان عليّ أن أتحدث وأتحدث محاولًا أن أُعبِّر بثقة، ومحاولا أن أتغلب على تأثير الظروف الموضوعية وأجواء مكتب ديرفو، ومن ثم تأثير ديرفو نفسه، الذي كان يوضح لسارة لعدة مرات، وبالتحديد عندما كنت أتأكد من أن الأجواء تترطّب قليلا، بأنه ليس لأحد الحق في الوصاية على من كانت في عمرها، وأنه، أي ديرفو، بالإضافة إلى كلّ مصائبه ومشاغله يداريها من أجلي. يا له من مسعى بائس، وبالأخص لإنسان مغمور بالحزن حتى الرقبة.

على الرغم من ذلك كنت أوفق في بعض الأوقات أن أدفع سارة للحديث كي نعرف على الأقل ما الذي حصل معها منذ آخر لقاء لنا في الصيف وحتى اليوم.

حاولت سارة أن تهوّن على نفسها خروج أنطونيا بحملها همّ أمومي على كينان، مؤكدة من خلال ذلك أنها ما تزال تهتم بأنطونيا ليس لأنها غائبة بل لأنها ابنتها قبل كل شيء. هذه المعادلة بالطبع عبّرت عن خطأ تام، ليس لأنّ كينان مستغرق في همّ والدته الحقيقية بدرجة مبالغ بها، بل لأنّ سارة نفسها، ومن خلال لقاءاتها المتكررة مع كينان، كانت غير محتملة، لأنّ كلّ لقاء كان يستعاد في نفسها، ويتفولذ، ويحفر بشكل مضاعف في المعاناة ما كان يجب نسيانه، أي غياب أنطونيا وخروجها. وكانت تعرف بأنه لا يُسمح لها أن تحاول إظهار الألم من هذا الخروج

بالعيش وحيدة في البيت الذي ينطق فيه كلّ شيء باسم أنطونيا وبقية من غادروا حياتها، وكل ذلك من دون أن يكون هناك شخص يمكنها أن تقضي يومها وهمومها معه. هكذا كانت تمدد إقامتها في المدرسة كلّ يوم، سواء كان ذلك ضروريًّا أو لا، إلى أن جاءت نهاية شهر أيلول عام 1992 حتى رحلت تمامًا إلى المدرسة.

قضت الخريف والشهور الأولى من الشتاء لتنظيم منطقة بستريك بأكملها حول مدرستها وجعلتها مركزا، مستعملة لتحقيق هذا الهدف، قبل كلّ شيء، النفوذ الذي تملكه لدى أهالي تلاميذها السابقين والحاليين. آخذين بالاعتبار أن الجميع في منطقة بستريك، إما كانوا، فعليًّا، تلاميذ سابقين، وإما كانوا آباء لتلاميذها وإما من كليهما، وبدا واضحًا مقدار نفوذها في منطقة بستريك الذي يجب أن يكون. وهكذا رتّبت بأن يجلب الماء من مصنع البيرة إلى المدرسة، ثم يوزع في المدرسة لكل المنطقة وفقًا للحاجات. ورأى الجميع بسرعة كبيرة المزية الكبرى لمثل هذا التزويد بالماء. وكان كلّ بيت يحصل على حاجته من الماء بجهده الخاص، مما يعني أن فردًا واحدًا من كلّ بيت سيتعرض للخطر، وقبل كلّ ذلك فإن كبار السن والعجزة والمرضى والمذعورين، أي الجميع ماعدا الأقوياء والشجعان، بقوا في طي النسيان، وبدون ماء. وعندما قبلت الأكثرية العظمى طريقة توزيع الماء هذه، انفصلت مجموعة من أهالي بستريك كانوا يجلبون الماء كلّ يوم للجميع من تلقاء

ذاتهم بطريقة ما. ورتبت عدا ذلك لكل سكان الحي إمكانية الطبخ في المدرسة وأمّنت مكانا دافئا. جلبت موقدين، ووضعتهما في تسوية بناء المدرسة، ثم نظمت مجموعة من الشباب والناشطين لإحضار الوقود للموقدين. عندما رُتّب كلّ ذلك، بقي أن يوضع دور يحدد لكل عائلة دورها للطبخ، ودور لإشعال النار. ورتبت عدا ذلك توزيع المساعدات الإنسانية التي وصلت إلى المدينة لجميع أهل بستريك من خلال المدرسة على أساس القوائم المعَدّة لتلك الغاية. وعملت على تجميع الأشياء في المدرسة، قبل كلّ شيء الملابس الفائضة عن حاجة المتبرعين، والتي يمكن لشخص آخر أن يستفيد منها.

كانت تلك بضعة أشهر صعبة بشكل لا يطاق، وجميلة بشكل لا يطاق. قالت سارة ذلك بينما كانت تروي وهي على درجة عالية من الحماس الطلق عن مشاريعها في منطقة بستريك. كانت تلك من أجمل لحظات إنكار الذات: «كان ذلك زمن كنت قادرة فيه، وبشكل كامل، ودون توقف، أن أنغمر في العمل» مثل أيّ معلم جدي، عملت سارة عملا لا يمكنها أن تنسحب منه دون أن تترك أثرًا، ودون أضرار لما يعمل، مدركة أن العمل يدلّ على المعلم بشكل أفضل من تلك الصورة المأخوذة عنه. أثناء فصل الخريف جعلت من مدرستها مركزًا فعليًّا لكل حياة منطقة بستريك، مكانًا لم يكن للوجود نفسه أن يُتصور تمامًا من دونه، ونظّمت كلّ ذلك بشكل جيد لدرجة أنه عرف في قابل الأيام من

يجلب ويوزع الماء، ومن يعتني بالوقود وإعداد الطعام، ومن المسؤول عن توزيع الملابس والغذاء. وكان من الممكن أن يحصل في النصف الثاني من شهر يناير 1993 أن يكون هناك وقت حر، وقت كاف لايعرف فيه المرء ما الذي يجري معه. ذلك الوقت الحرّ، الذي من الطبيعي أن يؤدي إلى معرفة أنها لم تعد ضروريّة في الدائرة التي أقامتها حول المدرسة. الشعور بأنها غير ضرورية حقًّا في العالم الصغير الذي لم يكن ليقوم بدونها، العالم الذي نسجته من ذاتها مثلما ينسج العنكبوت بيته، كلّ ذلك أعادها لأنطونيا وخروجها، ومن ثم إلى جميع تلك الأسئلة التي تجمعت حول ذلك الخروج. هكذا عرفت أن كينان جريح، وأنه سيبقى من دون يد. وعرفت أن إحدى العائلات قد انتقلت إلى بيتها لاجئة من قردونيا (وذلك ما فسّر لي نوع اللباس الذي ترتديه سارة في مثل هذا الوقت)، وهكذا عرفت أن هناك رسالة لها في كاريتاس، المنظمة الإنسانية الكاثوليكية، منذ ما يقرب من شهر.

كانت الرسالة من أنطونيا، رسالة طويلة ولا أبالية جدًّا. كتبت عن حسن استقبالها من قبل الخالة أنجلينا والخال أندريا. وكتبت أنها سجلت هناك في الكلية في شهر أيلول، وكيف استقبلها الجميع في الكلية بشكل رائع، أقروا لها كل ما يمكن إقراره من مواد دراسية، وهكذا سجّلت في السنة الدراسية الرابعة. كتبت عن السعادة والحماس الذي ستدرس به الآن، وكتبت عن قَسمها بأن تحصل على الدبلوم حتى شهر أيلول من

السنة القادمة. لكنها كتبت كلّ ذلك مثل تقرير عن شيء يكاد يكون معروفا، وبحيادية، من دون أيّ أثر لكل تلك المشاعر التي تأتي على ذكرها في الرسالة (من المحتمل أنها كتبت الرسالة تعويضًا عندما فقدت كلّ تلك المشاعر الحميدة). كتبت أنها في نهاية شهر تشرين الثاني علمت أن كينان قد تطوع للقتال، وكيف أنها فقدت حينئذ التوتر الجميل الذي ينتج عن انتظار حدث سعيد.

كتبت كيف أنها تسلمت رسالة طويلة من كينان، رسالة جيدة ومؤلمة، كتب كينان أن الأمر ليس بالشيء المخيف بالنسبة له، وأنه من حسن الطالع أنه يتذكر جيدًا، وهو يرجوها أن تفكر جيدًا وحسب، وأن تجيبه بصدق، إذا ما كانت تؤمن بأنهما سيتفاهمان، ويستعيدان مشاعرهما تجاه بعضهما بعضًا، كما في السابق إذا ما التقيا ثانية في زمن ما.

كتبت كيف أنها طلبت الهجرة إلى نيوزيلاندا، فحصلت على حق الهجرة وهي تنتظر الأوراق الآن. ومن الضروري أن يكون كلّ شيء جاهزًا بحلول شهر آذار.

وكتبت كيف أنها تحضّر لرأس السنة، وكيف أنها ستكون حقًّا جديدة هذه المرة؛ لأنّها ستكون وحيدة تمامًا لإول مرة.

كانت سارة قد قرأت الرسالة في كاريتاس، وفهمت أن كلّ شيء جيد جدًّا، وأن كلّ شيء قد حدث بالفعل. انزاح عنها التعب الثقيل الذي كانت بسببه تكاد تتهاوى. توجهت إلى البيت، أي إلى المدرسة التي

كانت بيتها الوحيد، ولكنها كانت بين خطوة وأخرى تتحرك بتثاقل، ذاهلة تمامًا. فقدت أنفاسها، ولم تستطع استنشاق هواء كافٍ. كأن ريشًا ينهال عليها، ضاغطا بثقل لا تشعر به، يهبط الريش الذي كان تدريجيًّا وخلسة يُثقل الحركات إلى أن يشلها ومن ثم يخنقها. مثل مرض جميل ناعم. مثل موت أمومي رحيم متقن. داهمها ذلك في حديقة الميدان مثل الشلل، ذلك الموت الرحيم وأوقفها تمامًا. لم تستطع ببساطة مواصلة الطريق، لا شيء أراد أن يتحرك حتى القلب ذاته. تمددت تحت شجرة الدلب حتى تتماسك ولكي تحاول أن تفهم ما الذي ينبغي فعله الآن، وأن تجيب نفسها على عدد من الأسئلة التي ظهرت فجأة. إلى أين يمكنها في الحقيقة أن تذهب، إلى بيتها أم إلى المدرسة؟ من الواجب أن يموت المرء في بيته، ولكنْ هناك الآن أناس مجهولون يقيمون فيه. ومن الجهة الأخرى، أي في المدرسة هنالك أناس معروفون وكثيرون منهم قريبون تمامًا، لكن المدرسة مرفق عام لا يجوز الموت فيه. أي أنه يمكن للإنسان أن يستجدي الموت، ويموت بشكل علني، كما يجري الموت في زمن الانحطاط والعلانية. عرفت سارة منذ أمد بعيد أن الموت هو قمة الخصوصية، وأنه معايشة وحدث يتم تقاسمه مع من لا يمكن أمامهم إخفاء أيّ شيء بالفعل. لكن ذلك لم يعد له وجود في هذه الأيام، ربما لأنّه لم يعد هناك خصوصية، لم يعد هناك مجال للإخفاء؛ لأنّه لا وجود لما يمكن إخفاؤه في عالم شفاف تمامًا، وأصبحنا نحن فيه شفافين من

دون خجل. حيواتنا علنية، وأعضاؤنا ومشاعرنا وعاداتنا، ولذلك فإن موتنا علني ووقح واستجدائي ومعروض للنظرات الغريبة. أين يمكنها هنا أن تعمل؟ وكيف؟ هل بقي في هذه المدينة أحد، أيّ أحد؟ مع من يمكنها أن تعمل؟ وبصحبة من؟ ليس ضروريًّا أن تكون قريبًا، ولكن لا تكن غريبًا بالكامل فحسب.

في وقت متأخر من الليل، حين بدأ حظر التجول، عثر عليها جيرانها من منطقة بستريك، وهم الذين بدأوا البحث عنها في وقت متأخر من بعد الظهر. هل نامت؟ هل كانت متعبة؟ هل أسلمت نفسها للموت الأبيض الجميل، كما أكد لها ذلك الصوت الذي سمعته من داخلها وعرفته على الفور، ذلك الصوت الذي حيّا في زمن غابر موكب عرسها الأبيض؟ بقيت لعدة أيام أخرى طريحة في المدرسة، هادئة رابطة الجأش من دون حاجات أو حركة لوقت قصير على النحو الذي أراها فيه أمامي الآن. وعندما فهمت أن ذلك لن يُحلّ من تلقاء نفسه، نهضت وبدأت تستطلع الزاوية التي يكمن فيها القناص. إذا لم تجر الأمور بطريقة أخرى، فلا بد أن تكون كما يجب اليوم. إذا كان لا يمكن العيش بكرامة على شاكلة حياتها فليكن بدون محاباة وتصنع، وليكن علنيًّا في الشارع، المهم أن يكون وحسب. ولكن الأمور هكذا.. لم يرغب القناصون، ربما أن تكون على هذا النحو، حديثة حيث كان الموت فائضًا ولا يتطابق مع شخصيتها

وحياتها الحالية التي لم يكن فيها أيّ شيء متصنع وبسيط. ولذلك حبسوها اليوم، ودعاني صديقي بعد أن تعب من الصراخ عليها.

كانت تلك رواية سارة، مركزة، دقيقة، ومؤكدة. في كلّ جملة، وفي كلّ كلمة، وفي كلّ إيماءة صغيرة تتابع فيه من وقت لآخر الرواية، كانت مرئية في كلّ ذلك.

سارة التي عرفتها وأحببتها على الفور هي المرأة القوية التي تعرف بثقة مكانها وطريقها. إلهي! كيف لي أن أفرح بهذا اللقاء لولا التصميم الصلب لسارة على الموت.

صرخت بتوتر بعد هدوء طويل ساد بعد نهاية اعتراف سارة:

- لكنني لا أفهم، ما هي العلاقة بين هجرة أنطونيا إلى نيوزيلاندا وموتك؟ إنني لا أرى أي علاقة، وهي ببساطة غير موجودة، عليك الاعتراف بأنها غير موجودة.

وافقت سارة بهدوء:

- أعترف أن لا علاقة هناك، وأنا أيضًا لا أراها.
- لماذا إذن كلّ ذلك؟ لست مذنبة بأي شيء. لا سبب لديك بأن تقتلي نفسك. ليس لك الحق في ذلك.. عليك أن تفهمي ذلك..

حاولت أن أسخّر كلّ إيماني وأمنياتي لتكون سارة بخير، مستثمرا الفرصة، ومحاولا من خلال الصراخ.

- أرجو أن لا تبحث هنا عن خطأ، أيها البروفيسور، عبثًا وهذا هو مبتغاك. وأرجو أن لا تتهم أنطونيا.. سأقتلع عينيك إذا ألقيت باللوم على هذه المسكينة لسبب ما.

أجابتني سارة بهدوء بدون أيّ أثر لإثارة، وأتاح لها الهدوء الفرصة للتهديد، وذلك الاقتناع الغريب الذي لم يتم تمحيصه.

- بحق الله، كيف يمكنك الحديث على هذا النحو، يا سارة! أنا لا ألقي اللوم على أحد، ولا حاجة لي لأي مذنبين. عاجلتها وكنت مهانًا بشدة من ملاحظة سارة غير العادلة.
- ما أحتاجه هو أن أشجعك.. وهذا غباء، فلا أحتاج لذلك أيضًا، فأنا لا أسعى لتشجيعك فحسب، لكنني أسعى لكي أوضح لك كيف أنك عزيزة علينا جميعًا، وكم أنت ضرورية هنا، ومن الخطأ إصرارك على قتل نفسك بطريق غير مباشر. هذا هو هدفي ونيتي وحسب، هذا وحده ما أريده، أي كيف أحضك على أن تبقي معنا هنا.

أجابت سارة مبتسمة:

- أنت، أيها البروفيسور، إنسان متعلم تقريبًا، وهذا ما أكّدته لي منذ ذلك الغداء عندي، عندما ودّعنا أنطونيا، لكنني أخشى أن قلبكم الإنساني، وطبيعتكم الإنسانية، وحتى حياتكم، ومهما كنتم، جعلتكم محكومين بها أنتم وحدكم، فإنكم أصبحتم كأنكم

محجوبون قليلا. أتعتقدون بالفعل أنني أحتاج للتشجيع، وأنتم تحضونني كي أتراجع عن الموت وأبقى معكم هنا؟ أتؤمنون بذلك فعلا؟ لقد ترافقنا طويلا بما فيه الكفاية، وتعارفنا جيدًا، أو كان من الممكن على الأقل أن نتعارف.

استُثرت؛ لأنّه بدا لي أن سارة تريد أن تغير الموضوع، وأن تزج في النقاش حالي بدلا من حالها، الأمر الذي يساعدها بالطبع أن تصر على قرارها دون أن تسأل عن صحته من عدمها:

- الحقيقة أنني أجد نفسي بشكل أفضل مع الكتب أكثر مما هو مع الناس، ولكني لا أعرف لماذا علينا أن ننشغل بذلك الآن؟

ابتسم ديرفو، ولا أعرف إن كان ذلك لاعترافي أو لمكر سارة، لكنه واصل متابعة حديثنا صامتًا كما كان حتى تلك اللحظة.

- أسعى فقط أن أفهم لماذا تفهمونني خطأً على هذا النحو. لقد تصادقت مع زوجتك بأقل مما هو معك، واتضح لها أن الأمور لدي أكثر بساطة مما هي لديك؛ لأنّ الناس أقرب إليها منك، إنهم قريبون جدا، ولذلك هم أكثر وضوحًا.

طلبت منها بسخرية وتوبيخ في الوقت نفسه، محتجًا، ولكن ليس بشدة كبيرة، بالضد من اعتقادها بأنني هنا غبي بشكل ظاهر:

- وضحي لي، ربما سأفهم أنا في النهاية!

- لا يوجد هنا في الحقيقة ما يمكن توضيحه. كما تعرفون، بالتأكيد الكثيرون منا يربطون بدواخلهم الخاصيات غير المترابطة، كما لو أن في دواخل كل واحد منهم اثنين من التضادات البينية أو ببساطة طبيعتين مختلفتين. هذا موجود لديكم في الأدب، إذا ما كنت أتذكر جيدًا. إذ يقال إن لديهم مشكلة في الهُويّة، لأنّهم فشلوا في التعرف على مكانهم في العالم، وفشلوا في التنبؤ بما يريدون، وماذا يريدون.

إنه أمر معقد بشكل خاص، إذا اندمجت الطبيعتان في رجل واحد ممثلة فيه، ومتطورة على قدم وساق كما هي الحال معي. ولدي قسط من حالة أخرى؛ ذلك أن الطبيعتين اللتين اتحدتا فيّ لا تحتملان بعضهما، ببساطة، حتى إنه يمكن القول إنني غدوت إحدى الحالات المضحكة قليلا. أو أنهما ليستا طبيعتين وإنّما مصير، ليستا حالة نفسية، وإنّما حياة فعلية تهم من حولي، أو أنهما معًا؟ لا أعرف، وليس من شأن حديثنا على أيّ حال، يمكنني القول إن طبيعتيّ أو مصيري، وإن ناحيتيّ الاثنتين، وبصدق تام، لا تحتملان بعضهما. وهذه مشكلتي الأساسية التي كانت ولا تزال موجودة عندي. لقد لاحظت منذ أمد بعيد ناحيتيك تلكما، وانتبهت مثل طائر لتنافرهما البيني، ومنذ ذلك الحين اخترت واحدة منهما. ومن أجل تبسيط التسمية يمكننا تسميتهما سارة وسيرافينا، أسماهما الآخرون كذلك، أسماني الآخرون على هذا النحو، وتعرفت من

خلال التسميات على الاسم الحقيقي لناحيتيّ الاثنتين وما أحمله بداخلي، ومن أكون أنا في الحقيقة. لم يكن لدي مشاكل مع سارة، وأحببتها على الدوام، ورضيت بها من دون مشاكل، كنت أرغب أن أكون سارة منذ أن كنت فتاة في التاسعة من عمري. وأحبها الآخرون جميعًا أولئك الذين يعنون شيئًا لي، أو على الأقل ما كان يتهيأ لي وربما أرغب في أن يتهيأ لي ذلك. لقد رويت لكم كيف جاء الفرسان المنيرون إلى حديقة بوتانيشكا، ودعوا سارة لكي تذهب معهم، كم كانت طيبة، مجردة من الحاجات ومنطوية. ولكن مع سيرافينا كان لدي مشاكل على الدوام منذ نعومة أظفاري. لم أرد أنا ذلك، وكنت أعرف أنني لست أنا أو أنني عرفت بأنني لا أقبل أن أكون على هذه الشاكلة، لم أقبل ذلك الجانب الآخر مني. أعرف أنه يبدو غريبًا اليوم عندما يتم الحديث على هذا النحو، الراحة اليوم هي القانون الأعلى، ولذا نحب أن ندّعي أن الأنا عندنا ثابت ومحصن ولا جدال فيه.

وأعرف على الرغم من ذلك أنني، ومنذ مطلع شبابي، قد عرفت أنني لا أقبل أن أكون ما أنا عليه، ورفضت إحدى جوانب شخصيتي. لا أريد ذاتي؟ من أنا؟ من هي ذاتي؟ لا أعرف، لأول مرّة أتحدث عن هذا الذي أعرفه وأعتقده طوال حياتي، ولكنك بروفيسور، وتعرف جيدًا أنه من السهل أن تعرف عن ذاتك، وتتحدث معها أكثر مما أن توضح لشخص آخر وتتحدث أمامه. وفي الحقيقة أن كلّ هذا التبسيط يؤلمني ويهينني،

ولكن هذا ربما لا بد أن يجري النطق به في إحدى المرات حتى تنتهي الأمور، ولذا فلينطق.

هل هذه إرادة؟ هل هي تلك الشرارة التي تقفز، في إحدى الصور، من الإصبع الإلهيّة الممدود؟ وهل هذا السبب الذي من أجله منحنا الوجود، والذي شَيّد لهذا السبب في أعماق دواخلنا ذاتنا، السبب الذي سيبقى مخفيًّا إلى الأبد؟ حقًّا، أو على الأقل كان من الضروري أن يكون مركزًا فعليًّا لكينونتنا، هل هي إرادة لأن يكون؟ أم هو دافع بيولوجي، مادة حية تتشكل ذاتيًّا؟ لا أعرف. لم أكن لأسأل أبدًا كيف سأسمي هذا الشيء، هل أسميه مركز أناي؟ لكنني أعرف أن هذا المركز موجود، وأعرف أنه جزء هام من أناي، وأعرف أن هذا المركز لم يقبل سيرافينا البتة. لم أقبلها أنا، لم أرغب في أن أكون سيرافينا مفيدة، واقعية، طوع البنان دائمًا، ودائمًا على أهبة الخدمة، إلى أن تسيطر عليك تمامًا، وإلى أن تحيطك بذاتها وتبتلعك. الطيبة التي تستعبدك، العطاء الذي هو العطاء الوحيد لذاتك. أو على نحو آخر، وليس كذلك تمامًا، لكنه في مكان ما هنا. لا، لم أكن أريد أن أكون هكذا، لقد حاربت ضد سيرافينا طوال حياتي لأنّني لم أكن أريد أن أكون على هذه الشاكلة. مفيدة، ومتأهبة للخدمة، ومستعدة في الظاهر لأن تعطي، إضافة إلى أنها أنانية خالصة. عندما لاحظت بأنها تُظهر دائمًا ما لديها وتسيطرعلى ذاتها، وبقدر ما كنت أعارضها بيأس وأحاربها، توحّدتُ، وبدأت أبتعد عن الأعزاء من الناس، واتجهت نحو المجهول

وما هو لا يكاد يكون معروفا. عندما تقدمون معروفًا لشخص مجهول، وترفضون التقرب منه، وتبتعدون بطريقة ما عن سيرافينا، فإنكم تنجحون في أن لا تستعبدوا هؤلاء الناس وتسيطرون عليهم. هكذا يمكنني أن أقدم ذاتي وحياتي، هكذا كنت نافعة وضرورية، وبفضل ذلك كان بإمكاني أن أشعر بشكل رائع بالانتصارعلى سيرافينا. أتعتقدون أنني انتصرت على سيرافينا؟ إن زوجي الراحل، وابنتي، وأنا ذاتي، لم نكن بعيدين بما فيه الكفاية، ولا نكاد نكون معروفين بالنسبة لي. لا أعرف ما الذي يمكنني قوله يا بروفيسور، لا أعرف كيف بإمكاني القول إنكم تفهمون ذلك. كنت أنا في مكان ما، وسيرافينا في مكان آخر، في بعض الأحيان كان لي وأحيانًا لها. كنت طوال حياتي أحارب ضدها في الغالب، وبسببها كنت طوال حياتي في حرب مخيفة معها لا تتوقف، حرب بلا مخرج أو تغيير.. وتغلبت عليها الآن، لم يبق فيّ الآن سوى سارة بشكل مؤكد وقطعي تمامًا. أحتاج الآن لأن أذهب فحسب وأن أكون جافة، نظيفة، محدقة بسريرتي. ولذلك أنا سعيدة ورائقة، ولا سبب لديكم لكي تشجعوني أو تحثّوني، إن زوجتك تعرف جيدًا كيف حالي الآن، اسألها وستوضح لك كلّ شيء. آه.. لو كنت منذ زمن على هذا الحال من الرضا والحماس.

استمر هذا العذاب طويلا جدًّا. غادر ديرفو هادئًا على كلّ حال، وكأنه لم يكن متكئًا بكوع يده الأيسرعلى الطاولة ورأسه يتكئ على راحة يده اليسرى، وأشحت أنا نظري كما أفعل في الغالب عندما أسعى لفهم ذلك

الذي يزوغ بإلحاح عن فهمي. ارتجفت سارة وهي مسترخية- إذا جاز التعبير- أي أنها تجمدت في الغرفة المتجمدة بملابسها الخفيفة، لكنها كانت صاحية، هادئة، رابطة الجأش كما كانت عندما عرفتها أو أكثر. واعترفت لنفسي في النهاية كيف أنني لا أفهم قصة سارة، ولكن يمكنني أن أثبت بثقة بأن قرارها، وحاجتها لأن تذهب، لم يغيّرا من الأمر شيئًا.

قلت، صارخًا لا أكاد أتدارك نفسي:

- هذا غباء، يا عزيزتي سارة، أنت لا تزالين ضرورية جدًّا. يمكنك أن تقدمي لنا جميعًا الكثير والمزيد من الخير دون السعي مسبقا لاستعباد أحد.. هيا أرجوك.
- لمن، يا عزيزي البروفيسور؟
- لي، وله، ولنا جميعًا نحن من نعرفك ونحبّك، ونحن كثر صدقيني، أكثر مما كنت تتصورين في أيّ وقت.
- شكرًا لكم يا بروفيسور، أنت رجل لطيف فعلا.

صرخت، وأنا أتحسّس في صوت سارة مقدار عمق تراجعها (صرخت، على صراخي، ارتفع صوتي متحدثًا بصدق، لأنّني لم أستطع تدارك العدوانية التي تبدت فيّ، بعض غضب بشع بسبب عدم أهلية سارة لفهم ما أقوله لها).

- فما هو الأمر غير الصحيح الآن؟

- كلّ شيء على ما يرام، أنت تتحدث وتعمل هكذا ليكون ذلك تشريفًا لك. لكن كلّ ذلك قليل، كأنه تجريدي وإنساني إلى حد ما. وأنا أحتاج إلى عمل فعلي تمامًا، لست أنا من أولئك الذين يمكن أن يبقوا بلا عمل.
- لكنك شخص متعب، من الواضح لي أنه ليس لديك صديق ما عداه. زأر ديرفو وقفز عن مقعده بتثاقل لكي أتأكد من جدية غضبه.
- تحتاجين إلى عمل؟ لا نقص في هذا المجال، عزيزتي، العمل ينادي من كلّ الجهات. إليك.. كوني طاهية لدينا، إنه عمل لا يوازي وجاهة الإدارة، ولا يجلب الثروة، لكنه عمل، وحاجة جدية للناس.

سألت سارة بتوتر، وبلمحة دفعتني أن أهتز بسعادة:

- كيف أكون طاهية؟ أهنا لديكم؟
- نعم.. طاهية لدينا، يعيش هنا خمسون شخصًا يأكلون كلّ يوم ما تقع عليه أيديهم. حسنًا.. غالبًا ما يتناولون المعلبات، ولكن للمعلبات طعم آخر إذا تم تناولها من يد أنثوية، أي من يد إحدى الطاهيات. نحتاج في بعض الأحيان فعلا أن نطبخ شيئًا جديدا، نحن في كلّ مرة يكون فيها معكرونة وأرز، يخلط ذلك مع لحم المعلبات كما اتفق.

- وهل ستقبلونني؟
- إن القائد في ميدان المناوبة، وهي مناوبته الأخيرة. ولكن لم يحدث أبدًا أن ألغى قرارًا لي، ولن يكون ذلك هذه المرّة. وبالطبع فإن السؤال الحقيقي هل تقبلين أن تعملي مقابل أجر يمكننا أن نقدمه لك، هل تقبلين أن تكوني تحت الطلب مثلنا هنا جميعًا، هل الشروط مقبولة لديك؟

أعلنت سارة بحفاوة:

- أكون مثلكم جميعًا. متى أبدأ؟
- غدًا.. لِمَ الانتظار. هذا على الأقل اقتراحي. وعندما يعود القائد سنعلن ذلك رسميًّا.

مدّ ديرفو يده لسارة بعد أن أكّدت قبولها لكل مقترحاته بإشارة من رأسها.

قبلت سارة أولا بمدّ يدها وهي جالسة، لكنها حينئذ وكأنها قد تذكرت شيئًا نهضت وصافحته طويلا بحرارة. وسألت بعد ذلك إن كان بإمكانها أن تذهب الآن للتحضير، وعلى هدي حركة من رأس ديرفو تؤكد ذلك، استدارا نحو الباب.

عقّب ديرفو بعد خروجها:

- وحده العقل في الرأس. عندما تعبرون الشارع حافظوا على طاهيتي.

مضت سارة بسرعة بعد أن وقفت أمام الباب المفتوح بالقدرالممكن لكي تلقي عليه نظرة سريعة، ثم هرعت تمامًا عبر الباب.

نظرنا أنا وديرفو وهززنا رأسينا بجدية. لم أعرف ماذا كانت تعني هزة رأسه، أعرف أن هزة رأسي كانت تعني الاعتراف، والسؤال الذي كان تقريبا على النحو التالي: «أليس واضحًا الآن سبب هجومي وحسدي وغضبي عليك من وقت لآخر؟». بدون عواطف وتكلف وشكوك، لقد أنقذ صديقتي التي كانت في نهاية الأمر مثلي عندما تعذبت لساعات، وكان من الممكن أن أصل لنفس النتائج لعدة شهور. إنه يصغي ويحتمل اندفاعاتي ويسعى لفهم حقيقة الأمر. ثم، ومن خلال تدخل معين، يضع الأمور في نصابها. كما لو أنه من المحتمل أن يصلح لي الموقد لو أنني رجوته لفعل ذلك. لا أعرف كيف تجري الأمور معه، ولكن من الواضح لي تقريبًا من أين تأتّى لي ذلك بأن أستدعي الجانب المعتم في صداقتي مع ديرفو.

برزت ساعة ديرفو من تحت كمّ قميصه، فلاحظت من دون قصد اقتراب الساعة من الثالثة وهو وقت مجيء هانيا المعتاد إلى البيت. من المحتمل أن تتأخرقليلا اليوم، وهي تعرف أنه اليوم الذي نذهب به إلى جسر كوزيا، ولكن لا يمكننا ذلك بسبب الحرب، ولا حتى الخروج من البيت إلا لحاجة ماسّة، ولذلك فإنها ستبقى في مكان العمل وقتًا أطول لكي تختصرعلينا أوقات الحزن. وعدا ذلك فمن المؤكد أنها حزينة مثلي،

وهي لا تحتمل أن نكون معًا عندما نكون حزينين. ولذلك ستتأخر اليوم بقدر ما تستطيع، من المؤكد أنها ستتأخر ولكنني على الرغم من ذلك قررت أن أستأذن ديرفو، وأسرع إلى البيت. رغبت في أن أكون هناك عندما تأتي.

وفي الحقيقة فقد نهضت عندما تناهى صوت انفجار مخيف. أشارت قوة الانفجار إلى أن القذيفة وقعت في مكان قريب تمامًا، أي في مكان من المؤكد أن فيه أناسًا. فسارعنا نحن الاثنين إلى الخارج دون أن ننبس بكلمة.

بين مركز الشرطة والعمارة السكنية المجاورة، على هذا الجانب من الشارع، يمتد على مساحة عشرة إلى خمسة عشر مترًا مكان خلاء يطلق عليه الجنود اسم «الممحي». على تلك الناحية من الشارع يغلق ذلك الخلاء إحدى العمارات السكنية الكبيرة بمحل تجاري وبمقهى – بار صغير في التسوية. وفي تسوية تلك العمارة على يسار المدخل هنالك شقة فارغة، وعلى يمين المدخل مكان لرابطة مربي الطيور المغردة وأحواض الأسماك. ووضع أمام مدخل الرابطة جسد لجثة من دون رأس. لا أعرف أين سقطت القذيفة وانفجرت، ولم أعرف ماذا حصل، وكيف يمكن عمومًا أن يحصل أن يتلاشى حرفيًّا الرأس والرقبة عن جسد غير مصاب بشكل تام، ولكن كان يرى من النظرة الأولى أن مثل هذا قد حصل. كان الرأس مقطوعًا حرفيًّا وفعليًّا مع الرقبة المجتزة من بين الكتفين حيث

كانت تشخب منها خيوط دم غزيرة بقدر كبير وبارتفاع سال على الجدار فوق باب مدخل الرابطة. لكن الملابس التي رأيتها قبل قليل لم تدع مجالا للشك أن الأمر يتعلق بسارة.

زعقت على ديرفو عندما استطعت أن أستعيد صوتي:

- كيف يمكن لذلك أن يحصل؟ وضّح لي، أين وقعت؟
- لا تقل كلامًا تافهًا.. أرجوك.. اذهب إلى البيت، وبّخني ديرفو وبدأ بإعطاء الأوامر لأفراد الشرطة الذين كانوا هناك.

أخذني أحدهم من يدي وقادني إلى بيتي، مع أنني لم أسمع أن ديرفو قد أمره بذلك.

خاتمة

سقط الثلج اليوم للمرة الثانية على نحو كثيف وهادئ. كان ينهال ويغطي عالم الله الطيب، كأنه يريد أن يخفي الواقع عن النظرات البشرية، ويقدم له الأبيض حقيقة وحيدة، ولونا وحيدا. لا أعرف إن كان حقيقة، أو ربما بديلا وملاذًا أمام الواقع. ستار أبيض يوزع الوجود على واقعية هذا العالم غير المرئية لأنّها على الجانب الآخر من الستارة، وعلى ثوب عرس سارة الأبيض من الجانب الآخر المرئي مع أنه ليس من هذا العالم.

لكنني لا أحتاج الثلج ليذكرني بسارة، وأن يعيد فيّ كلّ لحظة ما كنت قد قضيته معها حتى أدق التفاصيل. لا أحتاج الثلج لكي أتحدث عنها، وأتناول موضوعها والجدال حولها، لا أحتاجه لأنّني في الحقيقة، ومنذ ذلك اليوم البعيد نهاية شهر شباط 1993 لا أستطيع التحرر من سارة. تذكري لها وسؤالي عنها وعن المسائل المتعلقة بها، وبالأخص قضيتها هي، كلّ ذلك كان يطاردني حرفيًّا كلّ يوم، وطوال اليوم، وإلزاميًّا في الليل، في الفراش، عندما كنت آمل أن أحظى بالسلام. ذكريات عزيزة وجيدة، الحب والامتنان والحسد بشكل خاص (إلهي كيف يواتيني أن أحسدها! لقد تحرّرت من وجهها غير المرغوب فيه، وكل الشكوك حول الواقع والوهم، حول الجواني والبراني، تحرّرت من كلّ شيء كان يطاردني بألم ويسمّم لي هذا الزمن الذي بقي لي هنا). شعرت هانيا بكل ذلك وفهمته

بشكل تام، ولذلك فهي تتحدث ثانية عن سارة، وأحيانًا تقوم هي بذكرها، أو تحرف الحديث نحوها. تساعدني جدًّا لكي لا أنسى شيئًا، وغالبًا ما تصحح بعض التفاصيل التي حفظتها خطأً، أو أضافتها من غير قصد. إن سارة هي واحدة من بين عدة مواضيع نتناولها كلّ يوم، قلّة من الناس من لهم حضور حقيقي في بيتنا.

إن سارة، أو الطريقة التي تكون فيها حاضرة في حياتي وبيتي، تتطابق تمامًا مع الحياة التي أحياها منذ عدة سنوات، وربما في الحقيقة منذ ذلك اليوم الذي تخلّت به عنّا. لقد حذرتني هانيا في أحد الأيام من أنني أقضي مزيدًا من الوقت في واقع موازٍ، افتراضي، أو في الحقيقة من وحي الذاكرة، وليس في هذا الواقع الذي وهبنا إيّاه الله العزيز. قليلا ما أخرج من البيت، ونادرًا ما أدخل في إحدى المحلات المليئة باللمعان المعدني، لا أطيق ربما ذلك اللمعان البارد والتخفي البليد الذي تعرضه لي هذه المحلات. ولذا يبقى عالمي مليئًا بالمحلات العزيزة، التي لن يشرب فيها أحد شيئًا أبدًا. كذلك الأمر مع المشاوير. أعبر الشوارع التي لم يعد فيها بقّاليات معروفة لي، ولا كتابات أعرفها، وأسماء قريبة مني، لكن مشاويري دومًا تصف الطريق نفسه المحدد بعلاماتي وما أتعرف عليه من العلامات. وما أتعرف عليه من العلامات هو من العالم الخارجي الحقيقي، وهي ولم تعد موجودة منذ أمد بعيد. هل هو الطريق نفسه؟ هل المكان الذي أقف

عليه الآن هو نفسه الذي وقفت عليه، بينما كان هناك آخر يترآى لي علامة على ما أتعرف عليه؟

وهكذا هو الأمر مع الناس. أرى العديد من الناس أكثر كثيرًا مما يحق لي، ولكن الأكثرية الكبيرة من الناس تبقى إلى حد ما بعيدة. كثيرًا ما يبدون لي أقل واقعية من الكثيرين من الراحلين الأعزاء الذين أنا محاط بهم بدون توقف، وهم أكثر علانية، وأقل واقعية بشكل كبير، وهنا مربط الأمور. وكل ذلك بالنسبة لي على هذا النحو.

وفي الحقيقة، الأمر كما هو لدى سارة، سارة من جهة، وسيرافينا من الجهة الثانية، أريد أن أقبل بواحدة منهما، ربما لأنّها غير موجودة حقًّا، أو بالأحرى لأنّها تقودني إلى هناك، ولا أقبل بالثانية لأنّها موجودة بوفرة. أرتبط بهما هنا بشدة تحافظ بطريقة تشنجية على كل ما هو ليس ملكًا لها بشكل عام. أو أنني فهمت صديقتي عن طريق الخطأ؟ هل حفظت خطأً الاعترافات الطويلة في دائرة ديرفو، في ظلال القاصة المعدنية الضخمة؟ أكدت لي هانيا أنني فهمت خطأً، حتى لو حفظت ذلك جيدًا؛ لأنّني أفهم كلّ شيء عن طريق الخطأ إذا تعلق الأمر بالناس. وهذا ممكن تمامًا، لكن هذه المعرفة لن تقلل من الفجوة بين العوالم الموازية التي حُكم عليّ بالإقامة فيها.

وهذا لا يجيب بشكل خاص، ولا على واحد من الأسئلة التي تطاردني، والتي أحتاج للإجابة عنها بألم. لماذا تُذكّرني سارة حقًا، من بين

جميع الراحلين الأعزاء، بمن هم الأكثر اتزانًا والأطول عمرًا، وهو ما أحسدها عليه كثيرًا؟ لأنّها عزمت، ولأنّها تجنبت هذه الهجرة الطويلة المربكة؟ (عندما لم يكن كلّ ذلك سريعًا، استعراضيًّا مليئًا بالنار أو تهيأ لي ذلك) بسبب أنه كان لديها الجرأة للحديث على الأقل في ذلك اليوم، على الأقل في النهاية عن ذلك الذي ما زلت لا أقدر أن أفكر به بوضوح.

لا أعرف.. قليلا ما أعرف.. وقليلا ما أفهم. لحسن الحظ يتساقط الثلج وكل شيء أبيض.